

أَسَاطِيرُ الْجِبِّ وَالْجَمْرِ

عند الإغريق

دروني خشبة



أَسَاطِيرُ الْجِبِّ وَالْجَمْرِ عند الإغريق

الكتاب الذي بين أيدينا الآن هو دليل لا غنى عنه، ومفتاح للتعرف على جذور الميثولوجيا اليونانية، فهو يقدم لنا أصل الآلهة، وعلاقاتهم، وشجرة نسبهم، وأنواعهم، وغير هذا، بهدف تزود القارئ بالخلفيات المناسبة لدى تعاطيه الأدب اليوناني القديم، أو مطالعة النصوص التي استلهمتها من أعمال شيلر وشيكسبير وغيرهما من رواد الأدب الغربي.

فهذا الكتاب إذن هو مصباح لا بد منه للتمتع بجنة هوميروس، وحنات الشعراء الأفذاذ الذين جاءوا من بعده، فشادوا على بنيانه صرح ذلك الأدب.. والنور الذي يرسله هذا المصباح كفيل بتبديد ظلمات ذلك التراث الذهني القديم الذي أبدعته لنا شقيقتنا في ذكريات الماضي.. هيلاس المجيدة.

الغلاف من لوحة "ولادة فينوس" للإيطالي ساندرو بوتيتشيلي | عصر النهضة



أساطير الحب والجمال

عند الإغريق

الطبعة الأولى عام ١٩٦٥م

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

ميثولوجيا

دريني خشبة

طبعة جديدة: ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥٨ / ٢٠٢٠

ISBN 978-977-85739-8-5

٣٤٤ ص ، ٢٠ سم

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج ٢٠٢٠ ع

{جميع الحقوق محفوظة ©}

تحقيق: عادل أبو الأنوار

غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

دريّني خشبته

إضافة
للتشريع والنوع

إِهْلَاءٌ

إلى الأستاذ العبقري الأول

مؤلف

"ألف ليلة"

دريني خشبة

في حضرة الميثولوجيا العظيمة، والأديب الجزل

كان نداء الدكتور طه حسين بالالتفات إلى التراث اليوناني وترجمته وتقديمه للقارئ العربي نداء محمود الأثر، فقد ساهم ما أضيف إلى المكتبة العربية من تراث الإغريق في تشكيل وجدان أجيال من الأدباء والفنانين على مدى عقود، وإثراء الأدب العربي ببعد جديد من الخيال الشعبي.

وكان من أوائل من لبوا هذا النداء الدكتور دريني خشبة، الذي كرّس عددًا كبيراً من مؤلفاته في خدمة هذه المهمة، فانطلقت أوراقه تنقل لنا الأساطير اليونانية وحياة آلهة الأولمب والملاحم اليونانية الشهيرة من إبداع الشعراء أمثال "هوميروس" كالإلياذة والأوديسا، وانفتحت للقارئ العربي كنوز الإغريق التي خلفتها حضارتهم منذ قرون.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن هو - كما وصفه المؤلف - دليل لا غنى عنه، ومفتاح للتعرف على جذور الميثولوجيا اليونانية، فهو يقدم لنا أصل الآلهة، وعلاقاتهم، وشجرة نسبهم، وأنواعهم، وغير هذا، بهدف تزود القارئ بالخلفيات المناسبة لدى تعاطيه الأدب اليوناني القديم، أو مطالعة النصوص التي استلهمتها من أعمال شيللر وشيكسبير وغيرهما من رواد الأدب الغربي.

ولكن الحقيقة أن دريني خشبة لم يكن مجرد ناقل أو مترجم فحسب، فهو كان بحق النموذج الذي تفتقده حركة الترجمة الآن منذ زمن طويل، ألا وهو المترجم الأديب، المثقف الواعي، الذي تعدّ ترجمته إضافة للنص لا تشويهاً لروحه، فهو أديب ألمعي من الطراز الأول، يتحلى بملكات أدبية ولغوية وبلاغية رائعة، تذكرك بمصطفى لطفي المنفلوطي، بما يصوغه من تعبيرات جزلة وتشبيهات رائعة، ومجازات تضعه في مصاف الأدباء الكبار، وقد كان قاموسه متشبع بالتراث العربي، القرآني منه والأدبي، يصوغ قصص الإغريق بمفردات وتراكيب البيداء العربية، فأخرج لنا نصوصاً يمتزج فيها عبق الغرب برونق الشرق.

لهذا فقد اخترنا هذا الكتاب لنعيد نشره مرة أخرى، وتقديمه بين يدي القارئ، حتى نتعرف الأجيال الجديدة على ما تشكلت بين يديه روح وشخصية الأجيال التي سبقتهم، كما أن قصص الحب الإغريقية - برغم مكائد الآلهة وصراعاتهم - تبعث الرقة في المشاعر وتثير الحنين في القلوب إلى الجمال وسحر الحب وفتنة الغزل.

الناشر

مَقْلَقَة

هذه طائفة من الأحلام اليونانية الرائعة كان يحزني ألا يعرفها قراء العربية، على طول ما سمعوا بها، وعلى كثرة ما دأبت خيالهم، وغازلت أحلامهم، فأنا أقدمها إليهم اليوم، بالطريقة التي آثرت أن أروي بها هذه الأساطير..

أحببت أن أسجل ذلك، حتى لا يدور في روع أحد أنني نقلت ما نقلت من آيات ذلك الأدب الذي أغرمت به، شعراء أوربا الحديثة حين قدموا لبلادهم ذلك التراث اليوناني المتلبد، وهي الطريقة نفسها التي أقرها، وجرى عليها الأستاذ الإنجليزي الكبير "توماس بلغنش" (١٧٩٦ - ١٨٦٧)، حينما نقل إلى الإنجليزية معظم الأساطير اليونانية عن أوفيد وفرجيل..

فرب أسطورة ليس لها في أصول ذلك الأدب إلا سطر أو سطران، رواها هو في صفحة أو صفحتين، ليباعد بينها وبين جفاء العلم، وليجعلها سائغة في أذواق مواطنيه. وهكذا فعلت...

وما دمت قد أشرت إلى الأستاذ بلفنش، فلا بد من الإشارة إلى الأستاذ هـ. أم. جبر H.A. Guerber الذي انتفعت بكتابه الخالد^(١) في تسوية أساطيري هذه، والذي أغراني إغراء شديداً برواية هوميروس كله، في ملحمتيه العظيمتين "الإلياذة" و"الأوديسة"، كما أغراني بعد ذلك برواية ذلك الأدب التمثيلي اليوناني البارع، الذي بقي للهدنية وللذهن الإنساني، من شعراء الإغريق القدامى: أسخيلوس، وسوفوكليس، ويوريبيدز، ما قدمته إلى قراء العربية في الصحف والمجلات..

أما أساطير اليوم، فهي من غير شك الفصل الأول من ديوان الأدب اليوناني الحافل، الذي أشفق العرب من نقله إلى لسانهم، خوفاً مما يفيض به من وثنية، على الدين الجديد.. ولم يعد لنا عذر في أن تحول تلك الحجة بيننا وبين الانتفاع بالأدب اليوناني، ولا سيما في طفولته الأولى الجميلة التي أبدعت لنا تلك الأحلام..

ولا بد هنا من الاعتذار عما كان لا بد من إيراده في بعض تلك الأساطير، من ذلك اللون من الحب الذي يوشك أن يكون صارخاً.. فقد أردنا أن نعطي القراء صورة صادقة عن الفجر الأول لذلك الأدب اليوناني.. وليس من الصدق أن نخفي بعض ألوان تلك الصورة..

(١) أساطير اليونان ورومة Myths of Greece and Rome.

وإن كنا قد حرصنا على ألا نثبت منها ألا أقربها - أو ما يكاد يكون أقربها - إلى ما نأخذ به أنفسنا من كريم تقاليدنا.

أما أن هذه الأساطير التي أقدمها إلى القراء اليوم، هي السفر الأول من ديوان الأدب اليوناني، فذلك الحق الذي لا مرأى فيه.. فهي على قلتها، تقفنا على كثير من أعلام الميثولوجيا اليونانية، وخصائص آلهتها وأنصاف آلهتها وعرائس غابها وبنات مائها وسائر سكان ذلك الأولمب العجيب، بما كان يسيطر عليه في عالم الخيال من قبائل السنتور والأوسيانيد والنيريد، مما يجده القراء مبثوثاً في ثنايا هذا الكتاب، تلك الأسماء التي آثرنا منها ما هو أكثر شيوعاً في الأدب الأوربي الحديث، الذي يؤثر الأسماء اليونانية أحياناً، ويؤثر الأسماء الرومانية أحياناً أخرى.

فهذا الكتاب إذن هو مصباح لا بد منه للتمتع بجنة هوميروس، وجنات الشعراء الأفذاذ الذين جاءوا من بعده، فشادوا على بنيانه صرح ذلك الأدب.. والنور الذي يرسله هذا المصباح كفيل بتبديد ظلمات ذلك التراث الذهني القديم الذي أبدعته لنا شقيقتنا في ذكريات الماضي.. هيلاس المجيدة.

دريتي خشبة

بسيشيه وكيويد أروع قصص الحب في التاريخ القديم

كان الليل الهادئ المقمر أصفى من قلوب العذارى، وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين، وكان البدر العاشق المسهد يرسل القبل فتنتبج على حدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطر أحلام المدنفين!

وكان كيويد الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك، التي أهانت بجملها كبرياء أمه فينوس!

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفق ماء الشباب في جسمها الريان، فهوت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من دون فينوس!

وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلال وفتون، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامة ووسامة وفتنة!

أجل، كانتا دونها فتنة، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لجة من الحسن الغامض ما لها من قرار، وكان غموض حسنهما هو سر عبادة الناس لها، وافتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!

ودعت إليها ابنا ربة الحب، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة، وجسمت له ما يحق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتها إلى هذه المخلوقة التعسة:

أفريضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولب نكرتين لا يخبث لهما
شعب من العباد المخلصين؟

أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهن، وهم كما تعلم
مغيظون مني، فيقولون ها هي ذي فينوس التي أذلت كبرياءها
امرأة، وصرفت الناس عن عبادتها عادة؟ اذهب إذن فتربص لها،
وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى "هيدز"، وبئس القرار! وإنه
لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، أو يفتتن بها بلوتو ومائو..

ومضى كيوييد إلى قصر الملك في طريق حفة بالورد: وعبرت فيها
أرواح البنفسج، وتأرجح النرجس الغض واختلط كل أولئك
بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر، وجعلته يحس الجنة
التي يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبه
من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفتنوا فيها..

وكبرت في قلب كيوييد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجرمة،
وتفيض بالآلام، فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر
ينعكس على الأزهار ثم يرتد شعراً وسحراً وموسيقى صامتة، تعزف
ألحانها على أوتار قلبه الخفاق!

وصدح بلبل غرد في هدأة الليل الفضي، فانتفض الإله الأصغر
وحمل قوسه وسهامه ومضى.. لا يأبه بجمال الطبيعة الساحرة، ولا
يأسر له هذا البهاء الذي يغمر الكون حوله، حتى كان عند أسوار
القصر الملكي الراقدة في طوفان زاهر من أزهار الشبر والياسمين
والبابونيا.

وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان في حديقة القصر..
ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامي، متبخترًا، دون أن يلحظه
الحرس..

وانفتل في بسيشيه النائمة، واندس خلف الستائر الحيرية يوتر القوس
الذهبية وينتقي من كتاته سهمًا تقطر المنية من سنانها، ويرقص
الموت على شباته!
وتقدم نحو الفتاة...

يا للجمال النائم فوق الأريكة! ويا للفتنة العائمة ملء السرير!
لقد كانت متجردة كلها! وكان نهدها البارز المثمر مجللا بشدين
ناضجين يتجلمان لذاذة ويلتهبان إغراء!!
ونامت هذه الذراع هنا، واطمأنت تلك الذراع هناك، لدتان وإن
كانتا كالمرمر، رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود!!
وكان السحر يهيمهم فوق الساقين الملفوفتين، ويهوم من تحتها، كأنه
يرقيهما من نفسه، أو ينفث فيهما من روحه..!!

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية، رقد مستسلمًا لأحلام الشباب
الحلوة متلألئًا في شماعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة
القريبة، رسولًا من لدن ديانا^(١) البارة، أقبل ليقول للإله الأصغر:
"مكانك أيها الرامي الحبيب! ماذا جني عليك هذا الحسن فتسلمه
للردى، وتجرحه كأس المنون؟! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به،

(١) ديانا هي ربة القمر، وهي التي اكتشفت كيوبيد، فأرسلت الشماعة فوق
وجه الفتاة لإنقاذها.

فإنك لن تجد في ربات الألب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البريء...!!

وخطا كيوييد خطوتين، وحلق في وجه بسيشيه..
وبهره الحبين المشرق، والهدب الناعس، والحد الأسيل.. وأخذ بلبه
هذا الشعر العسجدي تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاءً
ورونقا، فآلى لا يهدرن هذا الجمال البارع، وانثنى مسلوب اللب،
مشدوه القلب، موزع الفكر، وانتزع السهم فألقى به في كئاته.. وقبل
أن يخرج يده الصغيرة الناعمة، شاء القدر أن يخذلها سهم ذهبي من
سهام الحب، ملأ كيوييد هوى وأفعم قلبه صباة، فتقدم نحو بسيشيه
في خطى اللهفان، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجهاها الفينان.

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة، وعاد أدراجه عاشقا وامقا
لا يبالي بسخط أمه فينوس!!

* * *

وانصدع عمود الليل، وتنفس الصبح فهبت الأرواح النائمة، وأقبلت
فينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك.. بيد
أنها - بدلاً من ذلك - وآت بسيشيه، بسيشيه بعينها، تمرح في
حدائق القصر، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحيها
وتغني لها، وتضفر لها أفواف الزهر!!

وحنقت ربة الجمال والحب، ونادت بالويل والثبور على ولدها
كيوبيد، وأقسمت لتجعلن مباح الحياة ووضاءتها ظلاماً في عيني
الفتاة!!

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها، وأغرت بها بعض خفافيش
سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها
وتصهر روحها، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر،
وطفقت تصرخ وتقول، ولا يدري أحد لماذا تصرخ ابنة الملك
وتعول.. وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون
ويعجبون ولا يكادون يحIRON..

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة، ولكنها ما كانت لتزداد إلا
شكاة وأشجاناً!!
وكرت الأيام..

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر، وفي نفسها
أن تلقي بحمل الحياة من شاحق، فتستريح مما يطيف بها من آلام!
ورآها كيوبيد..

وظلت هي ترقب المرج الهائج، وتشهد اليم المصطخب، وتلقي على
البطاح نظرة مودع عجلان، وعلى المروج الخضمر تحية مأخوذ القلب
أسوان، ثم صرخت صرخة هائلة، وألقت بنفسها من عل..
وكان كيوبيد قد أحس بما تعزمه حبيبته من الانتحار، فدعا إليه
صديقه ونجيه زفيروس، إله الريح الجنوبية، وأطلعه على ما يكن من
الحب: "لهذه الفتاة التي تكاد تلقي بنفسها من قمة الجبل يا صديقي
زفيروس.

فإن رأيت أن تكون لك عليّ هذه اليد، أذكرها لك أبد الدهر، نخذ أهبّتك، ولا تدعها تغوص في اليم، بل تلقّها في يديك الرفيقتين، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطئ المنصور بالرياحين، فدعها ثمة، فقد أعددت لها مستراحاً وملعباً..".

ولشد ما دهشت بسيشيه إذ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها في يديه الكريمتين، ثم يترقب بها فيضعها على ظهره العريض الرحب، كأنه أريكة من أرائك الجنة، ويخوض بها اليم المضطرب فتمنوله الأمواج ويسجد من تحته التهبج، ويصير الخبر في لمحّة كأنه مرآة صافية ملساء، كأنها السماء..

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يجيئها بتمتة، وينطلق في البحر الذي يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه.. وتجلس بسيشه على الكأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول، لترى هل هذا الذي هي فيه حلم أو هي قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة؟!!

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هي التي تنفذ إلى دار الموتى، وأنه ليس في دار الموتى شمس ولا إباء، وهي تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير، وهي ترى إلى الشمس مشرقة تغمر بأرآدها البر والبحر، وتنشر أنوارها في الأكوان جميعاً..

إذن هي لم تمت، وهذا الطيف الكريم الذي أنقذها من الموت، والذي ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة، وإذن فلتنهض ولتضرب في هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمراً غير هذا الأمر..

ومضت في غياض وأرباض، ورأت في الأفق القريب قصرًا باذخًا
ذا شرفات وأحياد، فيممت إليه، وما كادت تدنو منه حتى فتحت
بوابة السور الكبرى على مصراعها، وامتدت منها أذرع نورانية
تصافحها، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفي بها وتحيي وتبني!!
وفركت بسيشيه عينيها كذلك!

وظنت أنها تحلم، ولكن كل شيء حولها كان يحدثها أنها ترى رؤية
حقيقية لا رؤيا منامية.. فدخلت القصر، وفي نفسها من الحيرة وشدة
العجب ما أخذ يتضاعف في كل خطوة ويزداد..
وحاولت أن ترى أحدًا ممن لهم هذا الصوت الرقيق.. ولكن عبثًا..
ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها، تقودها إلى المخدع
الوثير الذي أعدته العناية لها..

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه:

- ويدهشني أنكم تحتفون بي. وتبالغون في إكرامي، وأنا لا أرى
منكم أحدًا، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز؟^(١).
- كلا أيتها العزيزة، ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك..
- ومن الذي أصدر إليكم هذا الأمر؟
- ونهينا أيضًا عن ذكر اسمه..
- أنتم كرام، ولكنكم تضايقونني إلى حد الإزعاج..

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الإخفاء.

- "ليفريغ روعك أيتها العزيزة، ففي المساء، تلقين الأمر الكريم صاحب هذا القصر، وصاحب القصور الكثيرة في أطراف الأرض.

- وهل لي أن أجول جولة في قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبي؟

- ولم لا؟.. بسيشيه العزيزة!

- بسيشيه؟.. ومن أنبأكم باسمي؟

- رب هذا القصر أيتها العزيزة..

وجالت الفتاة في القصر الجميل المنسق، وكأن مثار عجبها هذه الصور البارة المرسومة على الجدران، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة، وتحركت على الحائط متلهلة مستبشرة، محيية بابتسامة خفيفة، أو انحناءة مؤدبة..!!

وكانت التماثيل في زوايا الغرف، وأوساط الردهات، وفي حنايا الحديقة، وفوق الرابي المكسوة بالسندس الرطب، تحيي الضيفة، كأن حياة تدب في ممرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها فتتحرك الأذرع، وتومئ الرؤوس، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ..

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تثلبث فتسمعها أشودة الخلد، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل منها حتى ينتهي من غنائه الحلو، وتغريده الرنان. وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس.

* * *

فلما كان الفسق^(١) سمعت إلى الباب يفتح، ويدخل فتى خفيف الخطى، ويقبل عليها فيحيي أحسن تحية بأرق صوت، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها.

وكان الظلام شاملاً، فلم تستطع بسيشيه أن تثبين وجه الجالس إليها أو خلقه، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتاز بصوته الحنون، وكانت تحس كأن عبارات تكاد تخنقه؛ لأنه يريد أن يوح بشيء يمنعه النجل من البوح به.. واقترب منها..

وأخذا في حديث شهني، ولكن الحياء كان لا يزال يعقد لسانيهما.. واقترب منها حتى تماسست الأجسام المرتجفة. وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا، ثم دنا الفم من الفم، واستراح الخد على الخد، وبدأ طوفان من القبل..

وتتم كل من الحبيين بهذه الكلمة السماوية الخالدة:

- .. أنا.. أحبك..
- كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذي أنقذتني من براثن الموت!
- أجل يا منية النفس، ورجية القلب، بمعونة الإله الرفيق زفيروس.
- أفأنت إله إذن؟
- لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً..

(١) الفسق أول ظلمة الليل.

- إذن ما اسمك؟
- ولا هذا أيضاً!
- أحب أن أراك، فهل تأذن بإيقاد المصباح؟
- إذا حاولت أن تريني، كان فراقاً بيني وبينك!!
- أنت تزعجني..
- ولم أزعجك؟.. أأست قد أنقذتك من الموت، وأسكنتك هذا القصر المنيف؟ ولست آمن عليك!
- برغم هذا فإنك تزعجني..
- هاتي قبلة.. ودعي هذا الحديث الشاجن..
- "؟..؟.."

* * *

وظل يزورها كلما أقبل الليل، فيمكث معها حتى مطلع الفجر
آخذين في عناق وقبل، وحديث ألد من قطع الروض، وأروح من
رفيف النسيم، ثم يفصل^(١) على أن يعود لميعاده من اليوم التالي..
وبسيثيه راضية قانعة، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفي..
ولا ما يكون اسمه..

(١) يمضي.

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطئ الطويل المزهر فلقيت أختها فجأة تخرجان من زورق جميل، فتعانقهما عناقا حاراً، ويغمرها للقائهما فرح كبير، وتعود بهما إلى القصر، وتطوف معها حدائقه وغرفاته، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق، وتدخلهما "هيكل الحب" كما اتفقت وحببها على أن يسميا المخدع، ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن تلقاهما..

وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين، ويكون الحسد قد شاع في نفسيهما الخبيثتين، فتضمران لها الشر المستطير.

- ولكن كيف تطمئنن إلى هذا الحبيب يا أختاه؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعادة؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظري إليه؟ أليس يخشى أن تفرعي منه إذا رأيته على حقيقته؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشى؟ لا يا أختاه! نحن نخشى أن يجفوك يوماً فيقتلك.. لا بد أن تأخذي حذرك منه! ولا بد أن تنتهزي فرصة يكون غارقاً في نوم عميق فتوقدي المصباح وتنظري إليه، فإن كان وحشاً أو هولة، فإليك هذا الخنجر المرهف فأغمديه في قلبه واستريحي منه، وعودي معنا إلى أيينا الملك فإنه جد مشتاق إليك..

ودفعنا إليها الخنجر المسمم بغلهمما، وولتا عنها تحتبئان في أجمة دانية.. وفعل كلامهما في قلب أختهما فعله، فلما كان الليل، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته، وإلى الخنجر فشرعته، وذهبت تنظر إلى العاشق البريء..

فماذا رأت؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض!..

لقد كان نائماً حالمًا، فيه دعة وفيه فتون.. وملاً الفتاة حبًا.. واهتز المصباح في يدها.. فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته.. وفتح عينيه.. فرأى إلى الخنجر المرهف في يمين بسيشيه..

يا للهول..!!

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة، ورف بجناحيه الصغيرين وقال: "بسيشيه! يا شقية.. وداعًا.. فلن نلتقي بعد اليوم!". وشاعت الحسرة في قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والإعياء..

* * *

وما كاد كيويديرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه في شدة وعنف، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفغوانات هائلة تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحواني، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد، ويكاد ينقض، فهرعت إلى الخارج مهرولة، وهرعت في أثرها المخاوف والأشجان، يحدوها الذعر والفرع الشديد.

ونظرت في السماء فلم تجد قمرها المنشود تبته وتشكو إليه، بل وجدت سحباً قائمة في المشرقين والمغربين، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليباب! وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت، وترجم وجهها الكاسف المغضن بجمرات البرد أينما ولت.

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطئ كالذي يتخطفه الشيطان من المس، فلما لم يلبّ نداءها أحد، أنشأت نحو القصر، وطوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم.. ولكن.. هيات! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ، ولم يكن غارقاً هذه المرة في الطوفان الزاخر من أزهار الشير والياسمين والبابونيا، وكان عالياً على غير عهداها به، حتى يكاد يستتر وراءها القصر الباذخ، فلما استيأست من الدخول، وشعرت بقلبها يتحطم، وب نفسها تذهب شعاعاً، استلقت على الكلاء، واستسلمت لنوم ممتلئ بالأشباح.

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر، وفركت عينيها تخال أنها تحلم، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من الشاهلوط، وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النير..

ويكون صوابها قد ثاب إليها، فميم شطر الشاطئ تنفقد وروده
ورياحينه، ولكنها لا تجد إلا آفا من السراطين الميتة لفظها البحر
بفعل العاصفة، وإلا أكواماً من الودع والمحار تجلج كثران الرمال
الممتدة فوق الجزيرة، كأنها قوافل من الآم بسيشيه وأشجانها!
"ويلاه!.."

لقد حملت إليك أيتها الجنة الصفرة وبردك يرد الشباب، وريعانك
ريعان الصبي، وفي أعطافك تنهل سلافة الحب، وتحت شطآنك
ترقص عرائس الماء، وفي غدرانك تترقق أمواه الهوى، وكل ما
فيك تدب فيه الحياة ناضرة.

أفهلكذا يذبل شبابك، ويذوي ريعانك، ويغيض حبك وتقفز
شطآنك؟ فليس يرف فوقك إلا هامة، ولا يهتف فيك إلا صدى،
ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم!!
ويلاه!..

لقد كنت أفرك عيني أحسبني منك أيتها الجنة في حلم، فالآن أفرك
عيني أرى هل أنا من خرابك اليوم في حلم؟!
لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة، فلماذا لقيت أختي؟! أين
ذهبتا؟! أحسبهما ذعرتا من العاصفة، وفزعنا من الزلزال، ففرتا..
فصبر جميل!"

* * *

هكذا ظلت تبكي بسيشيه، وهكذا عبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر
أوبة حبيبها. ولكن بلا جدوى!

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها، وترشف من بقية الماء في الغدير رشفات قبل بها أرامها، ثم تعدو في الجزيرة باحثة عن.. لا شيء!

ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير ترتوي، فما شدها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد، والغدير يتسع ويتسع، حتى تكون على عدوة نهر عظيم دافق، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيه. ويبدو لها أن تلقي بنفسها في أعماقه، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض.. وإنها لتنظر إلى الماء فيجيش قلبها بالذكريات، وتفيض عينها بالدمع، ويشحب جبينها الكاسف الحزين، ثم يتأود غصنها اليباس الهش، فتتحد إلى اليم، وتلتقفها اللجة.

ولكن رب النهر الذي كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها، ويصبح بيناته عرائس الماء فيأتين من كل فج، ويترقق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة، ثم يتركها لبناته يداعبها ويلاعبها..

وتأنس بسيشيه إلى العرائس الحلوة، ولا ينجلها أن تأخذ معهن في حديث حبها، فإذا سألنها عن صفة حبيبها، قالت: "كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون في ذراعي، مسنداً رأسه على صدري، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباحج ومفاتن. وكان طيب الأنفاس، فما قبلني أو قبلته إلا شممت عبق الورد في فمه، وأرج البنفسج في خده.

وكان إذا عانقني أو عانقته، تحسست له جناحين على ظهره، صغيرين ناعمين، فإذا ساءلته عنهما، أنكر عليّ وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما، فنأخذ في أمور أخرى. وكان يحمل قوساً من ذهب ما تفارقه، وكناثنين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب..

وما دهاني في الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة: فيخلق في كبد السماء كأن له قصرًا فيها.. فبحق زيوس عليكن يا عرائس ألا ما أعلمتني من هذا الحبيب، فأنتن بنات إله مبارك، ولا بد أن يعرف أبوكن من أمره كل شيء..".

وصمتت بسيشيه، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة، ثم يتهامن، ثم لا يحرن جواباً، فقالت لهن: "أنتن ترعجنني يا عرائس، فهل هكذا يستقبل الضيف لديكن؟". فقالت كبراهن: "لا عليك يا فتاة، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيت أمر كيوييد!".

– كيوييد؟! ومن كيوييد تعنين؟!

– "كيوييد بن فينوس، فهو هذا الذي كان يهواك وكنت تهوين".

– "كيوييد الإله! كيوييد حبيبي! يا ويح لي.. لا بد أن يعود لي إلهي الجميل الحبيب.. لن تحلو لي الحياة بدونك يا كيوييد..".

هامت بسيشيه على وجهها في أقصى الأرض، وكلها مرت بروضة أو غيضة، وكلها وقفت عند ضفاف نهر أو ألت بحفافي غدير، برزت لها عرائس الماء فشكت إليهن، وسألتهن إن كن يعرفن أين يأوي كيوييد؟ وقالت لها عروس:

- "أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذي يحمل السماء بروقيه؟ إذا كنت عنده فتلبثي حتى يعود بان^(١) من صيده فتعلقي به، واذرفي من دموعك تحت قدميه، فإذا هش لك وبش، فأذكرني له حاجتك يقضها لك. أو يدلك على من عنده قضاؤها".
- "ومن عسى أن يكون بان يا أخته؟".
- "رب المراعي، وإله الصيد، وحامي القنص، ألم تقربي له؟ ألم يفعل أبواك؟".
- "بل فعلنا..".
- وذهبت إلى الجبل وكأنا بها مس من الجنون، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس إلى الغروب، فرأت (بان) قادماً يدب بحافريه، ويردد في الآكام ناظريه، فلما لحها أقبل عليها دهشاً متعجباً، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها، وسباه منظرها..
- وشكت إليه، فما هالها منه إلا قوله: "تعسة! أنت غريمة فينوس!" فقالت، وفي عينيها دموع تحنق منطقتها: "غريمة فينوس؟ ومالي أنا ولفينوس؟" فقال بان: "جمالك هذا جنى عليك.. لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب إلى عبادتك أنت أيتها الشقية، ولذلك حنقت عليك، وأصابك من الأذى ما أصابك.. اسمعي يا فتاة.. لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير، هل تعرفينها؟ أم برسفونييه، فتاة الربيع التي خطفها أخي بلوتو لتؤنسه في هيدرا! مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوييد وهيامه بك! بك أنت! أليس اسمك بسيشيه؟".

(١) ورد ذكره في بعض الأساطير باسم كونستتيس. ولا يزال الرعاة الإنجليز يؤمنون بحاميهم بان إلى اليوم.

- "؟..؟.."

- "تحلي إليها إذن. إنها ليست بعيدة من هنا. إنها شفيقة رفيقة، وهي ترثي لأمثالك من العاشقات الوامقات، تحدثي إليها عن كيوييد واستمعي إلى ما تقوله لك وتشير به عليك.. أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة؟ إنها هناك تنتظر ابنتها في أوبته من هيدز".

وعجلت إلى الغابة، ولقيت ديمتير الطيبة الوقور: فانحنت تحيها، وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين، وتحاذلت نخرت مغشياً عليها، وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب، فكان الزهر ينبت حول بسيشيه كلما انتثرت قطرات على الأرض، فلها أفقت، بهرها هذا السرير الربيعي من منصور الورد يحف بها، ويحنو عليها.. وبسمت ديمتير، وواست الفتاة الواهة وآنسها، ثم ذكرت لها أنها رأت كيوييد بكرة ذلك اليوم، وفي كتفه جرح دام أحدثه فيه أمه فينوس، لماذا؟ لا يدرى أحد!

- "فإذا كان لا بد لك من لقاء كيوييد، فاذهي إلى فينوس وتبتي إليها، وادخلي في خدمها وحشمها، وأثبتي لها بتفانيك في طاعتها أنك من عبادها المخلصين، عسى يا بنية أن ترضى عنك، ويذهب عنك هذا الحزن".

ثم قادتها إلى قصر فينوس، وزودتها بما ينبغي لها من النصح، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه.

وبرهنت بسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبتها، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الأداء.

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها فينوس بالتوجه إلى هيدز - دار الموتى - واقتحامها، ثم لقاء برسفونيه، ربة الربيع، وزوج بلوتو، وسؤالها صندوق الطيب الذي تدهن منه العجوز الشمطاء، فيرتد إليها صباها، ويتدفق ماء الشباب في أعطافها، وتعود كما كانت، شرخ صبي، وعنفوان شباب!

وأسقط في يد بسيشيه! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز! ولكنها حين ذكرت برسفونيه، بدا لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحته، فذهبت إلى الغابة، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها، لتعود أدراجها إلى هيدز، إذ كان الربيع الحلو قد صوح، وأزف الشتاء بيرده وزمهريره^(١).

وهشت لها ديميتير، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة، ولما حان موعد الافتراق، أبدت بسيشيه رغبتها في أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها في ظلمات دار الفناء، فلم تعارض الفتاة، بل أذنت لها راضية^(٢).

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغني وتنشد.. وتبكي!؟

(١) الربيع والصيف فصل واحد والشتاء والخريف كذلك.

(٢) في بعض المصادر أن زفيروس هو الذي قاد الفتاة إلى هيدز.

وكم كان عجب بلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته، وبلغ به التأثر مبلغه، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة..

وتلطف بيسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين، فوجمت برسفونيه، وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب، لولا أن ذكرت الفتاة أن فينوس هي التي أرسلتها لتطلبه وتجيئها به. فنهضت برسفونيه إلى دولا ب قريب، وعادت بالصندوق، ترتجف به يدها العاجية الجميلة، وقدمته للفتاة وهي تقول:

"لا تفتحيه.. لا تفتحيه أيتها الصغيرة!".

واستأذنت بيسيشيه، وعادت أدراجها إلى.. هذه الدار الأولى.. وفي طريقها إلى قصر فينوس، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبي.. وذكرته كذلك تلك الليالي الطوال التي ظلت فيها مسهدة العينين تبكي كيوييد وتحن إليه، حتى شفها الوجد، وأوهنها السقم، وبرح بها الهيام الشديد، فتحدثت إلى نفسها تقول: "فلم لا أدهن بقليل منه وجهي وبشرتي؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت؟ ما دمت أطمع في لقاء كيوييد؟ إن ربة هيدز حذرتني من فتح الصندوق، لا أدري لماذا؟ فإذا كان ما به شراً، فلم تريده فينوس الجميلة؟ لا.. لا بد أن أتطيب به، وليكن بعدها ما يكون!".

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته.. ولكن.. وا أسفاه!

لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر.. روح النوم.. ولقد وثب في وجهه بسيشيه فخلق في عينها الزرقاوين الصافيتين، ثم ما هي إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المندى تفت في نوم عميق! وكان كيوييد يتنزه في الحدائق المجاورة، فما دهاه ألا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلاء، وصدره يعلو ويهبط، كأن كابوساً مستقر عليه.

ودنا إله الحب من بسيشيه، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول، وثار في قلبه الحنين إلى الليالي المقمرة التي كان يقضيها إلى جانب الرشا الغرير، الذي يترنح أمامه في قبضة الروح الشرير.. روح النوم!

ونظر كيوييد بعينه السحريتين، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعاً هائلاً.. فثارت فيه نخوة الوفاء، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة، حتى قهره، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه، ودفنه في غور من الأرض.

ثم تقدم إلى حبيبته، وطفق يروح على وجهها، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض، وطرب الورد، وشاعت في الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً!

"أختاه! انهضي! انظري إليّ! هأنذا كيوييد! هلمي فلن نفرق بعد اليوم!"

* * *

وأغدا السير، حتى إذا كانا في دولة الأولمب صاح كيوييد في معشر الآلهة: "أن اشهدوا أيها الأرباب، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لي مباركة.." وطرب الآلهة، وأقيم المهرجان الفخم، ورقصت ديانة ربة القمر، وعزف أبوللو موسيقاه، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التي تفنى.. ومنذ ذلك اليوم وهي ترف بأجنحة فراشة جميلة في جنة الأولمب ، وإلى جنبها حبيبها كيوييد.

* * *

أيخو ونركيسوس (الفاثنة التي أصابها البكم، والجميل الذي عشق صورته)

كان زيوس - كبير آلهة اليونان - يتعشق فتاة حلوة الدل، بارعة الحسن، رقيقة السمائل، تدعى "يو" وكان - برغم زوجاته الخمس أو الست - يختلف إلى حبيبته في الخلسة بعد الخلسة، يؤانسها ويأمرها وتؤانسه وتسامر، ويبل فيه الظامئ من ثغرها الراوي بقبلة.. أو رشفة.

وكانت أولى زوجاته (هيرا) هي التي تزججه بما تبث حوله من الرقباء وتنشر من الجواسيس، يحملون إليها كل حركة من حركاته، وكان هو يضيق بكل ذلك، ولكنه لا يستطيع إلا أن يداهن ويذاهن.. ويبالغ في المداهنة، لشدة شغفه بهيرا، ولأنه يحس في الخضوع لها لذة أولمبية لا تعدلها لذة.. إلا لذة تدليله لحبيبته يو.

وكما كانت هيرا تتمكر مكرها في كل حين، كذلك كان الإله يمكر مكره: أراد أن يشغلها عنه بملهاة تذهب من وقتها كل يوم^(١) بساعات يقضيها في أحلامه الغرامية بين يدي يو، ملتذا بقوامها الخصب، مستمتعاً بجمالها الفينان، ساجحاً في هذه اللجة المترعة بالمفاتن، في كل جارحة من جسمها الممشوق..

(١) آثرنا عدم ترجمة أيخو- أو أكو- بما يردانها في العربية وهي لفظة (صدي) لأن التسمية يونانية، وقد نقلها الرومان عنهم ثم ذاعت في كل اللغات وكذلك أثبت لفظة نركيسوس (نرجس) ليونانياتها أيضاً.

وقد سنحت له الحيلة..

حدثها عن فتاة ناضرة الشباب، ريانة الإهاب، عذبة اللسان، وقادة الجنان، تعرف من قصص الحياة وأنباء الدنيا ما لم يتيسر بعضه للآلهة أنفسهم! وكانت هيرا، ككل الأنثيات، مولعة بالثرثرة، مشغوفة بالمعرفة، تبغض الصمت وتغرم بالكلام الطويل الموشى، وهي مع ذاك طُلعة، بقدر ما هي أذن، تتكلم كثيراً، وتثرثر كثيراً، وتسمع كثيراً..

وانطلقت إلى الفتاة، فشغفت بها لأول لقاء، ووجدتها كما حدث زوجها فياضة القول غزيرة القصص، تندفق في حديثها تدفق الخمر في الكأس، حتى إذا استقرت في مكانها من الجسم، شاعت حمياها فيه، فأطربت، وأرقصت، كأنها عصرت من حديث هذه الفتاة!

ثم جعلت تردد عليها، وما تكاد الفتاة تفرغ من إحدى قصصها العجيبة حتى تأخذ في أعجب منها وأغرب، وهي بين الآونة والأخرى ما تني تنمق حديثها بالنكات البارة، والملح الرائعة، مرسلّة المثل في مقامه، والحكمة في موضعها، في غير كلفة أو عناء، ثم هي كانت رقيقة دقيقة، لا تمل السامع ولا ترهق الناظر. وكانت تقبل على سمارها وكأنها تختص كلا منهم بقلبها، وكأنها تلقي إلى كل منهم بقرارة نفسها، حتى ليحسبها كل له وحده بما يحسبه تأثيره به من عطف، وتغمرة من ود، وتزجي إليه من محبة..

وكانت حيلة صائبة من زيوس، شغل بها هيرا طويلاً. ليفرغ هو إلى يو.. فيا للآلهة!!

ولكنها شعرت من زوجها لفحة الصد، وأحست فيه انقباضاً وجفوة، فوقر في نفسها أن لا بد من أمر، وأن هناك سرّاً أي سر، فآلت لتكشفن ما تغفلها فيه.

وبثت عيونها، وأرسلت أرصادها، حتى استوثقت مما كان بينه وبين يو، وأدركت أنه قصد إلى إلهائها بهذه القصاصة الخبيثة ليفرغ هو إلى لباناته وأوطاره!

ولا ندري ما ذنب الفتاة التي ملأت أذني هيرا سحراً، ونقنت فيهما موسيقى وإلحاقاً؟ لقد ظلمتها زوجة الإله الأكبر، التي تحمل بالباطل لقب حامية النساء وحافظة الأجنة، حين أقسمت لتسلبها الطلاقة والذلاقة، ثم لتسلطن على لسانها العي والحصر يشقيانها ويعذبانها!

لقد كان كل ما اتهمت الفتاة به أنها كانت سبباً في تمادي زوجها في غي حبه، وإبعاده في ضلالة هواه، فنفت في عقد سحرها، ثم قصدت إلى الفتاة المسكينة فنهرتها. وأرسلت عليها شواظاً من غضبها، وقدفتها برقية من رقاها المهلكة، لم تستطع بعدها أن تلجج لسانها بكلمة واحدة تفرج بها عما في نفسها...

وقهقهت هيرا حين حاولت الفتاة أن تتكلم فلم تستطع، لم شاءت الخبيثة أن تظهر آية أخرى من آيات غدرها، فقالت، بعد أن نفثت نفثه ثانية: "أنا أسميك أيخو، وأمنّ عليك فأطلق لسانك باللفظة المفردة ترسلينها في ذيل كل كلام تسمعين.. اللفظة الأخيرة فحسب يا أيخو..".

فرددت الفتاة المسكينة: "أيخو!!".

أما يو، فقد نفذت إليها هيرا وصبت عليها من جام سحرها ما تحولت به إلى بقرة صفراء فاقع لونها.. تسوء الناظرين. ولهذا حديث طويل مشج ندعه الآن، لنرى ما كان من أمر أيخو..

دهشت الفتاة لبيانها أين ذهب، ولصوتها الجميل أين ولى، وللرخامة الفضية التي كانت تترقق من فمها الشتيت كيف ضاعت، ولهذا السحر الديني كيف قضى على أولئك جميعاً؟!

لقد بكت كثيراً، وتوسلت إلى الآلهة، ولكن.. أين الآلهة؟ لقد تصاموا جميعاً، لأن هيرا هي القاضية، ولأنهم يشفقون أن تفسد أسباب السماء كما أفست الأرض على عرائس البحر!

وأطلقت ساقها للريح، فيممت شطر غابة ذات ماء وذات أفياء، ثم إنها اتخذت لها مأوى في أصل سديانة ضخمة الجذع، معروشة الفروع وارفة الأفنان، وأقامت ثمة تجتر أحرانها وتسعر أشجانها، وتقابل بين ماضيها السعيد وحاضرها الشقي، وتسكب بين هذا وذاك دموعاً ساخنة وعبرات غاليات! وبينما هي سادرة في كهفها، مستغرقة فيما آل إليه أمرها إذا بصحب يافع من الشباب اليانع يملأون بابها، من دون أن يروها، وهم يتحدثون أحاديث الصبي، ويتسامرون سمر الفتوة، ناعمين بأشهى مناعم الحياة.

وظلت ترقبهم وتستذكر أيامها الخوالي، إذ الشمل مجتمع، والرواد محذقون، مرهفة آذانهم، شاخصة أبصارهم، فاهتزت هزة المحموم بالشجن، المروع بالشجن!

وأطلت من كآسها، فرأت الغلام الإغريقي المشهور، "نركيسوس" الذي دله الآلهة بجماله، وتام عذارى أثينا بنضارته وإشراقه. وأنه يتخلف عن أصحابه، مأخوذاً بجمال نرجسة حلوة اقتطفها من غصنها المياس وفننها المياد، ثم وقف يحرق فيها بعينيه المعسولتين، اللتين لونتاهما شمس الجنوب بهذه الصبغة السحّارة، وكنت ملاهما يعاسيب الفتنة، تنتشر منهما في دنيا القلوب!

والسبيل في الغاب ملتوية متداخلة.. تيه يضل فيه العابر، وبيات أخضر لا يهتدي فيه السائر، هنا منعرج لا يصل منه الإنسان إلى أمن، وهناك منحني لا ينتهي إلى سلام. ولقد مضى الدليل مع الصباح، ولبث نركيسوس وحده، يضرب أنحاساً للأسداس.

ولم تستطع أيخو حين أبصرت به أن تفلت من هذا الشرك المنتشر حوله، تعلق بخيوطه السحرية القلوب والألباب.. فأحبته بكل قلبها، وأرسلت في نظراتها إليه نفسها تترغ تحت قدميه، وتهمهم بين قدميه، كأنها خلقت له.. لا لها!

ولكن كيف السبيل إلى التعبير عن هذا الهوى الملح، والحب المخامر، ولسانها في عقال إلا من المقطع الأخير، ينطلق في أثر الحديث، أو اللفظة المفردة تردفها بصياح كل صائح، وهتاف كل هاتف؟!

وراحت تقتفي أثره، من غير أن تشعر هي، ودون أن يشعر هو! وتقص خطاه وهي لا تعي ما تفعل، وهو لا يدري كذلك، فكان ديبها كديب القطا، أو كوثب الضفادع.

على أن حركة غير مقصودة أتت بها أيخو جعلته يعتقد أن أحداً من سكان الغابة يتبعه، فصاح قائلاً:

"من؟...".

فرددت المسكينة نداءه: "من؟...".

فقال: "هل من أحد هنا...؟".

وأرسل هذا السؤال في رعب خفيف، فرددت أيخو اللفظة الأخيرة: "هنا...".

فبغت نركيسوس، وقال، وقد خال المتكلم امرأة:

"لهلي يا فتاة.. لهلي..".

فرددت أيخو اللفظة الأخيرة.. "لهلي..".

فزادت حيرته، وتضاعف خباله.. وقال:

"لم لا تأتين إلي، وليس هنا أحد يرى؟ ولا إنسان يشهد؟".

فثار كامن الهوى في نفس أيخو، ونطقت اللفظة الأخيرة: "يشهد؟" بكل ما تركت لها هيرا في قرارة لسانها من رنين فضي، وجرس جميل...".

وعاد نركيسوس يقول: "يا فتاة! ليت شعري ما يحجزك؟ أين أنت إن كنت هكذا تستحيين؟ تعالي..".

وكأن أيخو أدركت أن الفرصة سانحة للقاء هذا الحبيب الطارئ، فبرزت من مكمنها في غير هيبة ولا وجل، وقصدت إليه تعرض حبها ولظى جواها، ولما لم يكن في مكنتها أن تخاطبه،

لتكشف له عما تضر من هيام به، ومحبة له، بدا لها أن تشب إلى حيث هو فتعاقته، وتضم صدره إلى صدرها، ليث أحدهما إلى الآخر.

ولم تكد تفعل حتى جهد نركيسوس في تخليص نفسه منها، ثم انطلق في الغابة لا يلوي على شيء، كالرّم المروع، والظلم المفزوع...!!
وذلك أنه لم يجرب هذه المفاجأة بالحب، ولا وقع مرة في شرك غرام، وقد ربكته أيخو حين غمرته بكل حبها، فشرق به وغص، وقال: الفرار.. الفرار!

وتسلط الهم على قلبها فشفه، والشجن على جسمها الناحل فأضناه، وكانت صدمة هائلة صدعت جوانب نفسها، وزادتها نكالا على نكال، ثم نتابت الأيام وهي ما تزداد إلا سقاماً...

واضحلت... ثم اضمحلت... حتى غدت... لا شيء!!
ولا شيء هذه ليست مبالغة فيما حل بها، إذ الصحيح أنها غدت لا شيء، إلا هذا الصدى يتردد في كل واد، ويذهب أثر كل نداء.
وهي إلى اليوم تأوي إلى الغيران، وتختلف إلى الشطآن وتنحدر مع الريح على جنيات الجبال، تنعي همها، وتندب حظها في النادين!
وشاءت المقادير أن تنتقم لأَيخو المعذبة من هذا الشاب الجميل نركيسوس الذي حطم قلبها الغض، وقضى على نفسها المحزونة.
فبينما كان في طراد عظيم، في يوم قاتظ عرج على نحيلة ناضرة ملتفة الأغصان ليشرب من الغدير الصافي الذي يترقرق من تحتها..
وما كاد ينخي إلى الماء حتى رأى صورته في صفحته الساكنة،

فهره حسنها، وأخذ يرمقها بقلب مشوش ونفس هائمة، وهو لا يعلم أن الحبيب الذي تامه إن هو إلا ظله، وعروس الماء التي تبلت فؤاده إن هي إلا خياله!!

عينان كبيرتان ذواتا أهداب زانهما وطف، وجبين واسع وضاء مشرق، وخدان أسيلان نحدود ربات الأولب، ونحل حلونات فوق بشرة الوجه يزيده رونقا وجمالا، وثغر حبيب كأقوانة تفتتح، ترف حوله بسمة ساحرة من حين إلى حين، وذقن رقيق مستدق يرتفع على عنق يوناني رائع ثم فتنة تغمر ذلك جميعاً!!
خاطبه نركيسوس، ولكن... وا أسفاه! إنه لا يرد تمتمة، ولا يجيب إلا كما تهمهم الريح!

ومد يده.. فمد الخيال يده، واستطير صاحبنا من الفرح، ظاناً أن حبيبه تواق إلى ما يريد!

واقترب بفمه، يريد قبلة، فاقترب الخيال بفمه كذلك ولكن.. يا نخبية الأمل! ما كاد العاشق الولهان يمس الماء بشفتيه حتى ذهب حلمه أباديد، وتكسرت منى نفسه الحيرانة، وفر الخيال في شظايا الماء.. وتحطمت الصورة الرائعة بدداً!! وخيل لنركيسوس أنها تقول وهي تهتز: قبل أن تلتئم: "لا... لا... لا... لا... لا...".

ولبت عبثاً يحاول قبلة، وتكرر الآية كلما مست الماء شفتاه.. فانطلق مغيضاً مخنقاً، وهام في القفار على وجهه، لا يطيب لجفنه المسهد كرى، ولا يحلو بفمه المرير عيش، لجفاء الحبيب، ونفرة آسيه العجيب!!

نركيسوس، الذي بلبل قلوب العذارى، وسفك دموع الحسان،
وضرج كبرياء الغيد بالدم، وأذل البسمات التي طالما حملتها إليه
أجنحة الحب من ثغور الفاتنات.. نركيسوس، الذي ألقى بحب أيخو
في التراب، تسببه صورته، ويتصباه خياله، ويأسره ظله، فيا لنقمة
كيويد، ويا لعدالة فينوس!!

لقد طفق يختلف إلى الغدير لدى كل شروق شمس، يناجي حبيبه
المعبود وأمله المنشود، فلا ينثني إلا إذا توارت الشمس بالحجاب!
وما انفك يشكو ويتوجع ويستعطف، وما انفك الخيال يتصام
ويتباكى. وإذا تحدث تتم!!
ثم..

ثم ذوى عوده، وذبلت نصرته، وتهدم جسمه، وتحطم قلبه،
وتأرحت روحه في حدقتيه.. دنت ساعته.
ووقفت أيخو في فن وأرف، في أيكة قريبة من الغدير، تشهد الفصل
الأخير، من مأساة حياتهما..

وسمعه يقول مخاطباً ظله: "أيها الحبيب! أجل! لقد حق لك أن تنتصر
على كبريائي، وتسحق مرقي وتهذ أعضائي.. هأنذا أموت أيها
الحبيب.. بقربك.. يا عروس الماء النافر.. أموت.. وأحبك..
فالوداع.. الودا...ع".

وبكت أيخو... ورددت هذا الصدى الحبيب: "الودا...ع!".
وأقبلت عرائس الماء تنوح بدورها على نركيسوس، ثم ذهبت في
أرجاء الغابة تجمع الحطب لإحراق الجثة،

كما جرت بذلك العادة في ذاك الزمن.. ولكن، يا للعجب! لقد
عادت فما وجدت غير زهرة جميلة من أزهار النرجس! انحنى على
صفحة الغدير تنظر فيه إلى ظلها... وتذرف دمعها.. قطرة، قطرة..

* * *

بين أبوللو وكيوبيد

عصى الناس - في قديم الزمان - سيد أرباب الأولب ، السند الأعظم المهيمن على ملكوت السموات والأرض زيوس، ومع ما اشتهر به من وسع الحلم، وطول الأناة، وجم المغفرة، فإنه لم يشأ أن يمد للعالم في حبال الغواية لدرجة إنكارهم لذاته، وإلحادهم فيه، وكفرهم به، فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم، وليقطعن دابرهم أجمعين! فأطلق الرياح الجنوبية الهوج، وأرسل السحب تندجى كقطع من الليل البهيم، وأذن للأرض فتشقت ينابيع وعيونها، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم، وتفجرت من تحت أرجلهم، وطفى الموج يجرف الدور ويعني الآثار، وفي أيام قلائل، كان الطوفان يغمر وجه الأرض، ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم.

وهلك الناس جميعاً، وشفى زيوس موجدته عليهم، ثم بدا له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها، فأطلق الرياح^(١) من عقلاها، فهبت في شدة وعنف، وأخذت ترشف ماء الطوفان، تعاونها في ذلك مركب أبوللو.. يوح^(٢) العظيمة.

(١) لقد طغت أسماء الميثولوجية الرومانية على الميثولوجية اليونانية طغياناً كبيراً مع أن الثانية أصل للأولى، وأبوللو هو الاسم الروماني للإله فوبوس اليوناني، وكذلك كيوبيد هو أيروس بن أفروديت (فينوس) وقد آثرنا الأسماء الرومانية لشهرتها فحسب.

(٢) الشمس.

وبدأت الأرض تجف، وشرع بساطها السندسي الجميل يبدو قليلا قليلا، حتى ازدهرت المروج، وأينعت الخمائل، وسمق الدوح، واهتزت الربي، وأخذت السهول زخرفها، وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة، فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض، فتهلك الخلق الجديد، وكان أشد هذه الحيوانات وطأة. وأكثرها فتكا، ذلك التنين البحري الهائل، الذي يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها، حتى ضج الناس واستغاثوا، وجأروا بالدعاء إلى زيوس الرحيم، فرق لهم وحذب عليهم، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا، أبوللو، فأنقذهم من التنين (بيثون) بسهامه التي سددها إليه حتى أرداه.

وانثنى ثملا بخمرة النصر، مزهواً بما رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات، وبينما هو راق إلى سماء الألب، إذا أخوه كيبيد بن أفروديت يصيد الطباء في غيضة لفاء، ويلهو باجتناء الثمر، ويمرح بين أفواف الزهر، كالمستهتر الخالي. فأراد أبوللو أن يناوشه، فقال له "كيبيد يا ابن أفروديت! أنت هنا تصيد الطباء الضعيفة، وتريش سهامك إلى أطلائها المفزوعة، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التي تفتك بعباد أيننا زيوس، ومع ذاك لا تفتأ تتفاخر الآلهة بسهامك التي لا تطيش، ورمياتك التي لا تخيب. كيبيد الصغير! يجمل بك أن تنزل لي عن قوسك المرنان، وسهامك الذهبية،

أو أن تحد من كبريائك، وتأتي إلى كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية، كيف ينبغي أن تسدد السهام!".

وغيظ كيوييد من هذا التقرير الذي لا مسوغ له، وذاك التفاخر الأجوف الذي لا فائدة منه، ولا طائل وراءه فعبس وبسر، وتجهم وزجر، وقال في عبارة ملتبهية، وأسلوب مشبوب: أبوللو يا ابن لاتونا! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت هيرا في سالف الأيام أمك وأذلتها، فتنفي حياء، وثنواري نجلا، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب، أبوللو! أنت نتيه بسهامك وتدل، وتدعي أنك تقتنص بها الأفعوانات البحرية، على حين أصيد الطباء، وأقتل الأطلاء، ألا فلتعلم أنني أمهر منك ألف مرة في تسديد السهام، وأقوى في توتير القوس، وإن كنت بعد حدثا صغيرا. على أنني أذكرك، أنت يا أبوللو با ابن لاتونا سهامي التي سأجرها فيك قريباً!!".

فضحك أبوللو ملء شذقيه، وقال: يَحْ يَحْ يا كيوييد ابن أفروديت! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو! ولكن يبدو لي أنك متعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد في هذه الفيضة، وأحسبك قد أعياك ظبي نافر فأخرجك عن طورك، خصوصاً، وأفروديت تنتظر لتعد الشواء!.. أنت ستجرب سهامك في.. في أنا..!".

فقال كيوييد: "فيك أنت.. فيك أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا.. وسترى..".

وامتلات أسارير أبوللو بضحكة ساخرة، وفضل مستهزئاً..

وشرع كيوييد يدبر انتقامه، ويرسم له الخطط التي ينال بها من أبوللو، فلا يستطيع أن يفلت، وكان يحمل كاتنين، يحتفظ في الأولى بسهامه الذهبية التي يصمي بها القلوب فتُملاً حباً وصبابة، وفي الأخرى بسهامه الرصاصية التي يصيب بها القلوب فيفعمها بغضاً وكرهية.. ونثر كاتنيه وانتقى من كل واحدة سهماً حاد الشبابة مزدوج السنان، ثم انطلق في الأدغال يفكر ويدبر، ويم شطر غدير قريب يطفئ منه غلته، فرأى القينة الحسنة (دنيا) متجردة من ثيابها، جالسة كالقطاة على عدوة الجدول، تداعب الماء بقدميها الحبيبتين، وتظللهما صفصافة ممتدة الفئء وارفة، والأطيار من فوقها تغني لها. فقال كيوييد، متحدثاً إلى نفسه: "فرصة نادرة لن أفلتها.. هذه (دنيا) الجميلة تستنقع من القيط، وهي وسيمة قسيمة، بارعة الحسن، تامة المفاتن، لا بد أن أسدد سهماً رصاصياً إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء.. ويحسن ألا أشعرها بوجودي حتى أصمي قلبها.. فلاأختبئ هنا..".

وتوارى خلف دوحة كبيرة، وثبت السهم الرصاصي في مكانه من القوس، ثم أطلقه في قلب دنيا، وما كاد يفعل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر، وأسلمت ساقها للريح تعدو بين الأيك، صارخة من ذلك الثلج الذي ذهب بحرارة فؤادها.. وقصد كيوييد إلى حيث أبوللو، وكان قريباً من دنيا، فسدد إلى قلبه السهم الذهبي فأصماه. وتلفت أبوللو ينظر ماذا أصابه،

وحدث أن كانت دفنيا منطلقة تعدو إذ ذاك، فلبحها، وسرعان ما جن بها جنوناً. لقد ملأه سهم كيوييد حباً، كما ملأ سهمه الرصاصي دفنيا بغضاً..

لقد كانت دفنيا أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كيوييد حباً، فهمام بها، وشعر نحوها بهوىٍ مِمضٍ، ويرح كأنه برح آلاف من السنين، وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفنيا عليه بعد أن أنعمها سهم كيوييد كراهية، فأبغضته، وشعرت بسم تنفته عيناه في قلبها حينما رآته.

أفلح كيوييد إذن في الفتك بأبوللو، حين أوقعه في أحبولة الهوى، وأرداه في شرك الغرام، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة، دفنيا! أفلح كيوييد، وتبع أبوللو يرى إليه يتذلل ويتضرع... ويبكي كما يبكي الآدميون... وهو سيد الشمس، ورب الموسيقى، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوييد وافتخر!

انتصر كيوييد إله الحب، صاحب القوس الذهبية، كيوييد الطفل، ذو الجناحين، على أبوللو سيد الشمس، صاحب القوس والوتر العرد! إن الحرب لم تبدأ - حين بدأت - بين أبوللو بن لاتوزا، وكيوييد بن أفروديت، بل هي قد بدأت بين البغضاء والحب، والقلبي.. والهوى!

انطلق أبوللو في أثر دفنيا المذعورة يبكي ويتذلل، ويحاول اللحاق بها.. ولكن هيهات! لقد كانت تمنع في الحرب، كلما جد هو في الطلب، ولقد كانت تنظر إليه كأنه قاتل أبيها.. أو خائق أمها..

وصاح أبولو ضارعاً: "دفنيا أيتها العزيزة، قفي أرجوك! تمهلي أتوسل إليك، الشوك يجرح قدميك المعبودتين يا دفنيا! أوه رويدك يا حبيبة، لا تنطلقي هكذا فقد يؤذيكَ اندفاعك، فيم أنت مذعورة هكذا؟! فانا أبوللو... قفي!..".

ولكن دفنيا لا تجيب إلا بنظرة القنص، ولفتة الواجف المراهق، وتجدد في الحرب. فيقول أبوللو: "قفي يادفنيا! قفي ولك نصف ملكي: بل لك الشمس كلها إذا وقفت، أنا رب الموسيقى سأغني وأصيح لك! سأطربك بقيثارتني الذهبية بعد أن أغسل قدميك بدموعي في كل ليلة (!): سأطير بك في أرجاء السموات! ستكون لك القصور في جنة الأولمب! سأمنحك الخلود يا دفنيا! أحبك! أستحلفك بزيوس إلا ما وقفت! مالك هيمانة على وجهك هكذا؟ هل أخيفك؟ هل أزعجك إلى هذا الحد؟... ويلاه!".

ولا تبالي دفنيا، بل تعدو وتعدو... ويضيق أبوللو بغصته ذرعاً، فيلجأ إلى جبروت الآلهة، ويبيدي سلطان السماء! ويصيح صيحة هائلة، فيكون سد منيع في طريق دفنيا!..

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الإعياء: "فيم تهربين مني يادفنيا! ألم تعبديني مرة وتقدمي الضحايا باسمي إلى كهنة الهيكل؟ هاأنذا أبوللو المعبود، أرجوك وأتوسل إليك! أنا الذي أعبد يا دفنيا! ماذا تريدن بعد هذا؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل! لقد فضلتك على كليمين.

زوجتي المعبودة، وأجمل عرائس البحر، وأم طفلي المحبوب فيتون! فيتون أسرع الآلهة بعد أخي هرمز، سآمره يكون خادماً لك! إنه يقتني أغلى المركبات، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها، ستركبين معه فتطوفين العالم في ساعتين، وترين ما بين الشرق والغرب في لمحتين، لو رضيت! دفنيا! أرجوك يا دفنيا! إنني أبداً ما بكيت بمثل ما أبكي لك، وأذرف الدمع بين يديك! حنانيك يا دفنيا فقد سحقت قلبي بكبريائك، وأذلت نفسي بخيلائك!".

وكان فعل السهم الرصاصي في قلب دفنيا قد خف، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع، وكانت عيناها ترتان بعبرات حبيسة. ولكن كيوييد، المختبئ في عساليج الكروم القريبة كان يرى ويسمع، فلها شاهد من ضعف دفنيا وقرب تسليمها، تناول قوسه، وانتقى سهماً مسنوناً من مكانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها، فصرخت المسكينة صرخة مدوية، وهبت في وجه أبوللو تقول: "إليك عني أيها المسخ! تنح! أبغضك! أكرهك! اغرب عني، أنت أنجس من التيتان^(١) وألأم من شارون^(٢)، اذهب! لا أطيعك، انظر إلى هذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك، والدخان يصاعد من منخريك! كرية.. شأنه أنت أيها الوحش..".

(١) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتله ابنه زجريوس وأبغض الأبالسة إلى الآلهة.

(٢) شارون هو حارس الجحيم.

وكذلك كان فعل السهم الذهبي قد شارف أن يبطل في قلب أبولو، وكاد الإله العظيم يخلص من هذا السحر العجيب، فيسحق دفنيا، لولا أن تنبه كيوييد، فأصماه بسهم ذهبي آخر، فجف جنونه، وتجدد حبه، وتألّب به هواه.. فصرخ صرخة راجفة، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيا، فانطلقت تعدو.. وتعدو.. وانطلق هو في أثرها يتوسل.. ويذرف أغلى العبرات!..

لقد كانت دفنيا تطوي الطريق كأنها فكرة شاردة في رأس شاعر، ولقد كان أبولو يقتص آثارها كأنه الكوكب السيار منجذباً إلى نجم كبير! وكان كلما سرق للمحة من ساقيا الجميلتين التهب قلبه بحبها، واشتعلت نفسه بالرغبة الملحة فيها، وانجذبت روحه إليها.. يالكيوييد! ويا لسهامه.. الذهبية.. والرصاصية، على حد سواء!

وتعدو دفنيا حتى تكون عند حفا في النهر العظيم الذي أقام زيوس والدها الكبير إلهها عليه، فتصرخ قائلة: أنقذني يا أبي! خلصني من هذا الوحش الذي يدعي أنه أبولو الكريم! إنه يعدو من ورائي.. خلصني منه.. إني أبغضه.. يا أبي.. يا أبي..".

وينشطر الماء، ويخرج أبوها، إله النهر، فيرى أبولو مقبلاً، فيعرفه، ولكنه يرق لابنته ويقسم ليخلصها من سيد الشمس، فيغرس قدمها في الشاطئ، ويحتفن من الماء بيديه، وينثرها به، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ويقف أبولو مشدوها، موزع اللب، ينظر ويرى! لقد تحولت دفنيا، في لمحات، إلى شجرة باسقة من أشجار الغار، وأخذت الخضرة تنبع في أغصانها، بين حيرة أبولو وشدة تعجبه!

ووقف الإله العظيم يبكي، ويا ويح للعاشق المخبول؟ ثم تقدم فبارك الشجرة، وسقاها من دمه، الذي كان من خلائقه الكبير! وانصرف محطم النفس، معمود القلب، كاسف البال.. ولقيه كيوبيد، فسأله الخبيث: "أين سهامك التي أردت بها الأفعوانات يا أبوللو بن لاتونا؟" فقال: "كيوبيد! اشفني مما ألمّ بي!" فقال كيوبيد: "بهذا السهم الرصاصي أشفيك!".

وتلقى أبوللو السهم في قلبه عن طوعية فبرئ مما به، ولم يعاد كيوبيد بن أفروdit بعدها!

* * *

يو

كان لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواحق الألب ابنة بارعة الجمال فتاة، حلوة كأنها قبة على فم حبيب، رقيقة كأنها زنبقة على غصن وطيب.

وكانت تخطر كما تخطر نسمة معطرة أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً، ولتشيع في الحب سعادة، ولترف في قيظ الحياة فتروح على المكودين المحزونين.

وكانت هذه الفتاة (يو)، مفتتنة بجمال الطبيعة، مشفوفة بسحرها الأخاذ، تود لو تستطيع فتعيش ملء السهل والجبل، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء، ويمتزج بالظلال والأفياء.

ولم تكن عاشقة، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأة من الليل، يهبج حب الطبيعة في نفسها، فتبكي، وتبكي، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خير الغدران المترققة التي تتسرب في الأدغال. وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء، وصاحباتها من بنات الغاب، فكان إذا تفقدنها، توزعن في مهاوي الجبل، وتفرقن في منبسط السطح، وتنادين بها ههنا وههنا، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قرها المعبود، تناجي البحر المصطنع، وتكلم النجم المضطرب.

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي)، وما كاد يوغل في إحدى جنات الجبل حتى لقي يو، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع.. وكانت السماء لا تزال موشاة بسحاب خفيفة من بقايا الشتاء، وآراد^(١) ذكاء تنتشر خلالها فتفضض أذيالها، وتذهب أوساطها، وتكسب الأفق رونقا زاهياً خلافاً.

وسُحر زيوس، وهو كبير الآلهة، بجمال العروس التي هي من خلقه، وابنة أحد أتباعه، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها، وشعر كأنه ظمي إلى هذا الجمال الفنان المشرق، الذي كشف في عينه جمال زوجاته جميعاً، وفيهن هيرا وديون ولاتونا^(٢).

ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وسمر مكانه، وهو سيد الآلهة، يعبد عبدته الصغيرة التي أبدعتها يده.. وهو لا يدري! وعول على اغتنام الفرصة، وأقسم ليملأ وطابه استمتاعاً لا يضره ألا يكون بريئاً، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة.. "أنا سيد أرباب الأولمب، وكل ما بين لابتيك أيتها الأرض فهو لي، وقد اشتيت هذه الجميلة الخبيثة فن الذي يجرو أن يحجزها عني أو يمنعها مني!؟".

(١) أشعة الشمس.

(٢) هيرا أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبولو وديانا (فوبوس وأوتميس) ولزيوس أزواج أخرى.

ثم بدا له ألا يزعمها بالظهور لها في سيماء الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها، لأنها ستكون منه تلقاء إله، فتحول في لحظة إلى فتى يافع ينهل الشباب في برديه، ويتفرق الصبي في أعطافه، وتشع عيناه صبوة وفتوناً، وتقدم إليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة، فحيت بأحسن منها، ولقيته أرضى لقاء..

وجلس يحدثها وتحديثه، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر، ويزخرف صوته بالموسيقى، ويعسل ابتساماته بالمحبة، ويطلق في نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى، وكان ما ينفك يقترب منها ويقترب، حتى لامس ذراعه ذراعها، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحاريتين، وطفق يضغط قليلاً قليلاً..

وصمتا هنيهة.. ثم فرغ طور اللسان، وبدأت نوبة العين وأخذها في رشقات وقبل..

وعاد أدراجه إلى الأولب، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التي سعد فيها لحظة بيو، وظل منذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التي تبتد بها غلته، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها فينوس به، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب..

وكان يتحرق إلى لقاءها، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضي، فإذا سعدت منه بزوره، اندغمت عبادتها للطبيعة في عبادتها له، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها!

وأحست هيرا^(١) ببعض ما يشغله، ولحظت أنه صادفُ عنها، فأيقنت أن لا بد من أمر، وأن في الأمر أنثى، وأن في الأنثى صباة وغراماً، فبثت العيون ورصدت الرقباء، حتى وقفت من شأنه على كل شيء!

ولشد ما دارت الدنيا بهيرا.. لقد ودّت لو تقلب جبلاً على رأس يو، وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، لكيلا يكون لبعلهما على خيائه حجة، ولكي لا يكون له من بعدها برهان.

وذرّ قرن الشمس في صبيحة ضاحكة، فذهب زيوس يشفي ما في قلبه من برح عند يو، وكانت هيرا قد أوهمته أنها ستقضي سحابة يومها هذا عند واحدة بعينها من صديقاتها، وزاد ذلك في ابتهاج الإله، وضاعف انشراحه، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر عند يو.

وإنه لفي لهو النشوة وإبان السكر، وعنفوان المرح، إذ به يلح هيرا مقبلة، وكانت لا تزال في أول الأفق، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لتفجأه مع يو، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ في كتمانها، فتناول أذن صاحبه فنفت فيها نفثة سحرتها في أقل من لحظة بقرة بيضاء لامعة، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها..

ووصلت هيرا، ولم تنطل عليها حيلة الإله، وما شكّت قط في أن البقرة الواقعة تبحث في أنفها في الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلاء، إن هي إلا يو..! عدوتها اللدود!

(١) هيرا: ربة الأولمب وزوجة زيوس الأولى.

فبسمت لزوجها بسمه كلها دلّ وفتون، وسألته - وهو يحاول منها قبلة - أن يمنحها هذه البقرة الخصبة، التي لم أرق حياتي أرشق منها ولا أجمل.. لقد أحببتها، وهي من غير ريب حين تكبر ستعطينا أجود اللبن وأسلمه، وسيكون لبنها خير غذاء لولدينا الحبيبين إيرس وهيفيستوس، ولطفلتنا الجميلة هيب.^١

وارتبك زيوس، ولم ير بداً من إجابة زوجته إلى ما تريد. ومضت هيرا بالبقرة، فرصدت لها أحد أتباعها الأقوياء: أرجوس الهائل.. ذا المئة عين التي لا تنام، ناطته بها، وامرته ألا يغفل عنها، "والا فالويل يا أرجوس إذا هربت منك، أو احتال أحد عليك فأهلك عنها، إذن يحلّ عليك غضبي، وأسحقك سحقاً".

وظل الحارس الساهر يرمى يو، ويرقب كل حركة من حركاتها، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبها، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذي ردها بعد جمالها إلى هذا الخلق الشائه، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم، لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة، ولكن كيف؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السهد وأعياه السهر، ينام بخسين عيناً، ويقدح الشرر بخسين أخرى! فإذا استيقظت هذه نامت تلك، وهكذا دواليك حتى تشرق الشمس، فتصحو المئة كلها، وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلها مررن بها، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن، ولكن.. هيات!

١ إيرس هو مارس الروماني إله الحرب، وهيفستوس هو فولكان إله النار، وهيب هي ربة الشباب وندمانه الشراب، وحاملة الكؤوس فوق الأولمب.

لقد كانت مو.. مو.. تنطلق من فها الكبير مائة أشداقها، فتزجج صواحبا أيما انزعاج.

ومضت أيام وأيام..

ثم لقيت أباه مرة، فنظرت إليه وهو ينكرها، ونظرت ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها، فذرفت أحرّ الدموع وأدمى العبرات وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته، فلم يأبه لها!

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد، فلما قرأ ما رقشته في أديم الرمل، أجهد المسكين وسكب دموع الحنان، ثم عانقها عناقاً طويلاً! ولكنه أسقط في يديه، إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع في سحر الإله الأكبر؟!

ولما شهد أرجس ما كان من بكاء البقرة ثم بكاء رب النهر وعناقها إياها، تأثر تأثراً بادياً. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً. ثم ذكر وعيد هيرا، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق، وثمة، تخير يفاعاً عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شيء، فلا يخشى على بقرته رهقاً، ولا تستطيع هي مهرباً.

وذكر زيوس فتاته المسكينة التي كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها، وذكر تلك الأويقات الحلوة التي يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة التي لم يتيسر له مثلها في مملكة الأولب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعم، فثارت في قلبه عوامل الرحمة،

وتحركت في صميمه تلك الشفقة الإلهية التي اتصف بها في قديم الآباد..

وفكر وفكر.. ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا، البطل الطيار المشهور، هرمز، وأمره بالتوجه إلى حيث أرجس فيحتال عليه ويقتله..

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التي جلس فوقها أرجس فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة، وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل، وكان البدر يتنقل في دارات السماء، والرياح تهب سحسجاً والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح تطرب وتشجي، وكأن سنة من النوم خفيفة رقصت في خمسين من عيون أرجس فأطبقت قليلا، ولكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا بريقها، وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندى من الإعياء، فلما شهدت هرمز لم تحفل به.

ولكن ما هذه الموسيقى الحنون؟!

ومن العازف في هدأة الليل؟!

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب؟

آه.. لقد تحول هرمز الصناع إلى شاب ذي قوة وذي فتوة وذي جمال، وبدا في شكل راع من رعاة الضأن، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس،

ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذي اتخذه من قصب البرية
الفسيحة التي أقبل منها، وانبطحت في السفح شاؤه ونعمه^(١) تغط
في شبه نوم عميق..

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون أرجس، ودب النشاط في
هيكله الضخم لما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن، فانتفض
انتفاضة كان بها عند هرمز - الراعي الفتى - فسلم عليه وصاحه.
وجلس بين يديه كالغز يسمع ويضطرب وينتشي، ثم أخذ معه في
حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة، ثم استطرد فسأله
عن نايه، مم صنعه، أو من ذا الذي وهبه؟...

فقال هرمز: "في إحدى الغابات ذات الأيكة البالغ عنان السماء،
والدور المنتشر في الأرجاء، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء
الهرجة، ذات السيقان الناعمة، والجسم الأبيض الخصب الجميل.
وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها، وتؤثر منها الجري والوثب والقفز،
والتعلق بأطراف الشجر، ثم السباحة. وكانت تجري فتسبق الريح،
وتعدو فيتعثر الظليم^(٢) في آثارها، ولا تدرك الصافنات^(٣) غبارها.
وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها، فكانت تأذن لهم فيجرون
قبلها مرحلة، ثم تتطلق فتلحق بهم، وتسبقهم بمراحل..!

(١) الشاء جمع شاه، والنعم يطلق على الإبل.

(٢) ذكر النعام.

(٣) الخيل.

وثئاءب هرمز الخبيث وقال: "ومن طريف ما حدث لها، أن بان العظيم، رب الرعاة وإله الهروج وسيد الغاب، ومعبود الناس في أركاديا، لمحها يوماً تعدو كأنها زوبعة، فتبعها، ولكنها شأته^(١) وأجهدته! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق في الجري، وحاول أن يلحق بها، فضاعف سرعته وأطال خطواته.. ولكن هيئات!... والتفتت سيرينكس فرأته يطوي أديم الأرض من خلفها. ففزعت أيما فزع وهالها منظره الشائه الغريب، فسيقانه العنزية الأربع، وأذناه البيميتان الشاخستان، وجسمه المفتول ذو العضل، ووجهه الواسع العريض.. كل ذلك بعث في قلبها الذعر، وهاج في نفسها الرعب، حتى كادت تذهب شعاعاً".

وثئاءب هرمز ثانية وثالثة، ثم قال: "واعترضها نهر عظيم فصرخت عرائس الماء تستغيث بهن، وتطلب إليهن النجدة، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبها في اليم، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن تنو قصبات رقيقة، ذوات أرياش صفيقة، في الموقع من الماء الذي غيبت فيه سيرينكس!

ووقف بان مشدوه اللب، ذاهل الفك، يحلق في النهر الذي طوى منية القلب، وهوية النفس، ثم اثنى فزغ القصبات النامية، وراح يصنع منها نايًا حلو النغم رقيق اللحن، حنون الجرس.

(١) شأته: سبقته.

ولقيته مرة في روضة مونقة، منضورة منسقة، وكان بان يجلس على رابية بها معشوشبة، عازفاً على يراعه، فطربت لموسيقاه طرباً شديداً، ودلفت إليه، فرجوته أن يهب الناي لي، فتبسم قائلاً: "إليك يا بني أكرم القني^(١) وأعز الذكريات..".

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه، حاول أن يخفيها عني.. وكان هرمز وهو يلقي هذه الأقصوصة التي اخترعها اختراعاً، يحاول أن يطمها مطاً، ويزيد في ثياها حواشي مملّة، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها، وكان يتشاءب ويتشاءب، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد، حتى ثشاءب أرجس هو الآخر، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها. وابتهج هرمز الخبيث لذلك، وجعل يروح على وجه أرجس، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداء الضفادع.

وهنا..

امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل، فانفصل الرأس عن البدن، وغادرهما معفرين بالتراب، وعاد أدراجه إلى الأولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة...

(١) جمع قنية، ما يقتنيه الإنسان.

وحزنت هيرا على خادماها أمض الحزن وأشدّه، وذهبت بنفسها
خملت رأسه إلى مخدعها في قصر الأولب الكبير، وطفقت تشمل
العيون عينا عينا وتركبها في ريش طاووسها^(١) الجميل لتظل إلى الأبد
رمز حبها له ووفائها لذكره..

ثم آلت لتسلطن على يو - البقرة المسكينة - ذبابة صفراء من ذباب
الأبالسة تقرصها وتجعل من حياتها نكالا، حتى ضجت المخلوقة التسعة
ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس.. كبير الآلهة
ورب الأرباب: "يا إلهي العظيم الرحيم! يا أبا الإلهة، وابن الآلهة!
أتوسل إليك بأبنائك الكرام الرحماء! أدركني يا أبا زجريوس! اغفر لي
زلتي حين أحبيت هذا الفتى الجميل وأحبني! إن كنت قد صنعت بي
ما صنعت انتقاماً، فحسبك ما حل بي من عذاب الهون، أن أزل يا
إلهي إذا غفرت لي ورفعت عني وزر غضبك! اقبل يا رب الأولب
صلاتي واجعلها شفيعي إليك! أنا.. يو المسكينة..

كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر، فكنت أنزوي عن العالم،
وألبث وحدي بين يدي قري الحبيب، أصلي لك ولابنتك المعبودة،
في هدأة الليل، وسكون السحر، فما هي إلا أن قطع عليّ هذا الفتى
صلاتي وهو من خلقتك، وجماله الفتان آية من آياتك،

(١) كان الإغريق يرمزون لهيرا بالطاووس والكوكو، وكانوا يحيونها حباً جمّاً
لأنها آثرتهم بلطفها وضحت في سبيلهم بحب زوجها وثقته فيها. واسمها
اليوناني هو جونو.

فإذا سحرني وأذهلني عن عبادتي، فأني أستأهل كل هذا الذي أنا فيه! يا إلهي اغفر لي، فقد وسع غفرانك كل شيء".
ويستجيب الإله لهذه الصلاة الحارة الخالصة، فينطلق إلى هيرا، حيث يجدها مكبة على رأس أرجس تشمل عيونه، فيواسيها ويسليها، ثم يرجوها أن ترحم يو، وأن تخفف عنها العذاب، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى. فترق هيرا، وتنفجر الرحمة لأول عهدتها بها في قلبها، وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة، وتأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى، الصورة القديمة المحبوبة! ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض، حتى تطمئن عليه وعلى قلبه المتصابي من حبها.

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى ضفاف النيل! وتخرج من الصحراء على المصريين، فتبرهم بجملها الرائع، وحسنها الوضاء، ومفاتها البارعة، ثم يجتمعون على عبادتها، ويقيمونها مليكة عليهم، ويسمونها: "إيزيس".

وتمر الأيام...

فيتزوجها كبير آلهة مصر، أوزوريس، وتلد له ابنة حوريس!

* * *

برسيوس وأندروميذا والجرجونات الثلاث

في إحدى مدن الشاطئ الإغريقي، كانت تعيش أميرة جميلة تدعى "داناي"، هي وابنها الجميل برسيوس، الذي كتب عليه أن يُحرم صدر والده الحنون، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره، فشط مزاره، ولم يعرف أحد أين انتهى قراره.

ولقد كان هذا الوالد - فيما يظهر - على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً، ولخوفهم من أن ينشأ طفله برسيوس على وتيرته، تأمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به إلى اليم، والأمواج المتلاطمة كفيلة، ثمة، بإجراء حكمها فيهما.

يا للوحوش! لقد أنفذ الأشقياء تديبرهم، وتناوحت الأمواج حول الزورق تقذف به ها هنا وها هنا، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها، فتغني لطفلها الراقد في حضنها، وتدللّه، كي ينام، وكي يكون بنجوة من هذا البحر المصطخب.

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين، وبعد أن كانت كل موجة تشق الزورق قبرا في أعماق الماء، شاءت العناية إن تسخر موجة هائلة تدفع به، في هوادة ورفق إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط، وهناك.. نزلت الأم الموهونة متهاكة على نفسها، حاملة وديعتها البرية، شاكية إلى الآلهة صنع الإنسان بالإنسان.

ولمحت في الأفق قرية متطامنة، فيممت شطرها، وما فتئت تتعثر في خطاها حتى بلغتها. والشمس تتوارى بالحجاب. ورحب الناس بالضيفين البائسين، لأن دينهم كان يأمر بإيواء أبناء السبيل، وإكرام الغرباء واللاجئين، فعاشا ناعمين، وشب برسيوس سليماً من الآفات، مكتنز العضلات، بادي الفتوة، موفور القوة، عذب اللسان، مشروب الجنان، وأحبه الناس وأعجبوا به، والتف الجميع حوله يصغون إلى أحاديثه العذاب، وقصصه الرطاب.. وتسامع الكل به، وترامت إلى ملك الجزيرة أخباره، فشغله انصراف الناس إليه، وافتتانهم به، وكان (قاتله الله)، غيوراً رعيدياً، فألى أن يكيد له ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه ليطمئن على نفسه.. وعرشه!

وكان في إحدى الجزائر النائية ثلاثة من الجرجون الضارية، وهي من أفزع ما جاء في أساطير اليونان، وكل من هذه الجرجون تتين هائل له رأس امرأة، ويدان من النحاس الأصفر، ذواتا أظافر حادة، تنفذ في أقسى المعادن وأصلبها، وليس لها شعر في رؤوسها كما للنساء، بل لها، عوضاً عن الشعر، حيات وأفاع ذوات رؤوس تنفث السم الزعاف. وقد أوتيت قوة خارقة، حتى لتستطيع إحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار، وليست هذه الجرجون مخيفة بسمها، وفوة بنيتها فحسب، بل الأدهى والأمر، هو هذا السر الدفين في عيونها، إذ كل من جرؤ على النظر إلى هذه العيون، يتحول في الحال إلى صنم من الحجارة، لا يتحرك، ولا يعي!

وكانت الجوجونة (مديوسا) أفضع أنواع الجرجون جميعاً، ولذا كانت أختها الأخریان تحتزمانها، وتسهران على راحتها.

ولكن ماذا اعتزم الملك الجبار من كل ذلك؟ لقد دبر أن يغرى برسيوس بالذهاب إلى جزيرة الجرجون لقتل (مديوسا) والإياب برأسها كأحسن هدية تقدم إلى ملك. وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب إلى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا المأفونون، فإن نظرة واحدة من عين مديوسا كفيلة بوضع حد لكل شيء...

وأرسل الملك إلى برسيوس فئيل بين يديه، وطفق يكيل له المدح جزافاً، ويبالغ في الثناء على ما ترامى إليه من أخباره وضروب شجاعته التي يتحدث بها الجميع.

وامتلاً برسيوس الفتى زهواً، وشاعت في أعطافه الكبرياء، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه، وجميل إطرائه، فإ إن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير، ونفسه الصغيرة، حتى أخبره بما انتدبه له، فقبل الفتى المسكين وهو لا يدري ما هي هذه الجرجون ولا أين جزيرة الجرجون؟

وانطلق من فوره، وأرسل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار في مهرجان فخم، وموكب أنيق. ثم غربت الشمس فغلقت الأبواب ثم جلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر في هذه الجرجون، وينظر إلى القمر يشرق من الإتباج، فيفضض الموج، ويحور به البحر رجراً من لجين! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه،

ولم يتزود منها قبلة أو دعاء لهذا السفر الطويل، فيبكي.. ويبكي بكاء مُرّاً!!

وتصدّع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود إليها مع أنه عزاءها الوحيد في هذه الحياة!

وانتصف الليل..

وفيما هو غارق في لجة الفكر، شَرِقَ بواكف الدمع، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة: "برسيوس أيها العزيز! فيم بكائك؟ ولم تذرف كل هذه الدموع؟ لقد هجت الآلهة، وأحزنت أرباب الأولب!". ونظر برسيوس ليرى من صاحب هذا الصوت الرخيم الذي يناديه، فعجب عجباً شديداً! لقد رأى مخلوقاً جميلاً مشرق الجبين، يتفرقق البشر في وجهه، لا يعقل أن يكون بشراً! يلبس فوق هامته قلنسوة ذات أرياش وأجنحة، وفي قدميه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح البازي، وفي يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات!!

على أن برسيوس لم يعلم أن الذي يتحدث إليه، إن هو إلا الإله هرمز^(١) رسول الآلهة بين السموات والأرض، الذي لا يفوقه في سرعته أحد.

وبعد، فلقد قص برسيوس قصته على هرمز، وما فرغ منها، حتى قال الإله له: "بني! إنك مقدم على أمر جلل، وشأن بعيد المدى،

(١) هرمز هو الذي يسميه الرومان كيوري والعرب عطارد، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة.

صعب المنال. ولقد أراد الملك إهلاكك حين اختارك لهذه المهمة؛ لأن أحداً لا يجسر على الذهاب إلى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً، ولكن أصغ إليّ! إنك لا بد فائز إذا عملت بوصاياي، ولم تحد عما أشير عليك به. وسأذهب عنك لحظة، ثم أعود إليك بآلاء من الآلهة، تقرب لك النجح، وتسهل عليك كل شاق من أمرك.. فانتظر، ورقى هرمز ثم غاب في السماء، وبهت برسيوس حين رآه يطوي الأديم الفضي، ويطرق أبواب أورانوس^(١)!

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة، فرثت للفتى المسكين وتحركت في قلوبها الرحمة العلوية، التي طالما تنهمر من السماء، لتغسل آلام الأرض: وتعاهدت أن توازر برسيوس، وتمده بكل ما يسهل عليه أشق أمره. فنزل بلوتو، إله الموتى عن قلنسوته التي تخفي من يلبسها فلا يراه أحد، وتبرعت مينرفا^(٢) بترسها الذي يحمي لابسها من حراب الأعداء، وهو ترس ثمين من الذهب الخالص، يلعب لمعانا شديداً، حتى ليعكس المرئيات في صفحته، كأنه السجنجل.

* * *

(١) السماء.

(٢) اسمها بالاً أثينا في الميثولوجية اليونانية وقد أثرتنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها.

وحمل هرمرز المنحيتين، وعاد بهما إلى حيث يجلس برسيوس فقدمهما إليه، وزوده بجرازه المتلوي القاطع، الذي ليس كمثل سيف ولا حسام. ومنحه نعليه المجنحتين، اللتين تسبقان به الريح، فلبسهما ثم قال له: "تلك يا برسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك. بيد أنه ينبغي قبل كل شيء أن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوب ذوات العين الواحدة، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون؛ لأن أحداً من العالمين لا يدري أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوب، سر إذن على بركة الآلهة في أثري، واحترس لنفسك، والسماء تكفلوك".

وكم عجب برسيوس حين رآه يطير في أثر هرمرز، والبحر من تحتهما يتلاطم، ويعج عجاجه، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة، وحطا في الجزيرة المنشودة بعد أن حوّا فوقه طويلاً. وكان ذلك بالقرب من كهف حالك في منحدر صخرة صعبة المرتقى. وقد لمح فيه برسيوس السيكلوب الثلاث، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل من في الجزيرة.

إنها مخلوقات غريبة حقاً، ليس كمثلها شيء في الآفاق. شاذة في خلقها، عجيبية في تنسيق جسمها، وهن إناث على كل حال يعشن في هذه الجزيرة المعشوشبة، بعيدات عن العالم، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا. وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ أن ليس لهن أعين كما للناس، ولكن..

لهن - وبالبحري لثلاثتهن - عين واحدة: تركبها لوقت معلوم، في حفرة غائرة من جبينها، حتى إذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوبة الأخرى، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية، وهذه للثالثة، وهكذا دواليك، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصغر شيء في أقصى جهات العالم، من دون ما مشقة ولا عناء..

* * *

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية، انتحى ناحية قريبة، واختبأ برسيوس خلف شجرة باسقة، ولشد ما دهش إذ رأى إحدى السيكلوب تقود أختها، وفي جبينها العين العجيبة ترمق بها أصمقاع العالم، وتحدث أختها عما ترى، وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين، كل تريد أن تأخذ نوبتها، وكل تدعي أن الدور دورها. وفيما كانت الأولى تنزع العين، وتوشك أن تعطيها للثانية، انقض برسيوس فتسلمها من السيكلوبة، دون وعي منها!! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم، وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين، كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعي الإنكار، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن، بأن هتف بهن: "أيها الأخوات العزيزات، لا تنازعن على عينكن، فهي في هذه اللحظة معي وبين يدي"، وانقضت السيكلوب هلعات نحو مصدر الصوت، ولكن هيهات أن يقبضن على شخص تحمله نعلا هرمز، فلقد قفز قفزة هائلة، أقصى بها نفسه عنهن، ثم قال:

"أيها الأخوات العزيزات! أنا أعلم أنكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية، وأنا أعدكن بردها إليكن، ولكن بشرط واحد: ذلك أن تخبرني عن المكان الذي تأوي إليه (مديوسا) وأخواتها الجرجون، فإن لم تفعلن فلا عين لكن عندي".

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ وكدن لا يجبن بشيء، لأنهن منبهات عن إذاعة أسرار العالم، ولكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمى المطلق، والظلام المبين يغطش حياتهن، فأخبرنه بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها، ولكي يثق مما أنبأه به نظر في العين التي بين يديه الجزيرة، وأيقن أنهن لم يخنه، ثم إنه تحين الفرصة الملائمة ودفع بالعين في جبهة أقرب السيكلوب منه وغاب في الجو ميمماً شطر هرمز، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة، فتعانقا عناقاً طويلاً، وشكره برسيوس على جزيل مساعدته، ثم اقترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون.

* * *

وكانت رحلة طويلة شاقة، برغم نعلي هرمز.. فكم بحار طوى، وكم وهاد رأى، وكم ربح صرصر كاخ، وكم مشقة احتمل، حتى وصل إلى جزيرة الجرجون! ولم ينسَ ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى دائماً حتى لا تقع عيناه على عيني إحدى الجرجون فيحور ججارة صماء.

وكان يتخذ من درع مينرفا مرآة صافية يرى فيها ما تعجب به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات. ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث متفرقات في سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق.

وفي وسطهن مديوسا العاتية. تغط غطيّاً مروّعاً. فاستخار الآلهة، وامتشق جراز هرمز، وتعوذ ثم تعوذ، ثم انقض كالصاعقة، فأهوى على عنق مديوسا بضربة قاتلة، فانفصل الرأس من سائر الجسد، وهنالك، علا فحيح الأفاعي الباسقة في رأس مديوسا، تدمدم في الكيس الجلدي الذي ألقاها برسيوس فيه، حتى لقد استيقظت أختها، وانطلقتا مرتاعتين في أثر الفتى، تودان لو تمسكان به، فتعتصران عظامه اعتصاراً.. ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما، وتحفظه من شرهما.

وبينما هو يطوي الضحاضح والبحار، وبينما هو منتشٍ بجمرة انتصاره، مفكر في اللحظة التي يلقي فيها الملك برأس مديوسا، ويحظى لديه بثمرة فوزه، بينما هو كذلك، إذ يلح في إحدى الجزائر زحاماً شديداً، وجماهير حاشدة، متكعبة حول صخرة نائمة، مشرفة على البحر، وقد تدلت منها فتاة بارعة الجمال، بادية الحسن، مغلولة العنق، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب. ونظر فرأى تنينا بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء، ويقترّب من الفتاة قليلاً قليلاً، وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التي صرختها الفتاة فرددت الغيران والكهوف ومشارف الجبال أصداها.

ماذا؟...

الفتاة مذعورة أيما ذعر، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً.. والتنين يقترب ويقترب.. ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين وأهوى على عنقه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها في أحشائه، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولاً، وكانت كلها فرعاً، والناس ينظرون مشدوهين، زائغة أبصارهم، لا يصدقون ما يبصرون. ثم انجلت المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء، الذي تحول بدوره خضماً من الدماء. وقفز برسيوس إلى الشاطئ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها، وهدأ من روعها، ثم حملها على حصانه، وسأل الناس فقادوها إلى والدتها المسكينة المعذبة، التي حبست نفسها في حجرة مظلمة، وانتظرت ثمة من ينعي إليها ابنتها.

أما هذه الأم فهي الغادة الإغريقية كاسيوبيا، المشهورة بجمالها، وحسن روائها، والتي كانت أفتن حسان هيلاس في زمانها، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة، وما أسبغت عليها من وسامة، فرعمت، وهي تفاخر أترابها، أنها من عرائس البحار التي لا يدانيها في جمالها الباقي، جمال هذا البشر الفاني. فغضبت عرائس الماء، لهذا الادعاء، وأقسمن ليعذبن أهل الجزيرة التي فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذي شرع يغدو كل يوم إلى شواطئ الجزيرة فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها!..

وذعر القوم. وحاروا في أمر هذا التنين، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرايئتهم للآلهة، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره، وتكفيهم أمره. ولقد أجيبت أدعيتهم، وتقبلت أضحياتهم، وأرهفت الأسماع، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب، وما هي إلا لحظة حتى انطلق صوت خفي من أعماق المذبح، يقول: "قدموا العذراء أندروميذا، ابنة الغانية كاسيوبيا، ضحية حلالة لتنين البحر، جزاء غرورها وكبريائها - ذلك إن أردتم أن يكف التنين عنكم شره، ولا يعاودكم أذاه!".

وانكفأ القوم محزونين مروعين، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها، حباً هو العبادة. وحاروا كيف يتقدمون للكلام بهذا النبأ العظيم؟! وكان لا بد من النفاذ، لإنقاذ الجزيرة وجميع سكانها.. والآن، لقد أنقذ برسيوس أندروميذا الجميلة من التنين، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة، وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية، فتقدم إلى والدتها يطلب يد أندروميذا..

ووافقت الوالدة، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذي أنقذ حياتها مرتين: مرة من هذا الوحش الضاري الذي تركه برسيوس جثة هامدة، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفاني الهرم الذي تقدم إليها يريد لها زوجة له، وكادت أمها أن تقسر على الموافقة لما للشيخ في الجزيرة من صولة وجبروت، لولا المقادير التي نتابعت بعد ذلك.

وأقيم مهرجان كبير، وزينات فاخرة للاحتفال بالعروسين، فُدت الأخونة، وأُعدت الأسمطة، وبدأت الموسيقى الإغريقية تعزف أشجى ألحانها، وأخذ الجميع في قصف حلو وسمري..
وإنهم لفي كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذي تقدم لخطبة أندروميذا من قبل، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين، وإذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلاً: "برسيوس! لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداء صارخاً بانتزاعك أندروميذا من يدي، وإنك إن لم تنزل عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسراً، بعد أن تروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك!.." فخدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال: "من أنت أيها الرجل الذي يجسر على مخاطبتي بهذا الهراء؟ لقد أصبحت أندروميذا زوجتي، وإن كانت من قبل خطيبتك، أنت من غير ريب تحلم.. غير أنني أسالك. أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قربانا للثنين؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم إنقاذها من الأفعوان البحري الذي أذك وأذلهم.." ومد يده إلى الكيس الذي كان به رأس مديوسا، فأخرجه وقال: "ولكن انظر إلى هذا قبل أن تقتلني".
وما كاد الرجل ينظر إلى مديوسا، حتى تصلبت عضلاته، وتحجر جسمه، وظل مكانه كأنه تمثال! ودهش أصحابه لجوده، وظنوه قد سمر حيث هو، فلما لمسوه استطارت ألبابهم ولاذوا من الفرع بالفرار.

وأخفى برسيوس رأس مديوسا، واستمر القوم في سمرهم كأن لم يحدث شيء.. اللهم إلا هذا التمثال المنتصب في أول الردهة، والذي كان يهرف منذ لحظة، فأصبح عبرة الزمان، وضحكة الأيام!
وحان يوم الرحيل، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين، وظلت كاسيوبيا تعانق برسيوس مرة، وأندروميذا مرة أخرى، والدموع فيما بين هذه وتلك، تنهمر على خديها انهماراً.. والناس ينظرون.. ويبكون..

ثم حمل برسيوس عروسه، ومرق في الهواء كالسهم، والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون.

وكانت الرحلة هذه المرة، على شدتها وطولها، من أرواح الرحلات إلى قلب برسيوس. وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين، في ملكوت السماء، لتدرك أي سعادة شعرية، وأي هنيئات سحرية، فازا بها في لازورد القضا.

وبلغ مدينة الملك بعد نأي طويل، وسنين عدة، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه، وناهيك بما كان من عناق، وما تبادلوا من تحيات، وبكت دانا المسكينة، وهي تهنيئ ابنها بأندروميذا، ثم أخذت تقص، ملء أحزانها، وفي فيض أشجانها ما انتابها من سوء، وما لحقها من عسف، لأنها أثبت أن تكون خليلة الملك المختل الجبار، الذي صب عليها جام نغمته، وأذاقها من الهوان ألواناً! فحزن برسيوس حزناً مُمضاً، وهيج حتى خيف عليه، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده!

ودخل إلى البهو الملكي بدون استئذان وهو يضمّر في القلب غصة، وفي النفس لوعة، وفي الكيس رأس مديوسا!!
وقال الملك حين لمح برسيوس: "أهلاً! برسيوس! لقد عدت أخيراً، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود! لعل شجاعتك التي بالغ الناس في إطرائها والثناء عليها قد واثت في حربك مع الجرجون؟!".

فأجاب برسيوس، دون أن يحيي بالتحية الملكية: "أيها الملك! لم تخاطبني هكذا ولا تترث حتى تنظر إن كنت قد عدت إليك برأس مديوسا الرهيب؟".

فقهقه الملك، وملاً التهم شذقيه، وقال: "طبعاً، ستدعي أنك قتلت مديوسا، ولكن رأسها وقع منك في البحر، فالتقمه الحوت؟.. يا للشباب المخدوع!".

وثارث ثائرة برسيوس، ولم يجد إلى صبر من سبيل، فحسر عن رأس مديوسا وقال: (أيها الملك.. انظر!).

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عيني مديوسا، ثم تحول في لحظة إلى تمثال من الحجر ما يأتي بحركة، ولا ينبس ببنت شفة!!
وحدّث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت إليهم أخبار الملك، وما تم له مع برسيوس. لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاقي المستهتر، ولقد كانوا يودون له الهلاك، حتى خلصهم برسيوس منه، فهرعوا إليه، وهتفوا في كل مكان باسمه، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال..

وهناك، صبوا لعناتهم على الطاغية، وانصرفوا، يهنئ بعضهم بعضاً،
بعد أن اختار لهم برسيوس ملكاً منهم.. فاضلاً، عادلاً.. وقد عرضوا
عليه الملك فأبى.. لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه، ومن
أندروميذا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد!!

وتوجه إلى حيث لقي هرمز، عند الصخرة المشرفة على البحر،
فوجده ينتظره، فتعانقا عناقا يفيض محبة، ويقطر ودّاً، ثم رد إليه
هدايا الآلهة بالحمد والثناء..

أما رأس مديوسا، فقد أهدها إلى مينرفا، ففرحت به فرحاً شديداً،
وهو إلى اليوم مركب في وسط ترسها ترهب به أعداءها الألداء..

* * *

أرفيوس الموسيقى

أرفيوس! لسان الطبيعة، ونجي الآلهة، ووحى السماء إلى جي^(١)
وصاحب القيثارة ذات الرنين... والأنين!

كان يعزف، فتشيع الحياة في الصخر، ويقف أبوللو العظيم في
مركبته الذهبية^(٢) مطلاً برأسه من عليين، يسمع ويطرب.. وكذلك
كانت تصنع ديانا، فطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية^(٣) في أعلى
أجواز السماء، لتلبث هنيئة بباب أرفيوس، تتزود لرحلتها الليلية
المرهقة، من مشارق الدنيا إلى مغاربها.

وكانت الوحوش تسكن إليه، وتجتمع من حوله تنصت وتلتذذ..
وتغفو..

والأشجار! إن لها جذوراً متغلغلة في أطباق الأرض، ومع ذلك فقد
كانت حين تسمع أرفيوس، تنزع إليه وتسير وراءه خبيماً! وكم شهد
الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم، والأيك الذهاب، سعت
إليه تلتذذ موسيقاه، ثم هي تنصرف في المساء فتنغرس في أصولها،
وقد ازدادت نضارة وازدهاراً!

(١) جى هي الأرض في الميثولوجية اليونانية.

(٢) مركبة أبوللو الذهبية هي الشمس.

(٣) القمر.

ومع ذلك، فقد كان ذا غرة مشرقة، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل. وكان جم الحياء، لم ينهر مرة أحد رواده، أو المترددين عليه، بل كان يلقي الجميع ببشاشة الأخوة، وهشاشة الود.

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر، وأفتن من وشي الأصل، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح. اسمها يوريديس.. مصدر إلهامه، ومعين عبقريته، وجمال لحنه، وأغنية حبه، وأنشودة هواه. سئل مرة: "وماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس؟". فأجاب: "قيثارتي... ويوريديس!".

* * *

كانت يوريديس تجمع الأزهار البرية في ررب من أترابها، لتصنع منها باقة ملفوفة تقدمها لأرفيوس، وكانت كلما راقها سوسنة، أو وقعت في نفسها زنبقة، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها إلى الباقة، وهي تقول: وأنت أيضاً لحبيبي أرفيوس..

وبينما هي كذلك، إذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار، فتلدغ قدمها الصغيرة الجميلة المطمئنة في الحشيش الأخضر، فتصرخ المسكينة صرخة مدوية، ثم تنطرح إلى الأرض، وتتناثر الورود والرياحين التي جمعتها حولها، كأنها تنضد سرير موتها. وتجتمع صديقاتها مذعورات، فتعولن وتبكين، وتحملنها إلى أرفيوس الذي يستطار من هول الكارثة، ويخلع فؤاده من فداحة المصاب،

ويحاول المستحيل لإنقاذ أعز الناس عليه، ولكن.. ولكن هيهات!
لقد ماتت! واحتلكت الدنيا في عيني أرفيوس التعس، وأجذبت
قيثارته من ألحان المرح، واستروحت إلى البكاء والأنين. فيا رحمتاه
لمن ينصت إليها ويصغي لها! زفرات حارة تصعدها أوتارها، وأنات
مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها!

وأرفيوس، مع ذلك منزوٍ عن العالم، عزوف عن الناس، مستغرق
في وحدته القاسية، يفكر في يورديس.

وصمم على ألا يفقدها كما يفقد الناس أحبائهم. بل لا بد من رحلة
طويلة إلى الدار الآخرة.. إلى هيدز.. حيث إله الموتى بلوتو، فيضرع
إليه أن يرد عليه زوجته التي لا حياة له إلا بها.

فكرة غريبة، وتصميم عجيب، رجل من دار الفناء، له جسم، وفيه
نفس تتردد من أنحمصيه إلى ذؤابة رأسه، كيف ينفذ إلى دار الموتى
وعالم الأرواح، ومملكة الظلال والأشباح؟!

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال، وها هو ذا يحمل قيثارته، ويبدأ
رحلته، ولا يدري إلى أين؟

ضرب في الآفاق على غير هدى، وذرع الأرجاء في ضلال وحيرة،
حتى رثت له الآلهة، فأرشدته، وأنارت له سبيله، فاهتدى إلى
ضفاف ستيكس^(١) ذي الزبد، حيث وقف شارون النوتي الجبار،

(١) ستيكس هو النهر الكبير الذي يحيط بالدار الآخرة "هيدز" في
الميثولوجيا، وهو يحيط كذلك بالأنهر التي تتحصر بينها جهنم، وسيجيء
ذكرها.

الذي يحمل أرواح الموتى في زورقه، يعبر بها أنهار الجحيم للقاء بلوتو العظيم..

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس، وزمجر قائلاً: "يا ابن العدم، يا سليل الفناء، يا من لم تفض روحه بعد، ماذا جاء بك إلى هنا؟ ولا تزال تتعثر في برد حياتك الرث، وتتكفأ في قيد دنياك الويليلة، عد من حيث أتيت، وإلا فوحق بلوتو المتعالي لأستحقن عظامك، ولأقذف بك إلى ستيكس، فيطويك اليم وتشويك الحمم.. عد.. عد.. أقول لك.. وي. وكأنك لا تسمع!!

ولكن أرفيوس يثبت غير هيّاب، ويتناول قيثارته غير وجل، ثم يعزف لحنا من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون!

شارون! هذا اللفظ، غليظ القلب، أقسى حراس جهنم، يذوب رقة و يمتلئ حناناً ورحمة لما رأى وما سمع، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء، وعبارات البذاء، ويسأله في لين ورقة عن حاجته فيجيب: "لا شيء إلا لقاء بلوتو!".

فيسأله شارون: وكيف، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم؟". فيجيب أرفيوس: "لا عليك ما دامت هذه - ويشير إلى القيثارة - بيمني".

فيقول شارون: "يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم، وإني مخلص لك أمين، إنك غض الإهاب، موفور الشباب، وإن جهنم لا تبقي ولا تذر، وإنها أبداً ترمي بشر كالكصر، وأني أمحضك نصحا علمتي موسيقاك كيف أمحضك إياه، وأستنقذك من عذاب

مقيم.. ألا فلتفكر فيما أنت مقدم عليه، فإن من دونه مهالك، وإن من دونه أنكالا وأهوالا..".

وتبسم أرفيوس بسمه حزينة، كانت ردًا صامتًا على ما حذر شارون، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى أغنياته.

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة، حتى تتحدّر الدموع من عيني شارون، ويتقدم إليه معتذرًا، فيحمله في الزورق، ويجوس به عباب ستيكس، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيط الموج وتلاطمه، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح، فيقول: إنك، وأنت من أنت، من فوقه، سبب هياجه واصططخابه، ولو خلى بينك وبينه لما أنجأك منه شيء حتى تكون في أعماقه!!" ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة، ويتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته المشجية، فيبدأ ستيكس الصاحب، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه!..

وتطول الرحلة، ويعبران (أشيرون) نهر العدم، و(ليث) نهر النسيان، و(كوكيتوس) نهر الآلام، و(فليجتون) نهر اللحم واللهب، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) - دار الموتى - ومملكة بلوتو، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعاً قيثارة أرفيوس، بألحانها الرقيقة، وأنغامها الباكية..

وتبدأ من هذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد، في مسالك ملتوية، وشعاب متداخلة، لا تجدي معها موسيقى أرفيوس فتيلًا.

وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يورديس، كيف حملها شارون في زورقه، وكيف عبر بها هذه الفجاجة إلى المقر الأخير، وهل كانت تبكي؟ أم كانت راضية بالقضاء الذي فصلها من أحب القلوب، وأقصاها عن أعز الناس؟ وهل حدثه عن الشاب أرفيوس؟ أم كانت في شغل عن كل شيء بما هي فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيدز وفيافيا؟ وهل تأملت يورديس حين كانت تعبرها؟..

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا إلى بوابة كبيرة الحجم تصل إلى قصر بلوتو، ولكن كلباً ضارياً بادي النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها، فلما لمح أرفيوس، وهو من غير الأموات هاج وماج، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع!..

وتنبه أرفيوس، ففرك أوتار القيثارة، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه، فثاب الكلب وهدأ، وبعد أن أقعى قليلاً، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه، ويتمسح به، ويا للموسيقى!

ثم هذا عرش بلوتو، وإلى جانبه زوجته ربة الربيع، برسيفون^(١) كسيرة القلب مهيضة الجناح، تعلو أساريرها عبسة قائمة، وتجتثم على قلبها لوعة دائمة. يا لبرسيفون! ويا لهذا المنفى السحيق!

(١) برسيفون، أو بروزرين كما يسميها الرومان، هي ربة الربيع التي اختطفها بلوتو لتؤنسه في وحشته في هيدز، بعد إذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه.

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذي استطاع أن ينفذ إلى هيدز، وفيه رمق من حياة!!

وقبل أن ينبس بلوتو، جثأ أرفيوس لدى قاعدة العرش، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار، ثم تناول قيثارته، وطفق يتغنّى قصته المشجية، يرسلها خلل أنغامه الخزينة، وملء ألحانه اليتيمة.. حتى أتمها.

وكانت الموسيقى الممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجين، وكانت الرنات، الممتزجة بالأنات، والهديل ليس مثله هديل، قد أحدث أثره في نفسيهما، حتى أن دمعة مترققة شوهدت تنسكب على خد برسيفون!

وفي الحق، لقد هاجت قصة يوريديس شجون برسيفون، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة، في هذا الملك البغيض!

وانزعج بلوتو الجدد وسواس لج في صدره، لما شاهد من تأثر زوجته، وانسكاب هذه العبرة الخزينة على خدها الشاحب، حتى لقد خيل إليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث، ومن موسيقاه الشاجنة، إلى قلبها الغض الصغير!

وقال بلوتو: "انهض أيها الشباب، فوحق أورينوس^(١) لقد كدت تكون من الهالكين: لولا قصتك الباكية، وموسيقاك المبللة بالدموع.

(١) أورينوس هي السماء، أبو الآلهة، في الميثولوجيا.

والآن، ماذا جاء بك إلى هنا؟ وما الذي تطلب أن ينتهي إليك من إحسان بلوتو؟".

فرجع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة، ثم قال: "مولاي! يوريديس يا مولاي؟ تأمر فتعود أدراجها معي إلى الحياة الدنيا!".

فأجاب بلوتو: "طلبت المحال أيها العبد، ولكن بلوتو الكريم، لن يرد رجية بأئس مثلك.. لك ما سألت، وستعود يوريديس معك، ولكن على شريطة واحدة، ألا تراها حتى تخرج من هيدرز. إنها ستبتعك، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى!".

ورجع أرفيوس ركعة الشكر، ثم قال: "سأنفذ مشيئة مولاي". وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى يدجان، في ظلمات بعضها فوق بعض، والحبيبان يدجان خبياً.

وكان قلب أرفيوس يدق.. ويدق. وأنهما ليكادان يبلغان العدو الأخيرة من نهر ستيكس، حتى يوجس أرفيوس خيفة، ويظن - ويا شر ما يظن - أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه، فينسي شرط بلوتو، ويلتفت فجأة خلفه، ليرى أنها ما تنفك تتبعه. ولكن يا للهول! لقد رأى يوريديس باسطة ذراعها إليه، كمن يتلمس طريقة في الظلام، وحين تراه يلتفت إليها. فيخل بالشرط الذي عاهد ربها عليه، تنثني من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدرز.. متممة في صوت ضعيف خافت: "وداعاً يا أرفيوس!" يا حبيبي أرفيوس.. وداعاً..".

فيصرخ المسكين صرخة يكون معها في هذه الحياة الدنيا، حياة الشقاء والآلام!

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً.. يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدزو.. ولكن.. هيهات!

ويدخل الدنيا محطم القلب، خفق الأحشاء، موهون القوى.. لا يطيب له عيش، ولا يسيع لذة من لذائدها، ويتخذ مأواه في شعاب جبل تزمزم الرياح في جنباته، وتزجر الوحوش في غيرانه، وتدوي البواشق في قننه، ويكون كل أولئك خير صحابه، ويا ما أعز الرفاق!

* * *

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف إليه في أيامه المواضي، فيحتلن عليه Liezف لهن من ألحانه، ولكنه يعزف عنهن ويشيح، ثم يفر منهن، فيقتفين أثره، فيمعن في الفرار، فيتضايقن، ويصمينه بسهامهن، ثم يرجمهن بالحصى المسومة، والمجارة الثقال، حتى يموت!

ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول: "يوريديس.. يوريديس!"

فتردد الأصداء نداءه الحزين: "يوريديس.. يوريديس!"

ولا تزال الأشجار والأطيّار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المغبون المحزون: "يوريديس.. يوريديس!"

* * *

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس، وأشبيرون، وليث وكوكيتوس، وفليجتون... فيتلقاه شارون الجبار باسمًا هاشًا منحنيًا..

ويجلسان معاً في الزورق، يقصان ذكريات الماضي.. القريب! ويتلقاه
الكلب عند البوابة، فيهرول إليه، ويتمسح به، وفاء وذكرى!
ويتلقاه بلوتو كذلك، فيهنئه بالعود.. إذ كان العود أحمد!!
أما يورديس...!

فلشد ما يكون فرحها بعودة حبيبها!

* * *

مأساة أم

رآها زيوس تقطف الزهر وثنيه في حدائق السوسن، وتندش مع
البلابل ألحان الشباب، فتتصت الطبيعية وتفتح آذان الورد، وتحلق
أحداق النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم، الحلوة كأنها
حلم جميل في أجفان عاشق، الموسيقى التي يستطيل نغمها حتى يبلغ
السما، ويتسع حتى يغمر الكون، فيثوي بكل أذن، ويستقر في
كل قلب، ويحقق مع نبضات المحبين، وينسكب ذوباً من دموع
المدنفين المعذبين!

رآها زيوس جفن بها! وبالرغم مما أعطى على نفسه من موثيق
لزوج هيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائي كن إلى هذه اللحظة
ستا أو أكثر من ست، فقد ذهب يقتفي أثر كليستو، ويرهف سمعه
ليلاً بموسيقاها قلبه..

كانت تمشي بين صفين من أعواد الزنبق، تنقهما ورود ورياحين،
وكانت تنثني وتميس، فيهتز الروض وينتشي الزهر، وكلما ترنمت
بأغنية من أغنياتها الساحرة، رددت الأزهار والأطياف ما تغنت،
كان كل شيء في تلك الطبيعية الرائعة الفنانة عضواً في فرقة كليستو
الموسيقية.

وجلست نثفياً ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من
ثمرها الجني، ورطبها الشهي، فتذوقه كليستو وهي تبسم.

وأسكر النسيم الخمري عينها الساجيتين، فاستسلمت للكرى الطارئ،
والغفوة العارضة، وتمددت على البساط السندسي ليحسر الهواء عن
ساقها وتكون فتنة يضل في تيهها قلب زيوس، وتضرب في بيدائها
نفسه.. على غير هدى!!..

وبدا للإله الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الإهاب، ثم
يسوق آلهة الأحلام قترقص في أجفان كليستو، تهرج لها من الرؤى
ما يشب في نفسها رغائب الهوى ولذائد الحب، ويثير فيها حرارة
الحياة.

ونام الخبيث إلى جانبها، وطفق يروح على وجهها ثم نشر ذراعه على
جسدها الناهد، وراح يضغط قليلاً.. قليلاً.
ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها في قلب كليستو، فلما استيقظت،
ووجدت نفسها في حضن هذا الشباب اليافع الجميل، لم تنفر، بل
نجلت نجلة زادتها جمالا وضاعفت سحرها، وفتوتها، وقترت أهدابها
فاسترخت، وفنيت في حبيبها المفاجئ.. وفني هو الآخر فيها.

* * *

وجاءها المخاض!
ووضعت غلاماً أحلى من القبله الحارة على الثغر الحبيب، وأعذب
من ابتسامه الزهرة طلها الندى.

فلما زارها زيوس وبشرت به، اهتز الإله الأكبر وشاعت الكبرياء
في أعطافه، فباركه، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة،

ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التي ظل يخفيها عنها طوال جبه لها،
وذلك حينما أشار إلى ابنه يمينه البيضاء هاتفاً:

- "بوركت يا أركس! يا أجمل أطفال الأولمب!".

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى
حبيبها كأنها تستريب، وقالت له:

- أجمل أطفال الأولمب؟ إذن من أنت أيها الحبيب؟".

- "بشراك يا كليستو! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس!".

ولم يسع كلبستو إلا أن تسجد لربها وهي ترتعد من الخوف،
فقال لها:

- "انهضي! انهضي! ماذا تصنعين يا حبيبة؟ انهضي فقد رسمت ابنا
أركس إلهاً، فاكفليه حتى يشب، وإياك أن تراكما هيرا
فتسحقكما..".

وقبل الغلام وقبل الأم.. وغاب في الأفق..

* * *

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة،
فإذا خرجت للصيد في الغابات القريبة، أقامت عليه حارسين من
كلابها الكواسر، يكفي أحدهما لتشتيت شمال جيش بأكله.. وكانت
تعمل إليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة، حتى إذا اشتد
ساعده، علمته الرماية وألعاب الفروسية، مستعينة في ذلك بالسنتور
العظيم شيرون، مؤدب هرقل ومدربه.

وزاغت الأنباء في دولة الأولمب ، أن لزيوس خلية يختلف إليها في
الفينة بعد الفينة، وأنه أولدها طفلاً بارع الحسن، وسيماً قسيماً، يكاد
يكون في مستقبله هرقلًا آخر، يضارع هذا الهرقل الهائل، ابن ألكمين
الذي كان يدوخ أبطال العالم في ذلك الوقت..

وقد مادت الأرض بهيرا حين علمت هذه الأنباء؛ لأنها كانت تغار
من أزواج زيوس، وتخشى أن تلد إحداهن بطلا يكسف شمس
ولديها مارس وفولكان. وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها،
فكم نثرت في طريقه شوكة، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار.
أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر يغطش حياتها، ويراوحها
بالأشجان والآلام!!

وكانت كليستو تصدح في أصيل يوم من أيام الربيع، فتستجيب لها
العابة، ويردد غناءها الطير، ويمشي في أثرها الدوح، وتهتز الأرض
والسماء، وكانت هيرا قد عرفت أوصافها من شيرون، مدرب فتاها
أركس، فلها سمعتها تغني، ويمشي وراءها العالم بأسره، عرفت أنها
هي!! وكاد قلب هيرا يصبو إلى كليستو، مسحوراً بروعة الغناء،
مأخوذاً بترجيع البلابل.. حتى لكانت تحال الورد نفسه يغني معها!!
وكادت بذلك تنسى غيظها، بل كادت تخترط في هذا الحشد
الموسيقي الذي يصير لكليستو ويستجيب لألحانها! ولكن!..

لقد ذكرت ابنها مارس وفولكان، وذكرت كيف صرعهما هرقل في حفل الأولب، حتى لكانا ضحكة كل راء، فنسيت الغناء وأصمت أذنيها، وغرفت من ماء قريب يديها غرفة جعلت تتم عليها بتعاويد سحرية، ورقى غيبية، ثم صاحت بالفتاة فسمرت مكانها دهشة مأخوذة، فنثرت هيرا في وجهها الماء وهي تقول: "شاهت دبة! شاهت دبة!" .. وأسفاه! ..

لقد أحسست كليستو في ذراعيها العاجيتين بخدر شديد، ثم نظرت فرأت شعراً خشناً ينمو بسرعة فيغطي جسمها البض الجميل كله! وأحست أظافر طويلة غليظة تنبت في أطراف أصابعها، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رجليها المعبودتين!

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول، ثم يتغير ويتحول حتى ركب فيه أنف كبير أسود، وفم مغبر في منتهى القبح، يسيل على جنباته لعاب شائه كريه!

وخيل لها أن ذنباً ينبت وراءها، فتحسسته فأيقنت أنه ذيل خبيث .. ما في ذلك ريب!

وفزعت كليستو، فأرادت أن تصيح تستنصر الغابة. ولكن .. يا للهول! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات، وتعوي كما تعوي الذئاب!!

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض!

وأصابتها هيرا بظماً كاد يصهر حلقها، فذهبت إلى غدير ترتوي، ولما انخنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تنقلب في صفحته، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد، بل إنها قد انسحرت فصارت دبة قبيحة قدرة ذات أنف طويل أسود، وعينين رجراجتين تقدحان الشرر. وانطلقت في الغابة تعدو وتعدو، وثوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد، وكانت الحيوانات - حتى ضوايرها - تفزع منها كلما مرت بها، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة، التي كانت قبل لحظات ترقص بين يديها.. وتنشد وتغني!!

وضربت في القفار والفلوات، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزع، وكانت تختلف إلى الغابة، فإذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ثم ثوارى عنهم، وفي نفسها هموم وحسرات..

خمس عشرة سنة!!

خمس عشرة سنة قضتها كليستو الناعسة في هذا الشقاء الطويل، لا تمر بها هنية دون أن تفكر في ابنها وتبكي.. وتفكر في آمالها.. وتبكي، وتفكر في ذكريات شبابها.. وتبكي، وتذكر الموسيقى والغناء.. وتبكي!! واشتعل قلبها شوقاً إلى أركس، فجلست إلى أيكة حزينة تتناجى:

"تري! ماذا تصنع الآن يا بني؟ ألا تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأوлюб؟ هل أنت مريض يا أركس؟ هل في جنبك جرح يتفجر دمًا لبعد أمك عنك،

كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي، وتنسكب حياتي؟ وهل إذا أصابك ضرر، فأنت واجدٌ قلباً يحنو عليك ويترفق بك.. ويرعاك؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى؟ أي بني! يا ولدي!! يا حبة القلب يا أركس؟!"

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر، ويحرق نجمة الليل، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضاء ليلها فيه..

* * *

أما أركس فكان هو الآخر يبكي أمه، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يقل بنصائحه غرب حزنه، ويطفئ بمواعظه نار أساه، فنسي، أو تسلى.. أو تناسى..

واشتد ساعده، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم. ولا تخيب له رمية، وأحبه شيرون من سويدائه، ولازمه طويلاً، حتى كانت حرب السنتور فودعه، وعاش الفتى وحيداً.. يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه، يختلف إلى الغابة يصيد منها الثعالب، وإلى البرية يرمي فيها الوعول، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد.

وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ، إذا أمه المسكينة تلهح فجأة، وتعرف فيه ابنها، وأعز الناس عليها.. فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تنبس ولا تحير!

فهل عرفت هذه التماثيل المرمية التي تقف صامته كالألغاز في المتاحف ودور الآثار؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عندما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال!

ولقد خشيت أن تزججه بوجودها؛ لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئاً كما يرهبون الدباب، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها، ولكن.. هيهات! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاهما من الحيرة والارتباك!

والتقت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه، وهو غير متهيئ للرمية، فارتبك لحظة، ثم تناول قوسه بيد مرتجفة، وأصابع مرتعشة.. ولكنه، ويا للعجب! أحس بريق غريب ينبعث من عيني الدبة، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع، وضاعف دهشته أن الدبة سمرت مكانها دونما حراك، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين جعلتا ترنوان إليه، وما تريمان عنه!!

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيواني الخيف.. فصمتت.. وتكلمت عبراتها.. ثم..

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه، وكاد السهم المमित يمرق فيودي بحياة أعز الأمهات.. لولا أن زيوس.. الإله الذي طال رقاده!. كان يسمع في تلك الآونة ويرى، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة، فلم يبال التدخل في سحر زوجته - هيرا الخبيثة - فأطلق لسان كليستو، وصاحت فجأة:

"أركس.. ابني العزيز.. أنا هي.. أنا هي أمك.."

وسقطت القوس من يد أركس.. وكانت مفاجأة مشجية! وظل
الفتى يرمق الدبة عن كذب وهو لا يصدق! وقال لها:
- "ماذا تقولين؟ أدبة نتكلم؟ أم من؟.. من أنت؟".
- "أنا هي يا بني.. أنا كليستو أمك البائسة.. فعلت بي هيرا ما
ترى.. خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك
في هذه الغابة المتوحشة!..".
ولم ينبس أركس ببنت شفة، بل تقدم مهدماً من الهم، فعانق
أمه.. ووقف لحظة يبكيان!!
ثم تدفق حنان السماء، وأمطرت رحمة الآلهة، وأمر زيوس فحُملا
إلى الأولب.. أركس وأمه، ومن ثم أطلقهما رب الأرباب في
السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها، لا تزال تراهما إلى اليوم،
ولا تزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة، إذ نسمي الأم "الدب
الأكبر" ونسمي الابن، أركس الحبيب "الدب الأصغر".. ولا تزال
هيرا القاسية تنظر إليهما وتتميز من الغيظ^(١).

* * *

(١) أورد الأستاذ جريس هـ. كيفر في كتابه الجميل عن أساطير اليونان زيادة
في آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره، بل لم يشير إليها أحد من مؤرخي
الأساطير، والزيادة - إذا صدق حدسنا - هي من ابتكار الأستاذ، ولذا لم نر
أن نكمل بها قصتنا.

يوم قيامة وطيش فيتون

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسنة الهيفاء كليمين، بعينين مغرورتين، ونفس مكلومة، وفؤاد خافق متصدع، فجرى بينهما هذا الحديث:

- مالك يا حبيبي! لماذا تبكي؟
- ..؟..
- لا..لا.. فيتون يبكي؟ هذا عجيب! أياكون أبوك أبوللو وتبكي؟!
- أبوللو أبي؟ كذب، كذب!
- كذب؟ وكيف يا فيتون! أمك كذابة؟
- لا. لا، عفواً يا أماه! أنت لا تكذبين، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي!
- ولم أسخر بك يا بني؟
- الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي، وكلما حلفت لهم أن أبي أبوللو ضحكوا!
- دعهم يضحكون يا فيتون. ماذا يضيرك؟
- يضيرني أنني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم، لا بد إذا كان أبوللو أبي أن ألقاه.
- تلقى أبوللو؟
- ولم لا؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم؟ فلم لا ألقى أبي؟ أنا بدع من الناس؟

- لست بدعاً، ولكن أبوللو في بلاد بعيدة.. إنه في الهند!
- ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي؟ صني لي الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه.
- اذهب إلى الأرض التي تشرق من أفقها ذكاء. فهناك ترى أباك.

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة، وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف، لا يبلغ البصر مداه، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره.. وكان مع ذاك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء. وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلعب، ويكاد سناه يذهب بالأبصار، أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم، وافتن فولكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قطان، فأقام في الأرض غابهاً وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها.. حتى آلهتها، وأبرز في البحر عرائسه المائسات الفاتئات، فجعل منهن سباحات يتواثبن فوق الموج، وجالسات على النوى يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن.. وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات، دليلاً على حذقه وجليل قدرته، وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الاثني عشر، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار..

خلق فولكان، ومن أحسن من فولكان خلقاً^(١).

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجباً، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة، فقد تقدم فيتون غير هياب، ودخل في غير وجل، وكان يلح اللحمة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة، ثم يسلك سبيله قدماً حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه، على عرش ممرد ناصع، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة، تبهّر الأنظار، وتخسئ الإبصار.

وسار الفتى مسافة قليلة، ثم وقف مكانه عشيّاً من شدة الخطف والإيماض، ولم يدر أيان يذهب، وكان أبوه متشجّاً بوشاح فضفاض أرجواني، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة، ثم وقف الربيع - وتمثله هنا امرأة - وفوق رأسه أكليل جميل من الغار والزهر، ومن بعده وقف الصيف، وقد نضا جيب قميصه عن صدره، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه، ثم همّ الخريف متهاكاً على نفسه، وعلى قدميه آثار من عصير العنب.. أما الشتاء، فقد بدا شيخاً وقوراً جلي الشيب رأسه، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع.

(١) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة.

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه، وقد خطفت الأضواء بصره، وأخذته المنظر العجب الذي سحره عن نفسه، فيهتف به ويباركه ويقول:

- فيتون! فيم قدمت يا بني؟ لأمر ذي بال، ليس من ذاك بد؟
- أوه! يا نور السموات والأرض يا فوبوس^(١) أو يا أبي إن أذنت لي أن أناديك بهذا النداء! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول أنني أنا ابن أبوللو.
- برهان؟
- أجل، هب لي من لدنك برهانا يثبت أبوتك لي، فلقد استهزأ بي التلاميذ، ففضحوني في بنوتي لك، لا بد من دليل، هل تسمع؟
- لا بد من دليل؟
- لا عليك يا بني! لك ما أردت.. على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك، وأنا من جهتي لست أنكرك، فأنت ابني وأنا والدك، والآن سل ما شئت فإني مانحك أيّاً ما تريد.
- صحيح يا أبي؟
- أولاً تصدق ما أقول؟
- بلى، ولكن ليطمئن قلبي!
- صحيح يا بني، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة!

(١) أحد أسماء أبوللو.

- فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة، ولكنه لا يجد لها أثراً..
- وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه!
- ولد ظريف يا فيتون! أنا ما رأيته قط، ولكننا نخلف بها في كل أمر جلل يا بني؟
- إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك.
- وي! فيتون! أي طلب هذا؟
- لا بد!
- محال يا ولدي! أنت حدث، ثم أنت بشري من بني الموتى! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد! أما هذا، فلا!
- كلا، كلا.. لا بد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ، وليتأكدوا أنني ابن أبولو؟!
- إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك!
- لا.. لن تحرقني، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء!.. أأست إلهاً؟..
- بلى، ولكن..
- لكن ماذا؟ لا بد، لا بد، محال أن أسألك شيئاً آخر!
- يا بني، إن هذا ليس في طوقك، إنك ضعيف صغير، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة، أني أقوم به والرعب يملأ قلبي، وأنا، من أنا يا فيتون..

إن سيد الأولب نفسه، الإله الأكبر زيوس، جل سناؤه،
وتقدست أسماؤه، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتبهة ذات
اللظى يوماً أو بعض يوم، فما بالك أنت؟
إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلاً قليلاً
عن خط العمود، وخيلي ترقى مزالقه^(١) في صعوبة ليس بعدها
صعوبة، والثلث الثاني عال شديد العلو؛ لأنه يرتفع فوق قمة
العالم، حتى لأجزع أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار
أن يأخذ في رأسي^(٢) حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح
الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتي، أما الثلث الأخير،
فأحدود شاق كهراوي الجبل، إذا وقفت عليه فوق شعفته^(٣)،
ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر، حتى أن تاتيز الواقف في
نهايته ليتلقاني، يرتعد من الخوف عليّ، والرثاء لي، خشية أن
أتردى في هاوية اللانهاية هذه، ولا تنس السماء التي تجري
فوقي لمستقر لها، بكل ما فيها من كواكب وأجرام، فإذا غفلت
لحظة، أو أخطأت قيادة العربة، جرفتني في دورتها إلى حيث لا
أعلم أين تذهب أو تستقر بي. ثم تدبر معي قليلاً يا فيتون، إذا أنا
سمحت لك بقيادة العربة، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى
الأسفل فترى الأرض تلف، والسباع تهمهم في الأدغال،

(١) المزالف: المراقي.

(٢) هذه عبارة القاموس.

(٣) قمته.

والناس يكظون المدن، والآلهة تطل من قصور الأثير، والأشباح تسري حواليك كالسمادير؟

- ماذا من الروح يعتربك يا ولدي؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو تملك ألا يفلت العنان منك؟ إنك ستمر بين قرني الثور أمام الحوت، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعي السرطان^(١).. يا بني! هل تستطيع أن تقود الخيل التي تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدني الدائبة؟ اختر نفسك يا بني ولا تجعل الناس أن يقولوا أهلكه أبوه".

وتشبث فيتون، وركب رأسه، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة، فلم يسع أبوللو إلا أن ينطلق به حيث عربة الشمس؟ العربة العظيمة المطهمة، المصنوعة كلها من الذهب الخالص، وقليل من الفضة المزركشة بالآليء والجوهر، وأحجار الماس التي تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها، وتزيد كثيراً في لآلائها.

وتقدمت أورورا ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق، ونضرت بالورد طريق أبوللو، ثم أخذت النجوم تثب كالحمام قبل المغرب، وفي أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الوراقاء..

(١) كل هذه أسماء بروج في السماء .

وتلفت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه، فأمرهن أن يسرجن الخيل، فأطعن، وقصدن إلى الإسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس، فوضعن في أفواهها اللجم، وأسرجنها بكامل عدتها..

وتناول أبوللو وجه ولده فضحه بطيوب إلهية، وضمخه بدهن كريم، ثم قطر في عينيه قطرات من ماء أولب، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة، والصبر لضوء الشمس القوي، ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التي تجر الشمس، فتير أقطار السموات والأرض، وقال يوصيه:

- "أي بني! ها أنت قد استويت على عربة أبيك التي ما قادها من قبل أحد غيره، ولا يقدر عليها أحد سواه! أي بني فاشدد إليك أعنة الخيل، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط، فهي قد مرنت على الطريق، وهي لا تبطي حتى تحتاج إلى أن تساط. أي بني ولا تخرف عن شمالك أبداً، وابقَ منتجعاً سبيل الاستواء الذي هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس، واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى، وسترى آثار رحلاتي من قبل، فسر على دربها تصل إن شاء الله. أي بني ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيماً جزأ، بل خذ الطريق الوسطى أبداً، فإن خير الأمور أوسطها.. فإذا أفلتت الأزمة من يدك، فظل حيث أنت، ولا تذهب مذاهب شتى في رحب السماء.

وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات. أي بني وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي، فلا أقل من أن تعي نصيحتي والسلام عليك".

ورد فيتون على أبيه السلام.. وانطلق من أبواب المشرق، وطفقت أخيل الصافات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب، وتسابق أنفاس النعيم التي تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق.. وعجبت الخليل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذي لا عهد لها به، وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذي ليس له صبرة ^(١) ثبت به في مهب الأعاصير. وجمحت الخليل.. وانطلقت في غير طريقها المعهود.. ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلامس الدين الأكبر والأصغر، فثار ثائرها من لفح الحر، ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المتحوي فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفت سمه الزعاف، وفرت من طريقه الكواكب.. ونظر فيتون تحته، فرأى الأرض تلف كالخذروف ففزع قلبه، وزلزلت نفسه، وسقطت من يديه أعنة الخليل فجرت به في السفلى حتى اقتربت من الأرض.. ونظر وراءه.. فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله، ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطرق وعورة، فزادت حيرته، وأسقط في يده، وترك كل شيء للقضاء والقدر.. وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد..

(١) الصبرة والصبرة: الحجر الذي يضعه الملاح في قمر زورته حتى لا يميل فيغرق، ويسميه العوام (الصابورة).

وحدث أن ارتفعت هذه فجأة، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب، ذلك الهولة المخيف الذي أوشك أن يبتلع العربية بمن فيها.. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربية أخيها تتخط في الآفاق، وتصطدم بالكواكب، فتحدث الشهب، وتحرق العوالم السماوية: "تري ماذا أصاب أبوللو؟ مسكين؟ لا بد أنه نام. على كل حال سيستيقظ!" ولكن العربية هبطت فجأة حتى صارت في سماء الأرض، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية معهم.. فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق في كل الأرجاء.. ها هي ذي الغابات العظيمة تشتعل.. وها هي ذي ألسن النيران ترقص في كل فج.. وها هي ذي الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط في كل البقاع.. والمدن! المدن العامرة الآهلة.. إنها ت احترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان.. أما الشباب؟ فوا أسفاه على الشباب! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع، وها هم أولاء يقدفون بأنفسهم فيها. ولكن! وا أسفاه: إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتنفور، ويعب عابها بالحلم، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار: لقد بادت أمم، واختبأت أمم في الغيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال.. أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكاتها، ولم يسلم منها إلا ما لاذ بأفحوص أو أدحى^(١).. ومسكينات عرائس البحار!

(١) الأفحوص عش في الأرض، والأدحى بيت النعام.

لقد شجبت ألوانهن، وذوى جمالهن وغصن في الأعماق مع السمك
يلتمسن الماء البارد، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية، وآثرن
أن يعاشرن البنجوين. أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل
الأول مجللة بركام الثلج، فقد خلعت حللها الناصعة، وحلت عمامتها
المخملية، وصارت تلتهب.. فهذه طوروس السماء وتلك القوقاز
العاتية، وهاتيك الألب المزهوة كلها تلتهب.. كلها تقذف بالحمم..
حتى أولمب مثنى الآلهة، لقد غدا كومة عالية جداً من النار.

ولقد كانت الصحراء اللوية فراديس يانعة، ولكن فيتون المجنون
حوّلها إلى رمال وكثبان، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب
مهيل منها لجف ماؤه، وتجرى في السماء كله، ليجري في كوكب آخر!
وهكذا فعل الفرات وأخوه، وكذا صنع الكنج والسند.. فشكراً لكل
الأنهار التي ضحت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع
البشري!

يا له يوم قيامة!

لقد ضجت الآلهة في الأرض، وكلها حاول نبتيون الجبار إله البحار
أن يخرج رأسه من اليم ليجأ بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة، خاف
وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون.. ولولا أن
جازفت أمنا الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بزيوس العظيم
لأصاب من بقي العذاب الأليم.. لقد قالت له:

- يا جوف العلي! يا رب الأرباب! أصغ إليّ، واستجب لدعائي؟

ما هذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزكري وضري؟ أهذا جزء
خصوبتي وما تهب عبادك من حب وأب وعنب وقضب وحدائق
غلب؟!

أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك
الهياكل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد؟ ماذا من القرابين يا رب
الأرباب يذبح باسمك بعد أن يهلك كل ما عليّ من قطعان وأسرار
ورعال؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد "كيف
تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً، وتصير كل شيء في
ملكك إلى هيولى؟ استيقظ يا جوف واستمع، وأدركنا بلطفك هذه
الساعة التي نحن فيها أشد ما نكون في حاجة إليك".

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جوار ربة الأرض، وأبصر فرأى
ما حل بالعالم الجميل من تدمير ووبال.. فألم وتصدع.. ونظر إلى
عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون بن
أبوللو فهاج وماج، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها، ثم أحكم
تسديدها إلى الراكب المجنون.. وأرسلها تقصف وتعزف.. وتهز
الأفلاك. فأصماه وأرداه!

وسقط الغلام الأحيق من علو العالم يتقلب في نهر أريدانوس
المتدفق في سهول إيطاليا.. حيث مات.. واستراحت الدنيا كلها
منه؟ وعادت الشمس إلى ربها.. أبوللو المسكين.. فهو يجري بها إلى
اليوم لمستقر لها!

أما كليمين البائسة، فهي إلى اليوم تبكي ولدها.. وقد بكته معها أخواتها، وكن في كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكن دموعهن، حتى رثت لهن الإلهة، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم. وكلما سكن دموعهن حارت الدموع إلى كهرمان كريم. وحزن سيكنوس، صديق فيتون، على خدن صباه، فجمع رفاتة، وبني لها قبراً من الرخام تظله الشجرات كتب عليه: "ما أتعس الإنسان إذا احتاج إلى برهان على أنه ابن فلان!".

* * *

بلوتو يخطف برسفونيه أسطورة الربيع

كانت ديميتير الطيبة^(١)، ربة الخيرات ومغدة البركات، الرحمة البارة، ملونة الزهر ومنضجة الثمر، واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها.. كانت ديميتير الطيبة تسكن في قصر منيف يشرف على سهل أنا Enna، أروع سهول جزيرة صقلية جمالا وأعذبها وأطيها هواء، وكانت حين يتنفس الصبح، تلبس تاجها اليانع الذي ضفرته من سنابل القمح، وتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة، وتقبض بيمينها على صولجانها العتيد، المرصع بالزبرجد ثم تستوي في عربتها المظهمة، فتنتقل بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض، وتمر بكل مزرعة، وتقف عند كل كرم، تهب القمح من نفحاتها فيربو من بركاها ويزكو، والينع من أنفاسها فيطيب. ثم تعود إذ يجن الليل، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة برسفونيه فرحة متلهلة، لاقّة ذراعيها الجميلين حول ساق أمها، كأثما تبثما ما في قلبها الصغير من لوعة وغليل."

(١) برسفونيه اليونانية هي بروزور عند الرومان، ربة الربيع. وهي بنت ديميتير ربة القمح والخصب، ويسمّيها الرومان سيريز Cérés وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة في عيدها العظيم الذي كانوا يسمونه cerealia وكانت لوائح مجلس الشيوخ الروماني تحتفظ بها عادة في معبد سيريز. وقد اشتقوا من اسمها اللفظة cereals للحبوب.

وكانت الفتاة برسفونيه تقضي سحابة النهار، إلى أن تؤوب أمها، في سرب من أترابها، بنات الغاب الحسان فيظللن يقطفن الزهر، ويجمعن الرياحين، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة، وملحمة صاحبة من ملاحم الصبي، فيتراشقن بالورد، ويترامين بالزنبق الغض، ويتضارين بأفواف السوسن.. وهن فيما بين هذا وذاك يقرقعن بالضحك ويتبادلن النكات، ويتغنين الأغاريد، فتستجيب الغابة لهن، وتترقق الغدران من تحتهن، وتهدل الأطيّار من فوقهن، وتمتلئ الدنيا حولهن نشوة وجوراً.

وكان بلوتو: إله الموتى، ورب الدار الآخرة، قد مل هذا السكون الخيم في مملكته تحت الأرض: هيدزو، وسئم هذه الأشباح التي تطيف به هنا وهناك في الظلمات المحيطة به، وأرواح الموتى تنث وتتوجع في كل مكان من ملكه الموحش الخزين، فأسرج عربته الضخمة، وألهب جيادها بسياطه القاسية، فانطلقت تعدو به إلى.. الدار الأولى. هذه الحياة الدنيا!

خرج بلوتو يروح عن نفسه، وينشق هذا النسيم الحلو الذي يغمر ملكوت أخيه زيوس، ويروي روحه الظائمة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب، إذ أبين جميعاً أن يشاركه ملكه الرحيب، ورفض التزوج منه، برغم ما أغراهن به من اللآلئ واليواقيت. وفيما هو ينهب الأرض بعربته، إذ به يسمع في غيضة قريبة، ضحكات مرنة، وأصوات موسيقية، وأحاديث كأنها دنائير من ذهب في كف صير في حذق!

فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائي يتضحكن هكذا،
كأنما يترنمن بالشدو، ويرجعن بالغناء! ففرق العساليج التي كانت
تحجبهن، فرأى البدور البيض على الحشيش الأخضر، كأنهن
نغمات حلوة تنطلق من أوتار أرفيوس!

وجن جنون بلوتو! وأقسم ليخطفن هذه الفتاة الخدلجة الممشوقة التي
تدل على الجميع كأنها فينوس في دولة الحب، أو ديانا تخطر بين
أماليد!

"إلام أظل في هذا الديجور الحالك وحدي؟! وحتام أقاسي منفاي
السحيق من غير صديق أو رفيق؟! وما قيمة ملكي الشاسع، وأنهاري
الفائرة بالحلم ما دمت لا سمير ولا مؤنس إلا زبانيقي وكلابي؟ وإلا
شارون^(١) المسخ الكئيب؟

لقد مللت؟ ولا بد لي من هذه الكاعب الحسناء، والغادة الهيفاء!
إن لها لعمراً رقيقاً.. وإنها لتثنني كالغصن، وتخطو كالقطة!
يا للثديين..!

ماهما بارزتين هكذا؟ أتطلبان حضناً قوياً كحضني؟
أم يملؤهما لبن الآلهة، ورحيق السموات؟
يا للفضذين الملتفين الممتلئين!!

إنهما مترعتان باللذة، فياضتان بالإغراء والترغيب! ماهما تنفحان
شهوة هكذا؟!

(١) شارون حارس بوابة الجحيم ونوتي أنهارها.

وهاتان حماتا^(١) الساقين! ويلى عليهما وويلى منهما!!
 إنهما حماتا خيشتان كأبرع ما تنحت يدا فنان! إنهما تمتلئان لذادة،
 وتطلقن رقي السحر في قلوب الناظرين!
 كورتا تكويراً خفيفاً من فوق، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف
 العضل، فأفعمهما رغبة واشتهاء!!
 وقدماها!!

باللعبين المستديرتين، والجنة النائمة فيهما!!

والذراعين الناعمتين!

والظهر العاجي الناصع!

والشعر الذهبي يداعبه النسيم كأنه خصلة من ظلال الخلد!!

ويلى!

أنا لا أرى إلا هذه الأعضاء السابية، وأغفل عن هذه الابتسامة
 التي ترف حول الفم!!

إنها أجمل من زهرة التفاح في أوائل فصل مايو، وأرق من بتلات
 أزهار اللوز في شهر أبريل!!

تلظ يا في، فإنك ظمى إلى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين
 الأخوانيتين!

وسمع إحدى الفتيات تناديهما: "برسفونيه! انظري هاك بنفسجة
 حلوة!".

(١) حماة الساق أو ريلتها: بطنها.

فتحدث إلى نفسه:

"برسفونيه!

هذه عروس الربيع إذن! ابنة ديميتير من أخي زيوس!
لقد كبرت وترعرت، ونهدت، طابت في جسمها البض ثمرة
الحياة!!

اغفر لي يا أبي ساترن^(١)! ساحيني يا وها^(٢).
سأخطفها! سأجلسها بجانبني على عرش هيدز، ستصبح ملكية دار
الموتى! سنتنشق ظلمات ملكوتي بوجهها المشرق الجميل...
لن أشعر بشقوة، ولن أحس خباء في ملكي! إنها ستكون جوهرة
التاج وفنتة العرش، وستجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين!!
سأترك لها أن تغفر وثيب، وسأدع لها مقاليد السفلى تصنع فيه ما
تشاء!"

* * *

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات، ولشد ما تفرعن إذ لحن
وجهه الأغبر، يتدلى عليه شعره الأشعث. والظلال المظلمة تتخايل
فوق جسمه كالسمادير^(٣)!

(١) تتزوج السماء (أورانوس) والأرض (جي) فأعقبت آلهة كثيرة منها ساترن
الذي أعقب بدوره الآلهة زيوس رب الأولمب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب
النار المقدسة وديميتير وهيرا إلخ، ومن أشهر أبنائه بوسيدون رب البحار.
(٢) وها زوجة ساترن وأخته.
(٣) الظلال التي تتراءى في عين كليل البصر.

ولقد كان كلبه سيربيروس، ذو الرؤوس الثلاثة، يلقي الرعب في القلوب!

وفر الحسان مذعورات.. إلا برسفونيه، فقد قبض بلوتو على ذراعها الرخصة وجذبها إليه في العربة، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله. وسرعان ما فار الماء كالتنور، وصار يغلي كالحميم، حتى خشي بلوتو الجبار أن يعبره، وأوجس، إن هو اثني عن طريق آخر، أن يضيع الوقت، وتفلت الفرصة، وتروح ديمتير تفتقد ابنتها حتى تستنقذها من يديه. فتناول صولجانه الهائل، وضرب به الأرض فرجفت وزلزلت وانشقت عن أخذود كبير بعيد الغور...

وكانت برسفونيه قد أفيقت من هلعها، فلما رأت النافورة تغلي وتصطخب أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شيء، وأنها قد تستطيع أن تؤدي لها خدمة في ذلك المأزق الحرج، فحلت (برسفونيه) زناها الحريري الأبيض، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً إلى أمها عن طريق هذه العروس، فتعلم أين هي، وماذا تم من أمرها. وانطلق بلوتو في ظلام الأخدود حتى وصل منه إلى مملكته.. هيدرا! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد!

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل، وهي لا تزدد إلا شماساً ونفوراً... طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة، وأراها شيطان ستيكس وأشيرون وليث، وسائر أنهار الجحيم، ثم خاص بها وادي الأفاعي والعقارب. ومدينة الزناير واليعاسيب، والدرك الأسفل من النار حيث المنافقون والكذابون، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى وهب.. ولم يفقه المغفل أنه كان يضاعف فزعها أضعافاً مضاعفة كلما مر على منظر جديد من ملكه البغيض!!

* * *

وعادت ديميتير في المساء، ولكن برسفونيه لم تهرع للقاءها كعادتها، فحسبتها نائمة... بيد أنها لم تجدها في مخدعها، فافتقدتها في جميع الغرف، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر! فاضطربت نفسها بالوساوس، وخرجت تبحث عنها في الحديقة، فلم تجدها كذلك! ريعت الأم وارتعدت فرائصها، وانطلقت تعدو وهي تصيح كالجنونة: "برسفونيه! برسفونيه! أين أنت يا برسفونيه؟!"

ولكن لسان الصدى - إيخو - هو وحده الذي كان يردد نداءها... ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستون^(١) إله النار فأعارها شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم، ودياجير الليل، عسى أن تهتدي إلى برسفونيه.

(١) هو فولكان الروماني.

جاست خلال الغابات، واخترقت الأودية. وقتشت الشطوط،
ونفذت إلى أعماق الكهوف، وجالت في مهاوى الجبال، ورقت إلى
شعاف الآكام... وبحث عنها في جميع الآفاق... فلم تعثر بها!!
استعانت بالآلهة، واستنجدت بعرائس البحار، ولكن جهودها
ضاعت عبثاً...

وجلست ديمتير كاسفة البال ملتاعة القلب، تعلو جبينها عبوسة
قطرير، وتنوء بروحها آلام وأشجان... وأضربت عن الطعام.
وآلت ألا ينضر حقل ولا يبذر نبات، ولا تثمر شجرة، ما دامت ابنتها
نائية عنها. فجفت السهول، وييست سوق الخنطة قبل أن تؤتي
أكلها، وخرفت البساتين دون الثمر، فعجف الناس، وضمرت بهيمة
الأرض، ونشر الجوع ألوية الخراب في العالمين!!

وانصرف الناس يصلون لزيوس، ويضرعون إلى ديمتير، ولكن
الحزن صرفها عنهم فلم تسمع لصلاتهم ولم تلبّ نداءهم...
وفيما كانت تجوب القفار، وتطوي المهامه البيد، إذا بها تصل إلى
النافورة التي ألقت عندها برسفونيه بزنارها..

وإنها لتجلس عند حفافها تفكر في أعز البنات، إذا بعروس الماء
أريثوذا، التي لمحت بلوتو يخطف برسفونيه، التي أهاجت النافورة
لتقطع عليه سبيله، تظهر من الماء فجأة لترى من هذه الجالسة عند
دارتها تنن وتوجع، وتعلم أنها الربة ديمتير أم الفتاة، فتتحدث إليها
قائلة: "ديمتير! عزيز علينا أن تجزعي هكذا؟! طيبي نفساً وقرى عينا،
فإن بلوتو رب هيدز هو الذي خطف برسفونيه!

وهاك زنارها شاهدي على ذلك، ولقد تبعتها إلى الدار الآخرة
أحسب أنني أستطيع أن أؤدي لها يداً أو معونة، ولكن الإله القاسي
أغرى بي زبانيته، فانطلقت مذعورة من اللعين ألفيوس.. فعليك أن
تخلصي الفتاة فإنها لا تذوق طعاماً، ويكاد الحزن يصعقها برغم أنها
أصبحت مليكة دار الفناء".

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته، ثم طفقت تلقيه على عينيها
وصدرها.. ساكبة دموعها الغوالي!

وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثه بما قالت عروس الماء أريثونا
وأقسمت لديه إن لم يأمر أخاه برد برسفونيه، لتهلكن عباده جوعاً،
ولتجعلن وجه الأرض فدفداً يباباً.. لا تسمن بزرع، ولا تروى
بضرع!

فتأثر زيوس من قولها، وابتسم ابتسامة حزينة، ثم قال: "لا بأس من
عودة برسفونيه إذن.. ولكن! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً
في هيدرز، مملكة أخي، فإنها إن كانت قد فعلت، لا تصلح للحياة في
الدار الأولى!".

ولسوء الحظ كانت برسفونيه، بعد امتناعها عن ذوق شيء من طعام
هيدرز طوال هذه الأشهر، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذي وعد
فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب! فلما علم
زيوس بذلك، عدل حكمه، ففرض أن تلبث برسفونيه في هيدرز عند
شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة، أي شهراً بكل حبة مما أكلت!!

وتعود إلى أمها فتلبث معها ستة أخرى، فيعود بعودها التواء إلى
الزروع، والازدهار إلى الحقائق.

عاشت برسفونيه ربة الربيع! ولا طال على الناس مغيها في هيدر!!
عند الشرير بلوتو.. الذي حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها!!

* * *

مصرع بروكريس

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرة يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروى من جماله، وتسقي نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان.. وحاولت أن تكلمه فأشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم انطلق في أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه، وانحنى يحمله.. ولكنه وجد مكانه أورورا!. وجدها متجردة تمرغ جمالها تحت قدميه، فنفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعيني أفعى، تود لو تتفت في صدره سمها فترديه..

"أنا أورورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد، لا أروق هذا الإنسي المخلوق من تراب! وحق أبي لآسرنه ولأبجننه، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمي، ويكي من أجل قبلة آمن بها عليه!". وأرسلت رقية من رقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه، والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً.. ثم حملته إلى كئاسها^(١) في شعاب الأولب، وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى، وهب مذعوراً، ثم غرق في شيء كالحلم، لما رأى العماد من ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحب، والندامى والطرب، وكل راقصة كانخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتحتال، وتأود كالسيف..

(١) الكئاس بالكسر بيت الظبي.

وأورورا مع هذا وذاك تدلّ وتبرّج، وتنفوح وتثأرج، كأنها ربيع بأكله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة.

- أين أنت إذن؟ سيفال! أين أنت؟
- أين أنا؟
- ألا تعرف؟ هذه غرفات الأولمب؟
- الأولمب؟!
- أجل.. أولمب أربابك.
- محال؟ لن يكون الأولمب هكذا!
- ولمه؟
- لأنه الأولمب مأوى الصالحين! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى؟ ما هذا؟ أحمر ورقص وطرب.. وفسق في الأولمب؟ لا.. ليس هذا الأولمب. لن يكون الأولمب هكذا!
- بل هو الأولمب يا سيفال؟ وليس ما ترى هنا إلا قليلا مما هناك! هل ترى فينوس؟ ألم تصل لها؟ انظر من هذه الكوة فهي تطل على حديقته!
- وأنا ما شأني؟ أريد أن أذهب.
- تذهب؟ تذهب إلى أين يا سيفال؟ لن تبرح عاكفا على اللهو الذي ترى!
- لا، لن يقوى الأولمب كله على قهري!
- ها ها.. مضحك. أنت مضحك يا سيفال؟ كل الأولمب؟

- أوكد لك!
- ولمه؟
- لأنني أحب زوجتي وأقدّسها.. إنها جميلة جداً.
- أجمل من أورورا؟! أليس كذلك؟
- أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص!
- أنت عنيد يا سيفال؟ إنك تزدريني!
- بل أنا ألتصّر للفضيلة التي كان ينبغي أن تنزل علينا من الأولب! من جاء بي هنا؟ أنا..
- لماذا؟
- أنت تعرف!
- لا أعرف شيئاً.. والذي أعرفه لا يليق بشرف ربة! أرجو أن تطلقني سراحى!..
- إذن أنت تفضّل عليّ زوجتك! أهى أجمل مني؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال؟
- أنا أفضل زوجتي لأنها لم تلوّث.. وما زلت أقول إنها أجمل منك لأنني أنظر إليها بعيني لا بعينيك!
- زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية؟
- أجمل من ربات الأولب جميعاً، ألا من تجلن بمثل روحها، ولست منهن.

- أيها التعس!
- ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس!
- بروكريس! ها؟ عرفتها، إحدى وصفات دينا، حقيرة مثلك،
- اغرب من وجهي أيها القذر.. اذهب! اذهب إلى زوجتك
- بروكريس التي تفضلها على أورورا، ستتمنى يوماً أنك لم
- تعرفها، وأنها لم تكن زوجتك، اذهب، اذهب".
- وبلغ بيته وهو يلهث من التعب، ويرتجف مما ألمَّ به، فلقيته زوجته
- الجميلة الحسنة بابتسامة شفت صدره وقبلت ذات حمياً أذهبت بعض
- ما وجد.. إلا أنه كان ينتفض أنة بعد أنة، ويعود فيبتسم، ثم
- تغورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته، حتى هجس
- وسواس في قلب بروكريس فقالت له:
- ماذا يا سيفال؟ أتخفي عني ذات صدرك؟
- كلا، ولكنها أورورا...
- ماذا..؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر؟
- كانت تحاول أن تسحرني عنك.. أو.. تشركني فيك على
- الأقل؟!
- ..؟...
- ولكنها فشلت.. لقد أذلت كبرياءها.
- وهل استطعت؟ إنها جميلة وصناع، ولها في الغزل الصارخ
- أساليب خارقة يا سيفال...

- لقد قهرتها وأساليها.. إن قطرة من معين أخلاص، تطفئ
لظى جحيم يا بروكريس!
- لا ريب يا حبيبي.. أنا أمرح فقط... سيفال، عندي لك
مفاجأة طيبة.
- مفاجأة! أية مفاجأة يا بروكريس؟
- تعال.. افتح هذه الغرفة.
- أوه! ما هذا.. كلب عظيم، من أين يا بروكريس؟
إنه سينفني كثيراً في صيدي.
- ومفاجأة أخرى أعظم! انظر في ركن الغرفة!
- هه! حربة! لم أرقط مثل هذه الحربة! إنها ليست من صنع
بشر! آه إنها من صنع فولكان لاشك..! البشر لا يجيدون أن
يصنعوا مثل هذه!
- أحرز إذن ممن الهديتان؟
- من الملك!
- وأنى لي أن يهدي الملك إليّ؟
- من إذن؟
- أحرز!
- لا أدري!
- إنهما من ديانا يا سيفال! أهديهما إليّ هذا الصباح!
- من ديانا؟ آه! لقد ذكرت ذلك أوروورا..
- ماذا ذكرت لك أوروورا؟

- إنك كنت إحدى وصيفاتها!
- وأي ضير عليّ أو عليك في هذا؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو؟ لقد كانت ولا تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر!
- لا ضير، لا ضير يا بروكريس.
- أني أهب لك ما أهدت ديانا إلي!..
- أشكرك!
- الكلب لا تسبقه الريح، والحرية لا تخطئ الغرض.

* * *

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته محملاً بأنواع الصيد، وأحب كلبه وحرته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس. واشتهر أمر الكلب في الإقليم كله وذاع صيته، حتى لقد أخطأ بعض أفراد الشعب في حق بعض الآلهة، فسلط عليهم ثعلباً سلقاً^(١) لم يستطيعوا مكافحته، ولم تقو كلابهم له على طراد، فاجتاح ماشيتهم، وأتى على دجاجهم وعاث في حقولهم، ونفش في زروعهم، ولم يدروا كيف يكون خلاصهم منه، حتى سمعوا بـ كلب سيفال فرجوه فيه، كيما يطلقه في أثر الثعلب فيريحهم من شره.. وانطلق ليلا ب - وهذا هو اسم الكلب - وراء الثعلب، كما يمرق السهم عن القوس، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء،

(١) السلق، الديب واستعمل هنا صفة لتوحش الثعلب.

وما انفك يحاوره ويداوره، وينبح به فيزلزله، حتى هم أن يفتك به ويمزقه إرباً.. ولكن حدث أن كانت الآلهة نتطلع من قلال الأولب، لتفرج بهذا الطراد، وتشرح صدورها بمرآه، فالتفت بعضها إلى بعض، وعز عليها أن يقتل كلب إلهي ثعلباً إلهياً أمام الملاء من الناس، ففضوا لتوهم أن ينقلب الاثنان فيكونان تمثالين من المرمر الناصع، فهما كذلك إلى اليوم!!

وأسف سيفال على كلبه، وانقلب على عقبيه غضبان أسفاً.. ولم يزل في كل يوم، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة، يتوجه إليه، ويقف قليلاً عنده، حاناً إلى ذكراه، أناً على ما حل به، ثم ينطلق بعد، وفي يده رمح ديانا، فيصيد الظباء بدون ليلاب.

وانطلق مرة في أثر ظبي فأنهك قواه، ونال منه الإعياء، وانسحب على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة، ثم راح يتخلج^(١) من شدة التعب، وكان الوقت ظهراً، وكان القيظ قد أبح الدنيا حوله، فتنفص^(٢) العرق من جسمه المنهوك، وتراخت عضلاته، ووهنت روحه، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا:

أين أنت يا نسمة؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يا منعشة الروح المتعبة، أين أنت؟
هلمي يا نسمة، هلمي إلى سيفال،

(١) يشكو من التعب ويضطرب.

(٢) جرى وتصيب.

فهو مشوق إليك، يرجو لو تنفسين عنه،
هلمي يا نسمة ففرجي عن سيفال المضي،
وهي على رأسه الملتهب، وصدره المكروب،
لقد كنت يا نسمة، يا أحلى قبل الحياة
تداعبين جبيني، وتنعشين نفسي،
فماذا حال بينك وبينني، يا نسمة الربيع،
وساقية الحب، ورسولة بين المحبين..

وكانت أورورا ما تفتأ تتبع سيفال في كل فج، وترقبه في كل
حنية، وكانت تقف في صورة بلبل فوق رأسه، مختبئة في أفنان
الدوحة التي نام في ظلها، فلما سمعته يتغنى غناءه، ضحكت
واستبشرت، وانتزعتها فرصة نادرة للإيقاع بينه وبين زوجته،
وانطلقت من فورها إلى بروكريس، حيث تكشفت لها في صورة
أحدى صويحاتها:

- بروكريس!
- مرحبا بأعز الحبيبات، ماذا جاء بك في هذا القبط؟
- نبأ أسود ما كنت أؤثر أن أحضر إليك به!
- نبأ أسود؟ يا للهول! ماذا؟
- أرجو ألا أثير سخطك عليّ..
- كلا.. كلا.. عجلي أرجوك!
- سيفال!
- ماله؟

- أتذكرين يوم رويت لي ما كان من أمره مع أورورا؟
- لم أنس! ولكن مال سيفال؟
- يبدو لي أنني لم أكن مصيبة في تبرئته! لقد نفيت شكوكك
- فيما ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر، وقلاه لك لما
- عرف أنك كنت وصيفة ديانا!
- وماذا حدث بربك؟
- إنه يحب فتاة أخرى اسمها نسمة! إنه مولع بها أشد الولوع!
- لا أصدق!
- لا تصدقين؟ وهل أنا كاذبة؟
- وكيف عرفت؟ هل أوحى إليك؟
- بل سمعته يهتف باسمها، ويشدو بحبها، ويتغنى أحر الغناء!
- لا أصدق. لا أصدق، سيفال لا يجب واحدة سواي!
- هل لك في أن تسمعي غناؤه بأذنيك يا صديقتي!
- وأين هو؟
- قريب من الدغل^(١) الذي عند النبع.. سأحضر لك حصانا
- صافنا،
- وغابت أورورا، ولم تثلبث طويلا، بل عادت بعد هنية ومعها
- حصانان مطهمان، ركبتهما وأسرعنا إلى الدغل...

(١) الشجر الكثيف الملتف.

وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة، وكان وجهها قد شحب وامتنع حتى صار كالليمونة.

وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول: "نسمة؟ ترى ما نسمة هذه؟ عروس من عرائس البحر؟ أم غادة من غيد السوق؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولب؟ أهى جميلة؟ أهى أجمل مني؟ ألها عينان كعيني؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحي؟ أهكذا يا سيفال؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لي أمر أورورا معك، فلم تعد الشكوك لتفترسني؟ يا ترى؟ أأست تعود إلى أصيل هذا اليوم مثقلا بصيدك كسابق دأبك؟ حنانيك يا آلهة السماء" وكانت زفرتها لا تخفى على أورورا، فكانت هذه تواسيها.

واقتربتا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغني.. وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاخترت في الحشائش الطويلة القريبة من سيفال، بعد أن تركت جوادها بعيداً عن المكان.. وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها، فسمعت زوجها لا يزال يتغنى باسم نسمة ويقول:

يا نسمة، إلام أهتف بك يا نسمة

يا نسمة يا أحب شيء في هذا الحرور

تعالى قبلي خدي ووجنتي وجيبي!

كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء

فاعبثها رخية ندية، عليلة بليلة

تنعش فؤادي وتثلج برفيفها صدري

وكان ما خافت بروكريس أن يكون! فيها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه، وها هو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رحية ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد. فماذا بعد هذا؟ وأي برهان وقد سمعت الأذنان: "إذن، لقد كذب عليّ في الأولى، ولن يكذب عليّ في الثانية.. إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا، ولا يزال فؤاده يصبو إلى الغائيات من كل جنس وفي كل فج. آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء، ويلى عليك يا سفال، ويلى عليك وألف ويل!

وعاثت الوسوس في صدرها، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزینتين، فأرسلت آهة عميقة قطعت بها علي سيفال غناءه، فهب الفتى مذهولاً مروعاً، وحسب أن وحشاً يتربص به في الحشيش، فجمع قوته، وتناول حربته - حربة ديانا التي لا تخطئ - وأطلقها إلى المكان الذي صدرت منه المهمة، وذهبت الحربة لتستقر في صدر بروكريس!.. وا أسفاه!

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد، فماذا رأى.

- بروكريس؟ يا للهول؟ أهو أنت؟

- ...؟...

وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتى؟

- لا.. شيء.. فقط.. لا تتزوج.. نسمة.. من بعدى!

- نسمة؟ أوه! إنها.. لا شيء.. لقد كان الجو متأججاً من الحر

يا حبيبتى.. وكنت أتمنى أن تهب عليّ نسمة من الريح تروح علي!

- أحمق... هذا؟...
- هذا هو الحق وحبك يا بروكريس!
- إذن.. سلام... عليك!
- بروكريس! بروكريس! لا.. لا تغمضي عينيك دوني؟ افتحيهما لسيفال!

ولكنها ماتت، وماتت بيد زوجها وحييها الأمين الوفي!
وأرسل الفتى أنينه في الآفاق، ورفع وجهه ليقبله في السماء
بالشكوى، ولكنه رأى أورورا واقفة تبسم وتضحك.. فجن جنونه،
وانطلق هائماً على وجهه، لا يلوي على شيء، ولا ترقأ له دموع...
حتى مات!!

* * *

أجنحة ديدالوس

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن وكثرة الفنانين، ومن هو أمر من ديدالوس العظيم في نحت الدمي وصناعة التماثيل وهندسة المباني الضخمة. ولقد كان يتنقل بين المعاهد اليونانية، وخاصة بين كريت وقبرص وأثينا، لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها، ليقوم على بنياتهم، وليتعهد تماثيلهم، وليشرف بنفسه على هياكلهم، ليقال في مواضع الفخر، إن هذا التمثال، أو تلك الدمية، أو هذه الزخرفة من عمل ديدالوس.

واستفاضت شهرته، وذاع صيته، وملاً الخافقين اسمه، ولا سيما إذ شاد اللايرنث (التيه) لمينوس ملك كريت، واللايرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة، إن لم يكن أجلها جميعاً. ذلك أنه كان لمينوس وحش هائل مخرب يسمى (المينوتور) نصفه الأسفل نصف عجل جسد، ونصفه الأعلى نصف رجل له أنياب الأسد، وغدرة الذئب وقوة التنين العظيم..

وكان لا ينفك يقتل كل من اقترب منه، ولو كان من (١) خاصة الملك. فلها استطار شره، وعظمت بليته، دعا مينوس الملك، ديدالوس المهندس، ليشيد هذا البناء الرائع. ذا المنعرجات والحنيات، والشعاب المتداخلة، التي لا يستطيع أحد أن يفلت منها، إذا انفتل فيها.

(١) أول محاولة للطيران عرفها التاريخ.

وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة محيطها هذه الشعاب والمنعرجات، وفي وسطها فضاء فسيح يربض فيه المينوتور أو يركض.

ولندع الآن ذاك المينوتور الرهيب جائئاً في اللابيرنث، لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك.

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية، وما أوتي من حذق ونبوغ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي كساها إلهامه ظلالاً كظلال السحر، وموهها بأمواء القداسة والخلود، حتى كبر الفتى بردكس، ابن أخي ديدالوس، وكان شاباً ممتلئ الجسم، مفتول العضل، قوي الملاحظة، دقيق الفهم، سريع التصور، ما كاد يتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه بل هو قد فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والمثالة، ولأهم بين روحها جميعاً، فكان يبرز تحفه في مظهر دقيق وطرز أنيق، ثم هو يضيف عليها من شبابه الغض، وروحه العطرية الشاعرة، ظلال الحب، وسمات الفتنة، ويحرك فيها عواطف الآلهة!

ولهج الأثينيون باسم هذا الفنان الشاب، وتناسوا عمه الذي هو أستاذه وملهمه. وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعاً، وساء أن تكسف شمسه الوضاعة المتلائة، نجمة الذي لبث زماناً يسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس.

وما فتئ العم يحنق ويحنق، وما فتئ بردكس يسمو بفنه إلى الذروة، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان، ونفتت فيه سمها، فلم يعد يطيق هذا الخصم الذي صنعه لنفسه بيديه، ولم يعد يحتمل أن يرى نفسه هملاً بجانب الفتى العبقري، فأقسم ليزيحه عن طريقه، ولو بتجريعه كأس المنون.

وزين له أن يحتال عليه، فيذهب وإياه إلى شعاب جبل شاهق، ذي مهاوٍ تنتهي إلى اللج الجياش في اليم، حتى إذا كانا فوق القمة المشرفة على البحر المصطخب، نهز منه غرة ودفع به إلى الأعماق، حيث ينشق له قبر من الموت.. والنسيان!

وأنفذها ديدالوس المسكين!
ولكن الآلهة كلها كانت تنتظر، وتستعد للمعجزة!
وكيف؟!

لقد استجمع الشيخ كل قوته، ووضع في يديه كل منته، ودفع بابن أخيه من فوق القمة، فتردى الفتى على حدود الجبل، حتى إذا كان من الموت قاب قوسين، هبطت منيرفا^(١) سيدة الأولب، وصاحبة أثينا، من عليائها، فأنقذت بردكس من قتلة محققة، ثم نفتت في أذنه نفتتين، كان بهما فرحاً حزيناً من أفراخ القطا، راح يرف في السماء مدوماً فوق عمه، حتى كاد يصعقه من حيرة وعجب!!

(١) منيرفا هي باللا آثينا، وقد خلقت شجرة الزيتون فملأت الأرض الصورة، طلق المحيا، مشرق الغرة، سماه إيكاروس بركة وكان بردكس يصنع لها تماثيل رائعة، وهي هنا تنقذه لترد له قليلاً من جميله.

وانقلب ديدالوس إلى بيته أسوأ، ووقر في نفسه أن الآلهة التي سحرت بردكس لتنقذه من تديره السيء، لا بد أنها تترصده، ولا بد أنها ستأخذه بأوزاره في القريب، غير متجنية ولا ظالمة..

ثم مضت سنون، وولد لديدالوس طفل جميل، ولكن الطفل لم يستطع أن يخفف من الروح الذي كان ينتاب أباه، أو يذهب بسورة الهم التي كانت تجثم على قلبه، وثقل على نفسه كلها تصور الهامة الفرعة التي يضطرب بها نومه، فتقضى مضجعه وتزلزل مكانه.

لقد كانت القطاة تمثل له كلها أغمض طرفه، كأنها روح ميت ترتق على خصمها تكاد تصعقه. وازداد الشيخ خبالاً حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن بردكس أين قضى وأيان ولّى! وأخذ الغوغاء يلغظون، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار الفنان، ودأبوا على عمه يسألونه عنه، وهو يضلّهم ويخترع لهم، حتى أوجس أن ينكشف سره، فينكل الناس به. فأثر الهجرة عن أثينا المحبوبة، إلى صديقه مينوس ملك كريت، مصطحباً معه ابنه الطفل إيكاروس.

وتطامن الدهر، وشب إيكاروس وترعرع، وأخذ من والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل، وحسب ديدالوس أن الزمان قد غفل عنه، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت، وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير في تضاعيفها القائمة المظلمة، فاستيقظ الغرور في قلب الفنان الشيخ ولم يتقبل ما غمره به مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجئ طريد مثله، بل بطر واستكبر، وكفر بأنعم مولاه، ومد له هواه فولغ في إناء الملك، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً أدى إلى كثير من القيل والقال.

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه، واعتقله في إحدى غرف القصر حتى يقضي في شأنه، فألقى به في حجرة منفردة في طرف القصر، مشرفة على الماء، متصلة بالسماء.

وطالت عزلة الفنان الشيخ في معتقله هذا، وضاق ابنه بالحيز الضيق الذي يكاد يحبس أنفاس روحه، ويحسر مرامي مقتلته، ويشيع الهم في حنايا ضلوعه، فقال لوالده وهو يحاوره: "أهكذا قضي علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه!" وكانت كلمات إيكاروس المبللة بالدموع تذهب كالصدى في آذان الشيخ، وكان الغلام يجذب اللفظة المفردة من فم أبيه، فما يكاد يفوز إلا بلا... أو بنعم...

وكانت للغرفة التي اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر الأبيض المتوسط، وكان منظر السفائن الماخرة في البحر كالأعلام، والطيور صافات من فوقها كأنها تسبح في لج من زرقة السماء، يثير في نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات. وإنه لفي أصيل جميل ينجي الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة إذ به يذهب إلى والده مستبشراً متبلاً، ويقول: "أبي! أعجزنا عن أن نصنع لنا أجنحة كهذه الطير، فنفلت بها من هذا المكان الرهيب؟".

وكان الشيخ جالساً في زاوية مظلمة من زوايا الغرفة يجترأ حزنه، ويتغنى آلامه، فلما سمع ما خاطبه ابنه به، افترّفه العجز عن ابتسامة منقبضة مغضنة، وشاعت في أساريه بوراق أمل جديد! وقال لابنه: "أجنحة؟ وأنى لنا بالريش يا إيكاروس؟".

فقال الولد: "لا عليك يا أبي، إن غرفة الدجاج قريبة من هنا!".

و عبس الفنان الشيخ، و قال: "والحارس اللفظ؟.." فتضاحك إيكاروس قائلا: "الحارس!؟ أمره أهون مما ترى... سنرشوه يا أبتاه، فيحضر لنا ما نشاء من الريش، وسنخدعه أننا صانعان له لباسًا لا تحلم الملوك بمثله!".

ولكن العبوسة التي رقت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع مخالبها، وقال: "دعني أفكر يا بني، دعني أفكر يا إيكاروس...". وهكذا كانت العبقرية المبكر، الكامنة في هذا الفتى الصغير، لقاحًا بعيد الأثر في عبقرية الشيخ الفاني المتهدم، وهكذا بدأ الفنان الأكبر، باني اللايرنث، ومشيد هياكل الآلهة، يفكر في هذا المقترح الشارد الذي اقترحه عليه الفنان الصغير!

"أجنحة... دجاج... ريش... الحارس اللفظ... مينوس... بردكس... فرخ القطا... الطير... إيكاروس ابني...!" وهكذا انبطح الشيخ على حصيرة نبتداعى هذه الخلاجات في رأسه الساخن المتأجج تذكى به الذكريات والمآسي!

واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والإوز والديكة، وفكر الشيخ كيف يثبت الريش في مكانه من عضد الجناح، فادخر الشموع التي كانت تترك له يضيئها في الليل، ليتضاعف بنهبه الخافت حزنه، حتى إذا كان لديه قدر كبير منها، عمد إليها فصهرها وثبت بها ما شاء من الريش، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة، يكفي أحدهما لحمل فيل! وجلس يحض ابنه النصيح ويقول:

"أي بني! أي إيكاروس العزيز! سنطير من هنا يا ولدي! إلى أين؟
لست أدري! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال! وهأنذا
قد صنعت الأجنحة التي تخيلها أملك الصغير هو أكبر من جميع
أمالي! ولقد رأيت إلى كيف كنت أذيب الشمع قريباً من الناري
ولدي، فأوصيك إذا طرنا ألا تترك سمتي، وأن تكون دائماً قريباً
مني، فأني أخشى إذا علمت علواً شاهقاً أن تصهر الشمس شمع
جناحيك، فتهوي في البحر، وتتردى في أعماق الموت!
وكما أخشى عليك من العلو الشاهق، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من
الماء فإنه أن وصل إلى الشمع أيبسه، ولم يعد يصلح لمهمة الطيران،
إذ يساقط قطعة فقطعة، ويدناثر الريش، وتسقط، إما في البحر
فتغرق، وإما في الأرض فيندق عنقك. فلا تنس يا بني أن تبغني
أبداً، واحذر أن تعلو فتدنو من الشمس، أو أن تسفل فيصبك رذاذ
الماء ورشاشه. إليّ يا ولدي أثبت لك جناحيك، ولنمض على بركة
ز.. ز.. زيوس!!".

وتلجج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الإله الأكبر، لأنه يثق أنه لا
تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو محيط بعباده، لا
ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين!

وانطلقا من الشرفة، وألقيا على القصر، وما أحاط به من حرس
وعسس، نظرات كلها نقمة وتغيظ..

و مرا به شطوط كثيرة و مروج كبيرة، و كان الصيادون و الزراع و البحارون و أهل القرى كلها رأوا هذين الطائرين الكبيرين، ذوي الهيئة الآدمية، خروا للأذقان سجداً، يحسبون أنهما إلهان من آلهة السماء، هبطا يباركان الناس و الخلق، فيهللون و يكبرون!!
فهذا شيخ يطلب إليهما أن يباركا في عقبه ويمدنا في أجله، وهذه شمطاء تدعو أن يردا عليها جمالها الضائع و شبابها الذاهب، و تيك رؤوم تناجي ابنها في قبره، فتطلب إليهما أن ينقضاها من الثرى، وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمدنا عليهم فيخلصاهم من الفقر و المترية...

وشاع الزهو في أعطاف إيكاروس، فكان يرتفع قليلا، أو يهبط قليلا عن سمت أبيه، ثم تشجع و تشجع، و بهرته زرقة السماء وأديمها الصافي، فجازف و ارتفع ارتفاعاً شاهقاً، و ذسي و صية أبيه، فعلا و ذهب في السماء صعداً، و كان يغريه أن يصغر العالم الأرضي في عينيه، فيعلو و يعلو.

ووا أسفاه!! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس! فلقد صهرت الشمس شمع الجناحين، و هوى إيكاروس إلى الأعماق! ولما دنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت في أذن أبيه، فتلقت الشيخ ليرى ولده يغوص في اليم، و يبتلعه مرة و يلفظه أخرى!
فأسرع الوالد المسكين إلى البحر، و انتشل ولده من الماء جثة هامدة، و كان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه، فعالج الموج معالجة شديدة و سبح بقلدة كبده إلى جزيرة قريبة، بلغها بعد جهد و عناء!

وجلس يبكي ولده.. وبرزت عرائس الماء من اليم يواسينه!
ثم شق له قبراً صغيراً في رمل الشاطئ، وما كاد يستره فيه، حتى
رأى قطاة خزينة تدوم في السماء، ثم تهبط قليلاً قليلاً، حتى تكون
بمقربة من القبر، فتقف كاسفة مشجونة وتنظر إلى الجثة والدموع
تنهمل من عينيها.. عبرة، فعبرة...

ويفرغ الشيخ من مواراة ولده في التراب! وينتبه! فيرى القطاة!
فيذبح ذبيحاً مؤلماً: "بردكس!! أتيت تبكي إيكاروس!! ساحني يا
بردكس!"

فتزقو القطاة كأنها تنحب! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه،
فتدرف عبرتين غاليتين، وترف في الهواء حتى تغيب عن عيني
ديدالوس!

* * *

بومونا

عروس من عرائس الغاب يتفرق الجمال في إهابها الوردي، وتلتمع في فهمها الرقيق الخجري ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبتسم.. فتثور من عينيها وشفيتها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقا!

هي بدع من عرائس الغاب، فهي لا تغشى الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها، وهي لا تحب البحر لا هادئا ولا متمرداً، وهي تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعي والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدهما الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظلمة التي جعلت الضعيف فريسة للقوي يذله ويقتله.. ثم يأكله.

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسري فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسي بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقى العاسيب.. وأولعت كذلك بالحدائق.. وقد غرست حديقتها على عدوة النهر، وسوجتها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين.. وكانت في جنيتها أكثر وقتها، ولو استطاعت لم تبرحها قط؛ لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل، وأكام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاحي، ولآلى الندى المبعثرة فوق العشب..

كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلي، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا ينتظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفق الأحشاء، موهون القوى!

وكأين من قائل للآخر:

- أرايت بومونا هذا المساء يا صاح؟
- الحسان المفتان! أجل والله.. رأيتها، وأورثتني ألف حسرة يا

صديقي!

- أو مشغوف أنت بها حباً؟
- ومن ذا الذي لم تشغفه بومونا حباً، وقد تبلت قلوب الآلهة؟
- إني أغار من كلماتك أيها الصديق... فأقصر!
- وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك!!
- ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشر الذي ينقدح من أغوار قلبه..
- عن طريق عينيه.. ثم يأخذ كل في سبيله. وهكذا تعادى الناس في بومونا، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة، فلقد رآها أبولو وجن بها جنونا، ولقيها مارس وفتن بها فتونا.. ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لا يفتح قلبها لحب، ولا يرق لشكاة المغرم الصب، وكل ما كان يصيبها ويشغل بالها، هو هذا الفردوس، الحبيب، الذي لا يضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة، بل يحийها دائماً بالا بتسامات البريئة، وبالروح والشذى.

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان لا يعدل حبه لها حب، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان.. فتى لمحها مرة تطوي الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجد نفسه منجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه في مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما ختم الطبيعة في صك البكور، أو زهرتان من اللوتس، ترشfan صلافة الندى.. وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتضمرمان في قلب فرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالا عظيماً.

وعرف الفتى ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث يعد الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وبياد.. حتى إذا أقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خف على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسري مع نسيم الصباح الذي تنشقه بومونا.. له الله! لكم منى نفسه بقبلة يطبعها على هذا الفم الشتيت تذهب حر قلبه وتشفي صدى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سائلة لبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوي لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة في أثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحاً!

* * *

وذوي فرتمنوس وذبل شبابه، وشفه الهم، وأضوى جسمه الفكر،
واستسلم لبكاء طويل يتعلل به، وغناء يشبه العويل، يرسله في نبرات
تشبه الأنين، يضمه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيه بقايا فؤاده
المعذب، ويودعه النطف الأخيرة من روحه الحيرانة، ويذهب به
في الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكّر بموجع أنغامه الهوام،
ويرقص من فوقه الشجر.. ثم يبكي كل هؤلاء له.. ويعود من حيث
أتى!

ولقيته مرة فينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يلقي محب
كل هذا العذاب، في هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامر
وترفّ عنه.

- أهكذا يقتل الناس الحب يا فرتمنوس؟
- أي وحقك يا ربة! لقد نال مني هواها، ولم أعد أفكر في أحد
سواها!
- مسكين! وهل كلمتها قط؟
- مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت
وأعرضت عني.
- وفيم تطمع إذن؟
- أطمع في رضائها، وأطمع بعد ذلك في العيش بحبها..
- وإذا لم ترض؟
- سأعيش لحبها وآلامي! ولكن؟
- ألا تساعديني يا ربة الجمال؟ ألا تفضلين فترقتي قلبها عليّ؟

- عندي فكرة!
- أضرع إليك يا ربة!
- سأمنحك قدرة التشكل، فتستطيع أن تبدو في أي صورة شئت.
- وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن، وتمتعت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى في ظرف ودل، ونثرت الماء في وجهه.
- والآن فكر في أي صورة تنقلب إليها.
- وأخذ فرتمنوس يتقلب في صور شتى.. وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت فينوس وقالت له:
...فكر أيضا في صورتك الأصلية قليلا...
- وسرعان ما عاد إليها... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:
- تستطيع الآن أن تلقى بومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك!
- ورفت فينوس فكانت في سماء الأولمب!

* * *

واستطاع فرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أي لحظة شاء، وكان يدخلها في صورة بلبل غرد، فلا يزال يغني ويهتف حتى يلفت إليه أنظار بومونا وأسماعها، وكان يتبعها أينما ذهبت، فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغاني الحب وأغاريد الغرام،

فتنسكب في أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ في عملها كأنها لم تسمع شيئاً.. فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسفاً... واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفنى فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض، وأحس هو أن ريب المنون يسري في عظامه، ويرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه، ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته في صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة البلبلية التي اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة - إذا لم يفز بحبيبته بومونا - على أن ينتحر تحت قدميها في صورة البلبل الحزين!

رأى أن يزورها في صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟ أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع، ويتشفق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة، وبأسلوب ظريف يشبه (تمثيل) الخمر في أطراف السكارى؟!

وقف فرتمنوس في ظل أيكّة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة بومونا، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب، سمحة الملامح، وراح يتخيل شعرها الأشمط^(١) وذوائبها الخلس^(٢) وغدائرها الزعر^(٣)،

(١) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه.

(٢) بمعنى أشمط واحدها خلساء وخليس.

(٣) جمع زعراء أي قليلة الشعر جداً.

ويديها عاريتي الأشاجع^(١)، وعينها الغائرتين، وجبينها المجعد، ووجهها المعروف^(٢)... فكان له كل ذلك، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر، في سكينة ودعة وحسن سميت.. وأضفى عليه حبرة سوداء فضفاضة، وجعل في قدميه خفين هرمين، وفي يده عكازاً مقوساً أشبه بصولجان الموت!

ثم جعل يدب في هيئته تلك، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقة، وكانت بومونا تقطف الزهور وتصنع منها باقات تقدمها لصويجباتها عرائس الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع.. فلما لمحت العجوز تهالك على نفسها بباب حديقته، أسرعت إليها وحيثما أحسن تحية والطفها، ثم فتحت لها وأدخلتها، وكانت الخديثة - أو كان الخبيث - تبالغ في إظهار الضعف وتعمل الإعياء، فكانت بومونا تسندها من هنا، وتشد أزرها من هناك.. حتى وصلت آخر الأمر إلى ظلمة وارفة ذات أفياء، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج، يغازل العيون والأحشاء، وأشارت للعجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صفت عليها الوسائد والحسبانات^(٣) ففعلت، ولكن..؟ بعد أن أخذت بفودي بومونا.. وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة.. قبلة الأمالي والأحلام!!

(١) بدت عروقها.

(٢) قليل اللحم.

(٣) المساند.

لقد شدهت بومونا من أسر هذه القبلة؛ لأنها لم تكن من تلك القبل
الفاطرة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كرمهرير الشتاء، بل
كانت قبلة ناعمة فيها نحر ولها حمياً، وفيها شعر وموسيقى، وفيما روح
وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلقي
في صدر الفتاة بكل أسرارها!!
ولولا أنها كانت عجوز حيزونا لعشقتها بومونا..

* * *

ووثبت الفتاة فقطفت عزقا^(١) من العنب وقدمته للضيافة العجوز..
ولكنها بدلا من أن تجدها تهش للشمر الجني الشهي، وجدتها غائبة
عن رشدها... أو... كالمغشي عليها! ترى ماذا أصاب أخانا فرتمنوس
المختبئ في جلد هذه العجوز؟! آه! مسكين! إنه لم يكد يفيق من سحر
القبلة، حتى رفع بصره إلى بومونا، فشهد العجب العاجب، والجمال
النادر، والحسن الباهر، والرونق والرواء!! لقد شهد الساقين الجميلتين
والقدمين الصغيرتين! وشهد الركبتين الملتفتين... وقليلًا من الفخذين
الجميلتين.. فاستطير لبه، وصبا قلبه، وشردت أفكاره، وغشي عليه؟!
ولما أفاق - أو أفاقت العجوز - سألتها ماذا أصابها، فشكت وطأة
السنين وضعف البدن وتهافت أعضائها من الكبر، ثم شكرت لها
عزق العنب، وأخذت في أكل حباته، وهي تخالس العروس
النظرات...

(١) عنقود.

ثم نظرت إلى الكرم العارש فوقهما، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية، ثم قالت تحدث الفتاة:

- أرايت يا حبيبي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش، هل كان يؤتي أكله، ويحلو عنبه، كما هو حلو هكذا؟

- كلا يا أماه! هذا شيء بدهي!

- تعنين أن الكرم لا يتسغني عن هذا العريش؟!

- طبعاً!

- ولا غناء للعريش من غير كرم!

- ولا يكون منظره جميلاً رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم!

- عجباً لكنّ والله يا عذارى!! تعرفن ذلك، ولا تفكرن في عطلكن!!

- أو عاطل أنا يا أماه؟ ماذا تقولين!

- عفواً يا ابنتي.. فإن لك ألف حلية من جمالك الذي لا جمال

مثله.. إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً في أن يكون لكن

أزواج كما لهذا الكرم عريش.. ولا سيما أنت يا صغيرتي

بومونا.. إني أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك،

وكل أمراء النواحي مقيمون في هواك. وأنا أعرف أيضاً أن

منهم من يتعذب بالليل، ويذل بالنهار، لأنك ترفضين أن

تمنحيه نظرة حين يلقاك في الطريق، وقد وقف لهذا اللقاء

ساعات وساعات،

بل أعلم يا أجمل عرائس الغاب أنك قد بززت هيلين الهيفاء،
وبللوب اللعوب في كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك،
وتخبت قلوبهم لحسنك، وتصدع صدورهم من هول ما
تهجرين وتصددين. ماذا؟ لم يا بنيقي لا تختارين لنفسك من
بينهم كفتاً يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه، ويدشرك هذه
الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويدسم لك وتبسمين، ويواسيك
وتواسين؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها في منفى،
ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود
والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذي اسمه.. اسمه.. اسمه
ماذا؟ آه! فرتمنوس! ذكرت أنني سمعت أنه يحبك حباً أورثه
السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة
تترقق دموعاً في عيذه، وذئاج نيراناً في صدره.. لم لا
ترحمينه يا بومونا؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب؟ إنه
ليس إلهاً ولا نصف إله، ولكنه خالق بحبك، جدير بأن
تكوني له من دون العالمين؛ لأنه مغرم بك أكثر من كل
عشاقك، وهو ليس بجميع العشاق، لأنه لم يحبك إلا عن
بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مهاليك
لا أبواب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى في
صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتجذب
شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن
تتصرع تحت قدميها..

أما فرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء في هواك، لأنه لا يرى لك في قلبه شريكة تسمو إلى أحمصيك.. ارحميه يا بومونا، اعطني عليه، وانظري كأنه يتوسل إليه بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!).. ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك؟ ألا تعلمين أنها نثار للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب؟ ألم تعرفي ما صنعت بالقاسية أنا جزرتيه؟

- ومن أنا جزرتيه يا أماه؟ وما قصتها؟
- ألا تعرفينها؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس؟
- وما مأساة إيفيس؟ قصيها عليّ بالله عليك!

"لقد كان إيفيس فتى جميل الحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب، وكانت أنا جزرتيه من بنات الأعيان والعلية الموسرين.. وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سيحة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون. وكان كلما لقيها غشيها من الغرام ما لو حملة جبل لناء به، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزور، وتطوي الطريق عجلانة إلى قصرها الباذخ المنيف ذي الشرفات.. وكان الفتى يتبعها بقلب وامتق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدي ثم توصله من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجد اللهمان من خلل القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثني إلى داره، وليس في قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا في عيذه الباكتين إلا صورتها! وطالما كان يهب من نومه في جنح الليل فيطوي الطريق مفزعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها،

وبكى ما شاءت له الآلهة، وتغنى آلامه وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته.. وكم ذا رأته أنا جزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة، أو غمرة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة، بل زادها قسوة وعناداً.. ولما جد به الجدد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها في ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر، فهتفت بها وقال:

"أيها القاسية أنا جزرتيه اسمعي! لقد قهرت قلبي وغزت نفسي وتم لك النصر! فهنئنا لك! تغني أناشيد الفرح واللذة العارمة لأنك قتلت إيفيس! اعقدي فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذلت قلبه العزيز، ومرغت في التراب روحه العالية.. ولكن أصغي إليّ يا متحجرة القلب.. لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكني آثرت أن أشربها أما مك إن لم يكن بين يديك، لتتلذذ عينك بهذا المنظر المجمع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك عليّ.. بيد أنني أهتف بك يا آلهة السموات أن ثأري لي، وأن تجعل لي ذكراً في قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس في طويل العصور والآباد..

"وكانت السماء كلها تصغي لما يقول إيفيس فلبت واستجابت.. وكان قد ربط حبل مشنقته في قضبان البوابة، وجعل؟ أنشطتها في عنقه، فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه.. وقبضت روحه!

ولم تتحرك أنا جزرتيه مع ذاك، بل أرسلت خدما الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم ييكون ويضجون.. وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجثمان في أران^(١) إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية فصعدت لتنظر إليه، ولكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة في النعش حتى ثلجت عينها، ثم استحالتا إلى رخام بارد.. وروعت لما أصابها، وأرادت أن ترجع قليلا، ولكنها لم تستطع لأن الرخام سرى في قدميها أيضًا.. ثم في ساقها.. ثم في ذراعها.. ثم في جميع جسمها.. أما قلبها، فقد كان رخامًا منذ زمن بعيد.. وكذلك تحولت أنا جزرتيه إلى تمثال لا يزال محفوظًا في متحف فينوس بسلاميس.. عظة وذكرى...".

وكأنما عملت القصة عملها في نفس بومونا.. فاندفعت من عينيها الحزینتین عبرتان حارتان.. ونظرت إلى العجوز.. ولكن.. لقد كان فرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوي يجلس مكانها، ويأخذ برأس الفتاة على صدره.. فقالت له: من أنت أيها الفتى؟
- أنا..

وانفجر في بكاء شديد وقال:

- حبيبك فرتمنوس يا بومونا... فرتمنوس.

فقالت: أهو أنت؟! آه يا ساحر!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد، وأشد أسراً من الخمر..

* * *

خرافة جاسون

غلب بلياس الظالم أخاه أيسون على ملك تساليا، فهام الملك على وجهه في أقصى الأرض، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة السميدية، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون.. وعرجا في تطوافهما بأستاذ أخيل العظيم شيرون، فدفعوا إليه بالطفل يهذه ويؤدبه، وينشئه على الفروسية ومكارم الأخلاق، ورجواه أن يكتم سرهما حتى يشب ويتعرع، ويبلغ أشده، فيثير في صدره الحمية، ويرسله ليثأر لأبويه، وليستخلص العرش من غاصبه. وأخلص شيرون في تربية جاسون الإخلاص كله، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد، وغير جاسون.. ثم مرت الأيام، وشب الفتى على غرار أستاذه، فلم يكن في الدنيا بأسرها أحمل منه لسيف، ولا أرمى لسهم، ولا أرح في تفكير، ولا أوفر في حظ من جمال وكال. ووقفه شيرون على سر أبويه، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده، فثار ثائر الغلام، وزلزل قلبه، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم، فيذرو عظامه في الريح!

ووعظه شيرون، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وإعمال الروية، وحذره أن يعيث فساداً في الأرض، ونصحه أن يكون رحيماً بالضعفاء، وألا يألو جهداً في مساعدة من يطلب منه المساعدة، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً في عداوته لجميع الناس..

وأعطاه الفتى موثقته، ثم اخترط سيفه، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس، حاضرة تساليا.

ولقي في طريقة سيلاً زاخر العباب، فوقف حياله ينظر ويفكر، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها. وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاب الجبل القريب، فيجرف في سبيله الجلاميد والنؤي، وتظل نتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتدسحق وتفتت، فراعته أن ينزلق وسطها ويكون مصيره مصير جلود منها.. وفيما هو يعمل فكره، وفيما هو يلتفت يمنة ويسرة، إذا به يرى عجوزاً تابة^(١) تدب على عكاز غليظ، مقبلة نحوه، مادة ذراعها المعروقة، مستغيثة: "لهفي بني! بني انتظر أرجوك انتظريا ولدي!" من هذه؟ لا يدري جاسون. بيد أن انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل! ووجم جاسون قليلاً، لكنه ذكر وصاة شيوخ أستاذه، فتبسم، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوي المتين، ثم رجاها أن تدفع إليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت، وتقدم بخطى وثيدة، ولكنها أكيدة، إلى مجرى لا يفكر في نؤيه وجلاميده، ولا جديشانه واصطخابه، بل يفكر في أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التي استغاثت به.. وعبر مجرى السيل، وبلغ عدوته الأخرى بعد عناء وجهد، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله.. ولكن..

(١) تابة أي متقدمة في السن.

يا عجباً!! أين هي المرأة العجوز الحيزبون؟ أين الكومة من الجملد المتهافت، والعظام الذخرة، التي كانت ترهق كاهله؟ لقد ذهب ووقف مكانها شباب رائع، وجمال فتان، وغادة حسان مفتان!!

- يا للآلهة! من أنت بحق المساء يا ربة؟

- أنا؟.. ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهر بذيله وألوانه أيها العبد الصالح؟

- أوه؟ أو أنت جونو^(١)؟

وسجد جاسون بين يدي الربّة، سيدة الألب، ثم أذنت له في أن ينهض وأخذت برأسه فباركته، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت، ثم رقت في أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً، وغابت عن بصر جاسون!

ووقف الفتى لحظة مسبوها مشدوها، ثم انطلق في طريقه.. وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلا واحدة في إحداهما.. أما الأخرى، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها، وهو لا يستطيع استعادتها، لأن حمله كان يرهقه!

ثم بلغ يولكوس.

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس، الذي وقف ينخر الذبائح، ويقرب القرابين للآلهة، ويفرق حواياها^(٢) على الفقراء!

(١) عودنا القراء في أساطيرنا أن نسميها باسمها اليوناني (هيرا) وهذا هو

اسمها الروماني.

(٢) حشاياها.

دافع الناس، وشق طريقه إلى حيث وقف الملك، ثم سار إلى عمه قدماً، حتى كان قبالة المذبح.. وما كادت عين صاحب العرش - أو غاصبه - تقع على الفتى الذي يلبس نعلا واحدة حتى شحب لونه، وغاضت الدماء الوردية من خديه، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً.. ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التي تنبأ له بها أحد سحرائه، والتي حذرته من الشاب الذي يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلا ذهبية واحدة في إحدى قدميه، في حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة!! إن هذا الشاب يقتله!!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش، فجيء به إليها، ولم ينتظر حتى يبدأه عمه بالكلام بل وقف أمامه جباراً يغلي الدم في عروقه، وطلب إليه أن يعتزل الملك ويخلع التاج، ويعطي الصولجان صاحبه، وأن يعيد الحق إلى نصابه.. "لأنك أنت هزت ضعف أبي الذي وهنت عظامه، واشتعل رأسه شيباً. فعتوت عليه وألبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند، ورعاع الشحاذين والأفاقين، فلبست تاجاً ليس لك، واستويت على عرش تزعره الجريمة من تحتك، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخدع السماء بالأضحيان والقرابين، ولكنك لا تخدع إلا نفسك، فالتمس لها السلامة من موت ييغتك، ومغبة وبال يحيط بك..".

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه، ومنايا تطير حول قلبه.. بيد أنه استعد لها بالمرء، وتهياً لصدها بانحداء، فتبسم لابن أخيه، وقال: "ماذا تقول يا جاسون؟

أتحسبني يا بني قد سلبت أباك عرشه، وغلبته على صولجانه؟ كلا والله يا بني كلا.. ولكن.. ليسكن طائرک قبل كل شيء.. فلقد دعوت نفراً من (رعاياك!) لوليمة إلهية، وقد أقبلوا من كل فج، وهم ينتظروننا الآن، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم، فهلم نلقهم يا جاسون، وترحب بهم، فإذا فرغنا وفرغوا من طعامهم، عدنا سوية لنبحث هذا الأمر الذي أهمك وأقلقك: وملاً فؤادك بالوساوس والأراجيف، وسترى أن الذي أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك، وشوه حقيقته في نفسك، بدليل هذه الذيران التي تنقذف كلمات من فمك!.. تعال.. مرحباً بابن أخي جاسون؟ لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبي!..

ثم قبله في جبينه قبلة صفراء قاتلة، أفتك من قبل التماسيح، وانطلقا إلى البهو الكبير، حيث صفت الأخوين^(١) الحافلة بأشهى الآكال. وأطيب الأشربات، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً ألوفاً.

وجلس جاسون فأكل وشرب، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة، وتشفي النفوس من كل حرد، واعتلى المنصة التي أقيمت في صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص، شرعوا يسردون قصصهم، ويتناشدون أشعارهم، ويروون من أنباء الأبطال ما يأسر القلوب ويسحر الأبواب.

(١) إخوان لغة في خوان الذي جمعه خون وفي القلة أخونة.

حتى أن جاسون نفسه كان يصغي إليهم، وكأنه يتلقى وحيًا من السماء يتنزل على قلبه، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال.

قال أحد المنشدین: "واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذي صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه، فبنى عليها^(١) ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار عمادها.. ذلك هو أتماس أحد ملوك تساليا في الزمان القديم، ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضررتها، فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كونخيس ليكونا بنجوة من أيو الخبيثة...

وفيما هي واجمة تفكر في ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه:

- نيفيل أيتها العزيزة؟ فيم تفكرين خزينة هكذا؟
- هرمز؟ تباركت يا رسول السماء، أفكر في ولديّ هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر أيو..
- لا عليك يا حبيبة الآلهة - إنني مساعدك، كفكفي دموعك..
- شكرًا يا إله الرحمة، سأسبح لك ما حييت!
- وأين تحسبنيهما يكونان في سلام وأمن يا نيفيل؟
- لا يكون ذلك إلا عند ملك كونخيس، ولا أدري كيف أرسلهما إليه؟!
- لا أهون من هذا، فانتظري طرفة عين!

ومضى الإله فغاب برهة، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها، ولينقلهما إلى ملك كوخليس، وسجدت الملكة شكراً لهرمز، ثم قبلت طفليها فركسوس، وابنتها هلمة، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة، ودعت لهما، ثم انطلق الكبش في الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التي لا تنتهي.. وطفق الكبش يعرج في السماء، ويخفق فوق الممالك، حتى كان فوق بحر صاحب مضطرب تقلبت أمواجه، وتناوحت زواجه. فنظرت الفتاة المسكينة هلمة تحتها لترى ما هنالك، ولكنها فرعت فرعاً شديداً، حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتتل، وتحترب ويأكل بعضها بعضاً، فارتجفت رجفة هائلة، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عل وجعلت تهوى حتى تردت في البحر وابتلعها أمواجه.. ومنذ ذلك الوقت، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهاسبنت^(١)) نسبة إلى الفتاة البائسة هلمة! ومضى الكبش يستبق الريح ويطوي العوالم، حتى وصل إلى مملكة كوخليس، فهبط قليلاً، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس، فصلى للآلهة، وذرف الدمع على أخته، وسلم على الملك الذي هش له وبش، وأحسن لقياءه، وأكرم مثواه، ثم شخذ سكينه وتل الكبش لجبينه، وكبر وسبح باسم جوف وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قربانا لهم جميعاً..

(١) هو الدردنيل.

وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذي فرح بها فرحاً شديداً، لأنها كانت تعدل كل ما في كنوز الملوك من ذهب.. وقد ربطها الملك في سديانة باسقة، ووكل بها تيننا هائلا ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم.. ومنذ ذلك اليوم والفروة التي تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه، فأصبح لقمة سائغة للتنين..".

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد، فانتهر الفرصة، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى، وأوفرهم ثراء، ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد في فم الزمان.. "ولم لا يا ابن أخي؟ لقد علمت أن أستاذك الذي نشأك، وهذبك وأدبك، وهو شيرون السنتور الأكبر، أستاذ أخيل العظيم، وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة، وأعلى ذكره في جميع الأنام، فلم لا تذهب إلى كونخيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سلباً وإما حرباً، وأنت من أنت في أبطال الوغى وصناديد الحروب؟

ألست أرمي الناس لسهم، أضربهم بسيف وأحذقهم طعانا برماح؟ إنها فرصة المجد لمن يبتغي المجد يا جاسون، فلا تَضِعْها! لا تقل "بل حسبي أن أحكم الناس" فالناس يعشقون أشجع الناس..."

وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى، حتى هاج في صدره الشاب نائم المنى وساكن الآمال.. فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصي على شجاعته. بيد أنه عندما خلا إلى نفسه، وراح يفكر في الوسيلة التي يبلغ بها مناه، بدت له حقائق أسقطت في يده، جعلته يتخاذل، ويندم على الوعد الذي وعده عمه، غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد، وربطه بالشرف، فصمم على السفر إلى كونخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر، وكانت سمادير اليأس تملأ عينيه، فلم يهتد إلى الوسيلة! وانطلق إلى غرفته، ففرض فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر.. ثم انبلج الصبح، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا..

- جونو.. جونو.. لقد كدت أذسى جونو، يجب أن أصلي لجونو، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلها حيرني أمر.. لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء! وهي ستحل عني هذه المرة!

ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلي، وكانت سنديانة هائلة - هي الناطقة بنبوءات جونو - نامية وراء المذبح، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول:

- لبيك أيها الفتى لبيك! لبيك وسعديك يا جاسون يا حبيب جونو لبيك! كفكف غوارب دمك فسترعاك الربة وتحفظك.. تعال! اصعد فوق! اقطع أحد أغصاني واصنع منه عصا، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تملك إلى كونخيس،

وسيينيها أرجس^(١) لك، وذلك بإشراف مينرفا. ولتكن العصا معك دائماً، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها، وكلما ألم بك خطب أو حز بك أمر، فارجع إليها، فهي تكلمك وتشير عليك.."

وسكتت السنديانة، وصنع جاسون العصا وذهب عند سيف البحر، ليرى عمال أرجس، بإشراف مينرفا، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها إلى الماء ففرح واستبشر، وسماها (أرجو) نسبة إلى صانعها، ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاسي، يقاسمونه مجازفته، فاجتمع إليه عدد غير قليل، منهم هرقل الجبار وكليستو، وأدمتوس، وتيز يوس، وأرفيوس، و بولكس ويلايوس.. وأعدوا ميرتهم، واستكثروا من ذخيرتهم، ثم همت الفلك، واحتواها الماء. مساكين هؤلاء الأرجونوت^(٢).

لقد كانت رحلة شاقة مضطربة بالمتاعب، مليئة بالأشجان، في بحر لجي وأمواج كالظلمل، ظلمات بعضها فوق بعض، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض، وطريق كله سعالي^(٣) وأغوال. لقد لقي الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أي رهق.. فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسمة الدوح، كما أيكها واستطال، وغلظت جذوعها واستوت،

(١) حيوان رائع من أتباع جونو.

(٢) المسافرون في السفينة (أوحو).

(٣) جمع سعلاة أو سعلاء وهي الغول أو ساحر الجن.

فبدأ لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق في الغابة يقطع أغصانا تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو، فأوغلا.. وكانت الطريق ملتوية مضلة.. فلما أن قطعاً من الأغصان شيئاً كثيراً، أصاب هرقل ظمأً شديداً لم يصبر عليه، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملا جرة الماء التي كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدع في سكون الغابة.. وذهب هيلاس، وجلس هرقل ينتظره.. ولكن وقتاً كافياً طويلاً مضى قبل أن يعود الفتى.. ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها.. ثم ساعتان.. ثم أكثر من ذلك.. ثم أكثر.. ماذا؟ ترى ما الذي عوّق هيلاس؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا في ذلك الزمن، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق، وصدر رحب أخيلي، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال، وعينان يترقق في بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى، ولا تحسه إلا قلوب الحسان.. وشفقتان إن كانتا لرجل، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة.. وجبين متألئ وضّاح، لمّاع كإشراقة الشمس في مولد الصباح... تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى، وما كان أجمل هيلاس!!

ذهب يملأ الجرة.. وما كاد ينثني ليضرب بها الماء، حتى رآته عرائسه الغيد، انخرد الأمليد، فشغفهن وامتلكت قلوبهن، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله، وينهلن من سخنه، وليقسمن بسيد الأولب ما هذا بشراً، أن هذا إلا ملاك كريم!!

واقترين من مكانه، ثم لم يقوين على البعد فاقترين أكثر، ثم تأجج
الهوى في فؤاد إحداهن وهي أجملهن، إن كان فيهن من هي أجمل
من أختها، فهتفت به، فلم يجب، فحذبتة من ذراعه جذبة نزل بها
إلى الماء..

- ماذا بالله عليك يا عروس؟
- تعيش معنا!
- أعيش معكن في الماء وأنا بشر؟
- لن تكون بشراً بعد اليوم، بل تكون إلهاً كريماً.
- وأنى لي هذا وأنا غلام هرقل ومولاه، وهو ظمئ إلى جرعة
من مائكن تشفي جواده؟
- ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا؟ إذن هذا عقابه! تعال!
- سيمنحك الخلود سيد الألب!

وجذبته إلى القاع.. ولكنه لم يغرق.. وهو يعيش إلى اليوم مع
هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً، ولا يجوع ولا يظمأ!
ونهض هرقل يقص أثر فتاه، حتى إذا انتهى إلى النبع، ووجد الآثار
هابطة إلى الماء، إلى غير عود، صرخ صرخة تجاوزت أصداؤها في
أركان الغابة، ثم جلس ساعة على حفا في المقبرة التي ابتلعت
هياس، يذشح ويبكي.. وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة، وأقسم
كذلك لا يصحبن الأرجو في هذا السفر.. وعاد أدراجه، بعد رحلة
طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن، وعاش حياته الطويلة
المقاهمة لا يفتأ يذكر هياس، ولا يفتأ يبكي على هياس!

* * *

وأرست الأرجو في شاطئ تراقيا، ونزل جاسون في نفر من رجاله يمتارون، فعملوا أن ملكاً أعمى يقال له فنيوس، شديد البؤس، طويل الشقاء، يحكم هذه المملكة.. ولم يكن عماء وذهب بصره علة شقائه فحسب، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق، لها جسم الطير وريشه ومخالبه، ورأس الإنسان ولؤمه وخبث طباعه.. كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام، قتلهم غداءه، فلا تبقي ولا تذر. وكان الملك في أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها. لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقي على شيء.. حتى على الفتات.. ولم يكن يردّها عن قصر الملك كلما حان موعد الطعام، قتلهم غداءه، فلا تبقي تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاها، وكانت تفلت من سيوفهم وتمزق من سهامهم بخفة تحير الألباب، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء..

ودهش جاسون، وذهب بالقصة إلى رفاقه الأرجونوت، فتقدم إليه البطلان الضرغامان، ولدي بورييس، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور، فإما أن يتم لهما النصر عليها، وإما أن تكون لها الكرة عليهما... وصادف الاقتراح هوى في نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذي هش لهما وبش، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً..

فلما حان موعد الغداء، جلس الملك وضيافته - وكان جاسون قد عاد إلى السفينة - إلى المائدة ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور تزق فوقهم وتدوم، فوقف البطان وامتشقا سيفيهما، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة، ولم يكماها من خدش واحد تحدته ببدنيهما، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً، وأخذاً يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوي فوق الأرض فيلطحها بدماء حارة فائرة.. وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يوناني مبين.. ثم فرت بقية الطير.. ولكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك، وهتفت به كي يأمر بوقف الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى.. بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأؤكد لها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبداً الحياة.. فقاسمته ملكة الطير، وأشار إلى ولدي بوريس فأغمداً حساميها. وذهبت الملكة، وعادت بعد قليل في شرذمة من جندها، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها، حملتها، وذهبت إلى غير عود^(١).. وبرت قسمها، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً. وشكر الملك لولدي بوريس، وعرض أن يستوزرها، فاعتذرا شاكرين، ليصبحا جاسون.

* * *

(١) تعرف هذه الطيور في الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروي أنها نفت نفسها في جزيرة ستروفيدي.

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة في عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهاربين، فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطآن تراقيا، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع في أشعة الشمس كالذهب، حتى إذا كان فوق الأرجو طفق يقذف راكبها بحجارة مسومة من سجيل، فألحقت بهم أذى كبيراً..

ولم تنفع سيوفهم ولا قسيهم شيئاً، فاخبتأت كل كوكبة منهم في قمرتها وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقييله من هذه الطيور، فتكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يضرب الجنود بأغمد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدثوا صوتاً تنزع الطير منه، وتفر مروعة إلى غير عود.. ودعا جاسون جنوده، ففعلوا كما أشارت العصا، وفرت الطير ذاهلة ممزقة في رحب السماء..

* * *

وحاقت بهم كوارث أخرى لا حصر لها.. ثم اقتربوا من برزخ سمبلجيدز الذي ليس لمسافر إلى مملكة كونجليس سبيل غيره.. وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين، وعلى كل من عدوتيه صخرة هائلة، فلا تزال الصخرتان تنطبقان وتنفجران، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيرانه هباء عفاء كان لم يغن من قبل.. وكأين من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما، فخطمتهم وعفت على آثارهم..

ولم يدر جاسون ماذا يصنع، وجلس رفاقه يقلبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرهم هذه، وظلوا ينظرون الى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتقية الصمم.. وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيا ماذا يفعل، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب، فأشار بأن يطلق جاسون حمامة بين الصخرتين حين تنفرجان، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها، ثم يرى، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة..؟ ودعا جاسون رجاله يستشبرهم، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا، وكما كان عجبهم شديداً حين رآياها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشة واحدة انتزعت من ذنبها فصارت هباء نثره الهواء، واستعدوا للمقاحمة، وطفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحر الذي هم فيه، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو.. وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى.. ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسة، وأرواح ترتعد فرقا من الموت في أبدانها، ففرقت السفينة، كما يمرق السهم عن قوسه.. واحربا!! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم، وإن حطمت الصخرتان سكانها^(١).

(١) دفتها.

كما حطمته سئل عن طلبته فقال: وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة، حتى انسدحوا^(١) في الفلك يلهثون ويتنفسون، ويهني بعضهم بعضاً..

* * *

وبلغوا كونخيس بعد عناء وجهد، ومثلوا بين يدي أيتيس ملكها الجبار، فسلم جاسون بسلام الملوك، ثم سئل عن طلبته فقال:

- عز نصر مولاي، لقد تجشمتنا مشاق هذه السفارة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك، لأنه نعى إلي أنها كانت من تراث آبائي.. ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا.

وقهقه الملك ملء شذقيه كالساخر المستهزئ، ثم ربت على كتف جاسون وقال:

- أي بني! أبقى على شبابك الغض، وجمالك الفينان، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة ممن معك.. أي فروه ذهبية يا بني تبغني؟ وتراث آبائك من؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني، وسلخه بين يدي، وضخى باللحم والحوايا^(٢) للآلهة، ثم أهدى إلي الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سملجيدز؟! وفيم كل تلك المهاوي والمهالك؟

(١) انطرحوا.

(٢) الأحشاء.

عد يا بني إلى بلادك فهو خير لك، وأبق على حياتك، وانعم
بمحض أمك الدافئ، فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان
وغيلان، ومنايا نثير الأشجان والأحزان!

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك، فأخذ أيتيس يعظه وينصحه،
فلما رأى تصميمه واستمساكه، قال له:

- "لك إذن ما طلبت يا بني، ولكن اسمع، وأصغ إليّ، إن أمامك
مخاطر كنت أوتر ألا تلقي بنفسك في تهلكتها، ولكن ما دمت
قد غرتك الأماني وأزهدتك هذه النخبة من أبطال بني
جلدتك، فاذهب إذن، وحاول ما استطعت أن تلجم عجلي
فولكان الهائلين اللذين ينقذ الذهب من منخريهما ويفتكان
بكل من اقترب منهما، ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما
الأرض الجبوب^(١) التي تقدست باسم مارس، فإذا فعلت
فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس باني طيبة، فإنك
لا تلبث أن ترى الأرض تنبت جيلا من المردة مقنعين في
الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح، فإذا قدرت عليهم فإن عليك أن
تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية، فإذا فعلت، ولا
أحسبك تفعل، فإن الفروة لك، كنزاً ليس كمثله كنز، وذخيرة
من الذهب الإبريز ليست تعد لها ذخيرة، هذا الفخر يرفعك إلى
عليين، وينقش اسمك في لوحة الخلود إلى آخر الزمان!"

(١) الغليظة.

وسمع جاسون.. وخفق قلبه، ووجبت روحه وجيباً مخزناً، ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل!!

ونصحه رفاقه أن ينكث، وأشفقوا عليه أن يضحي بهم وبنفسه في مثل هذه المهالك، بيد أنه صمم على أن يلجم عجلي فولكان، وأن يحرث بهما الأرض الجبوب، وأن يزرع فيها أنياب التنين، وأن يحارب المردة، فإما هزمهم وإما غلبوه، وأن يقتل التنين الذي يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه في شجاعة مُدعاة، وفتوة مفتراة، فإذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن، وأسلم نفسه للتفكير العميق.. ثم استوحى عصاه السحرية، فقالت له: إنه ينبغي عليه أن يلتقي ابنة الملك الأميرة ميديا، فإنها مشغوفة به حباً منذ أن رآته يتحدث أباهاً.. وأنها تكاد تجن به جنوناً.

- وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة؟
- اتصل بإحدى عجائز كونجليس تقضي حاجتك.
- ومتى ألقاها وأين؟
- يا لك من فتى؟! ألم تسمع من يقول: وكم لظلام الليل عندي من يد؟ القها في جناح الليل، ولتكن له يد عندك، والقها في حديقة قصر أبيها الملك!
- ولم؟ أأست ابن ملك مثلها؟ أأست صاحب عرش عظيم؟ أليس لي ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتي هذه؟

- بلى يا بني؟ ولكنها تخشى أباهما أشد الخشية. أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التي هي أكبر كنوزه؟
- دعي هذا اليوم يا أماء، ولكن طمئنيني بحق الآلهة.. هل تحبني ميديا حقاً؟ ومن أنبأك هذا؟..
- نبأئنيه ربة من السماء لا تضل ولا تنسى..
- ربة؟ تقدس اسمها؟! من عساها تكون يا ترى؟
- هي جونو أعز الأمهات؟ لا أكذبك، إنها جونو!
- أتعرف ما تقول؟ وهل يكذب بشر على آلهته؟
- إن كان ما تقول حقاً. فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولمب، ومليكة جوف الكبير المتعالي، إن ميديا يا بني مولعة بك ولوعاً شرد المنام من عينيها، وجعلها في أيام معدودات طيفاً لا يردد لسانه غير اسمك، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك.. و..
- ميديا تبكي؟ ومن أجلي؟ ولم تبكي؟
- تبكي لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال! وأين أنت من عجلي فولكان والأرض الجبوب التي لمارس؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين؟ ثم من أنت وما هذا كله في مواجهة التنين الهائل الذي يحرس الفروة؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة..

- وما الرأي إذن، ولا بد مما ليس منه بد؟
- الرأي أن تلقى ميديا فهي حبيبتك، وإن عندها - فضلا عن ذلك - أم كتاب السحر، ولن تبخل عليك بعلها مهما كلفها ذلك من حق أبيها، وإغضاب أربابها.

* * *

لقد كان الليل يضرب على الدنيا بجرائه، وكانت النجوم تلتهب في فحمة كقلوب المحبين، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المطلوبة بين العاشقة المدلهة، والفتى المقاحم ذي الآمال.. وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفي... وهمست إليه، فسار في أثرها، حتى كانا عند منعرج مسوج بنات ذي عساليج، يؤدي إلى رحبة واسعة ينتشر في أرجائها أرج الورود والرياحين، حتى ليوقط القلوب النائمة، ويعطرها بفعمة^(١) الحب ويسكرها برحيقه المختوم، الذي كله لغو وتأثيم! وهناك، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثي^(٢)، وقلب ظامئ خفق، فلما رآته غمرها إحساس ثائر، واستولت عليها عاطفة صارخة، لم تستطع معها إلا أن تلقي بنفسها على صدره القوي الرحب، تبلة بدموعها..

(١) الفعمة: الرائحة الجميلة.

(٢) غرثى: جائعة، والمراد مشوقة.

ووقف جاسون ساكنا هادئا، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذي أقبل فجأة يهاجمه ويدارا عليه، ويدفع بعضه بعضاً من حوله.. لقد كان قلبه بارداً كالثلج، وذراعاها جامدتين كالرخام.. وكانت ميديا تبكي وتثر اللؤلؤ من عينيها المرتجفتين، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع.. وكأنما كان يحس، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله، أن حية رقطاء تتحوى عليه، وتنفض سمها فيه.. لماذا؟ لم تكن إلا الآلهة وحدها تدري!!

- جاسون.. أحبك.. أحبك من أعمق أغوار قلبي! لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبي، فلها رأيتك فنييت فيك..

- أشكرك يا عزيزتي.. أشكرك شكراً لا أدري كيف أعبر عنه!

- جاسون؟ ألا تكون لي للأبد؟

- أنا خادمك.. بل عبدك إذا شئت!

- لم رضيت لنفسك ما عرضه عليك أبي يا جاسون؟

- وماذا يخيفني يا ميديا؟ نحن الإغريق لا نهرب الردى، ولا نخاف الموت!

- هذا جميل.. ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب؟

- قد انتصر، والنصر لا سيما في المخاطر، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب!

- هذا محال إذا لم أساعدك!

- تساعديني؟
- أجل.
- وكيف؟
- عدني أولا!
- وبماذا أعدك يا أعز الناس!
- أن تكون لي.. أن تتزوج!
- أعدك!
- بل أعطني موثقتك!
- أقسم لك.
- بل احلف بجونو، فهي حارستك واحلف بهيا كاتيه!
- أ..أ.. أحلف. أحلف بجونو! وبهيا كاتيه!
- تحلف بجونو ماذا؟
- أحلف بجونو أن تتزوج!
- وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد!
- أ.. أ.. إلى الأبد؟؟
- إذن.. لا ضير عليك.. ستنجو من كل شيء يا جاسون..
- خذ!..
- ماذا يا ميديا؟
- أسلحتك التي تتيك!
- أسلحتي؟ هاتان علتان.. وهذا حجر أسود صغير! أكل هذه
- أسلحتي؟ ماذا أصنع بها؟

- علبة من فضة إذا فتحتها اصّاعدت منها ريح تفل من حدة عجلي فولكان، وتقي وجهك حر النار التي ينفثانها من منخريهما، فتستطيع أن تلجمهما وتضع على عنقيهما النير حتى يكون المقوم^(١) بيدك، أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجبوب، وإنه لجر مسموم من سجيل، يجعلهم كعصف مأكول! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتثر مما بها من طيب في وجه التين، فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته، ولك عندها أن تقضي عليه.. وسكتت ميديا..

ومدت فمها إلى جاسون، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد، مما سمع من سحر الحجر الأسود، ويريح العلبة الفضية، وطيب العلبة الذهبية!!

* * *

وكان الجو العبوس القمطير يزد في منظر الحفل الحاشد روعة ورهبة، وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم، عرشه الممرد، فوق الأكمة المشرفة على الأرض الجبوب المقدسة باسم مارس، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مشاة وعلى كل ضامر، يجلسون على الشعاف وأحيايد الجبال المطلة على الميدان، متزاحمين متدافعين كأنهم في يوم حشر..

(١) المقوم: الخشبة بين الثورين يمسك بها المحراث، أما النير، فالقصبة التي تشد المحراث على عنقيهما (الثعالي).

وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفي قلوبهم حسرات على صاحبهم، وألسنتهم ما تفتقر عن الدعاء له، والتوسل إلى الآلهة من أجله.. وكانت ميديا العتيدة تجلس في ركن من مقصورة الملك تشعوز وتعوز وتطلق الرقى..

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب.. وانفتح باب الزرب فبرز عجلا فولكان، ثم جعلا يعصفان ويتلبطان^(١) وينفثان من منخريهما شرراً ودخانا يختلط بهما لهب أزرق، ما مس شيئاً في الميدان إلا أحرقه.. حتى العشب الرطب المندى، كأنه الهشيم اليابس.. وبرز جاسون من مكانه، فأنجبت أنفاس الناس، وسكنت الريح، وأشرف الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم.. وأهطع^(٢) أصحاب البطل، وطار ألوآن وجوهم، وتحسس كل منهم فؤاده...

ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هباب، وعليه دروعه، وفي يده سيفه، فلما كان قاب قوس منهما، جعل يتلطف بهما، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدأت ثورتها، وأسلست قيادهما، فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما، وشد وثاقه، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق..

(١) الإصاف السير السريع الذي يثير الأرض، ويتلبطان يختلطان في سيرهما.

(٢) هدوا رؤوسهم.

وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد، فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشبوب^(١).
وعاد منخراهما يقذفان دخانا أبيض وشواظا.. بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حراث الأرض كلها، ثم قادهما إلى زربهما وأطلقهما، وغلق عليهما، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين ليزرعهما.. فدفعها الحراس إليه، وطفق يغرسها في الأرض الرحبة، حتى إذا فرغ من عمله، نظروا، فإذا رؤوس مقنعة في خوذات من حديد تنبت من الأرض، ثم تنمو فتبرز الرقاب، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كلها من فوقها، وتخلص الأذرع وفي أكفها السيوف المرفهة تلاعب الهواء.. ثم ترتفع الأنفاذ وعليها كل لأمة دلاص^(٢)،
ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغي وتزبد وتزأر، ثم ينقض عليه الجيش بأكله، وقد شرع كل جندي حسامه، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة في كره، وحزم في فر، وحذق في تحرف لقتال، ورسم لخطط النضال.. وكان الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول.. وكانت ميديا - برغم ما سلحت به جاسون من سحر - تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين..

(١) أن ترفع الدابة يديها غاضبة.

(٢) الدرع الواسعة السابغة.

أما رفاق جاسون، فوا رحمته لهم! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب، ويزلزلون الأرض تحت قدميه، فتزيغ أبصارهم وتقلب قلوبهم، وتثلج مشاعرهم، وينظر بعضهم إلى بعض، لا يملكون لهذه رداً ولا دفعاً..

وظل جاسون يناضل ويناضل، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها، وكلما جندل مائة بدلت بألف، فانقذف شيء من الرعب في قلبه، وسرى إلى نفسه ديب من اليأس كاد يقتله لولا أن أقبلت جونو تكلمه في بسمة روح من قلبه، وتذكره بالحجر الصغير الأسود.. ولكن الحجر الصغير الأسود كان في جيب صدره، فأني له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف!!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الأسود.. ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى.. وكان قد بلغ منه الجهد، وتولاه الإعياء والضنى.. فلهج لسانه نجاة باسم جونو.. فأسرعت سيدة الأولب لنجدته، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه، ووضعت في يده، فقفذه جاسون وسط جيش الأعداء المحدثين به، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله، ثم تصرعوا غير مأجورين.. وماتوا جميعاً.

وأهرع أصحاب جاسون إليه، وطفقوا يحيونه ويهنئونه ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء، ثم حملوه وهم يهتفون أحر المهتاف، وأهرعت الجموع الزاخرة في آثارهم نحو البحر،

وهي لا تفتأ تردد صيحات الإغريق، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه، وأن يجلس عليه جاسون.. لذلك أربد وجهه، وانتشرت عليه سخابة من الكآبة والهم تملأ أساريره.

وبلغ الإغريق سفينتهم فشكروا للكونيليين جميل ما حيوا به بطلهم، ثم خلوا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه، وضمخوه بالطيوب والعطور، ثم هبأوا له طعاماً وشراباً، من أنخر ما يقتنون. وفي الليل أسر لهم بسرهم وانطلق ليلقى ميديا.

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها.. ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بقبلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها، وتعتبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لعجلي فولكان، وحين أحرق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه، وهو صابر لهم، ثابت لجموعهم، حتى قذف الحجر فانقذت في قلوبهم المنيا.

- أرايت إذن يا حبيبي ما صنع الحجر الأسود من السحر؟ أيقدر على مثل ذلك غير من أوتي من العلم ما أوتيت؟
- كلا!

- ما لك لا تتكلم يا جاسون؟

- الفروة الذهبية! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل؟!

- الفروة الذهبية لك من غير ما ريب، فلا تبتئس! قبلني!

وطبع على ثغرها قبلة ميتة كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائماً في فم ميديا... وانطلقا إلى الجانب القصي من الغابة المجاورة، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان.

وهناك، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر.. فترنح الوحش المخيف الرائع، واستل جاسون جرازه، وأغمده في صدر الأفعوان الكريه، نخر يتلبط في دم غزير.. وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة.. وعادا عجولين إلى القصر الملكي الرهيب، حيث كان وصيفاتها في انتظارها، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر، كما رسمت لهن ميديا من قبل، وحين أوشك الجميع أن يغدوا السير إلى الأرجو.. إذا بالفتى أبستروس، أخو ميديا غير الشقيق، وولي عهد الملك، يقبل البعض شأنه، فتغريه أخته بالسفر معها في رحلة جميلة إلى أبداع بلدان العالم.. تسالا.. ويرضى ولي العهد.. وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رسمت الأرجو، فيركبون فيها، وتقلع بهم في موج كالجبال.

* * *

أقلعت الأرجو وطفقت تطوي عباباً من بعده عباب، ولجة من ورائها لجة، وبدا الطريق كأنه يطول، والأفق كأنه يحلوك، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز أيتيس وابنته وولي عهده...

ونفى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه، وهب من فوره يعد أساطيله ليقتفي آثار جاسون، عسى أن يقبض عليه، ويعود بابنيه وأعز كنزه.. وانطلق هو الآخر يطوي العباب، ويتواشب بأسطوله فوق أعراف الموج، ووقف بين الملاحين يحضهم ويحرضهم،

وليستحثم ويشجعهم، حتى لاحت الأرجو لهم كالنكتة السوداء في حمرة الشفق، أو المطوقة الورقاء في صحيفة الأفق، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع، واستبقوا إليها من كل فج، وكانت سفينة الملك في المقدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب، ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذ فوق نواصي الموج نحوهم، فراحوا بدورهم يعملون المجاديف ويهددون الشراع للريح، وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر، وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفرق.. وفكرت في ألف حيلة وألف سحر، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد، وبطل سحرها كله، فهو لا ينفع ولا يفيد... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رمية سهم... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادي، ويتوسل أن ترد إليه ابنه.. ابنه الأوحده.. أبستروس... "ميديا! ابنتي؟ أنا أبوك! أتوسل إليك! ردي على ولدي واذهي أنى تشائين! إنه أملي في الحياة! إنه ولي عهدي وحافظ ذريتي! ميديا! أرسله في زورق واذهي أنت..! ولكن الفتاة غلقت فؤادها وسدت بالحجود سمعها! وا أسفاه! يا للقاسية! يا لبرودة القلب الذي لا يحس، والنفس التي لا ترحم! لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها، ثم شحذت سكيناً وأغمדתه في صدره، وتدفق الدم الحار.. دم الشباب الفينان.. يلطخ اليد الأثيمة المجرمة.. اليد الشقية، يد ميديا التي طوعت لها نفسها المغلقة قتل أخيها، ثم تقطيعه إرباً..

* * *

ماذا خطر برأس الساحرة؟ أواه! لقد أخذت تمزق أخاها مرقا مرقا، وكلها اقتطعت منه شلواً قذفت به في الماء، وأبوها المسكين المجنون يرى، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشلها، ثم يتلبث عند الشلو الذي يليه.. وهكذا دواليك، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز.. الرأس الصغير الذي كان ييسم لأينع الآمال، ويحلم بأجل الأماني.. رأس أبستروس.. ولي العهد، والأمل المدخر لأمة بأسرها..

لقد انتشر الظلام في عيني الملك.. وغمر قلبه قنوط مر.. وأمر الملاحين فطوا الشراع، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن في بحر هادئ كله هم، وكله حزن، وجلس أيتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه، ويخضبها بالدم الذي تذرعه عيناه.

- آه يا بني! أية فروة وأي كنز؟ ليتك خلصت لي بكل ملكي! ميديا! غضبت عليك آلهة السماء يا عاق! تبت يداك يا أغدر البنات! ألا ليت أمك لم تلدك...! أبستروس! رد علي أيها الحبيب..!" وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن!

ولكن جاسون ما خطبه؟! مسكين! لقد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب هذا الإثم... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جني، فسكت! وهل كان في وسعه أن يفعل شيئاً؟!

أليس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذي أهلك جيشاً بأكمله؟ ورد عنه كيف ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة؟!

يبد أنه عرف ماذا يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل! لقد كان السر الرهيب المطوي في صحائف الغيب هو الذي يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام، وقبلًا حارة ملتبهة بمثلها!.

وقد فكر جاسون في ملكه الضائع المغتصب، وفي أبيه الضعيف الطريد، وفي عمه الجبار العتيّ، وفكر في قوة ميديا الخارقة، فأثر أن يبقى عليها عسى أن تنفعه.. لهذا أظهر لها التودد، وتعمل في حضرتها البشاشة.. حتى وصلت الأرجو إلى إيولكوس، حاضرة تساليا.. وحمل جاسون الفروة الثمينة، وقصد إلى عمه..

وذهب بلياس.. وجعل يحلق في الكنز العظيم الذي أتاح به ابن أخيه.. وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق.. ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعاً؟!

"ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كونليس على هذا الكنز العظيم؟ إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التي بين جنبيه؟ ألا كم هلك أناس طمعوا في فروة فركسوس؟ عجلا فولكان! وأرض مارس أو جيل بأكمله ينبت من أنياب التنين..؟ والأفعوان الهولة الذي يحرس الفروة؟ أظفر جاسون - هذا الفتى - بكل أولئك؟ جاسون ابن أخي؟ عجيب وحق الآلهة..؟ بل أسأله، فلا بد من سر في هذا الأمر..". وسأله، وتبسم جاسون، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب في جوانح عمه، وظل يتغنى بشجاعته، ويصف ما كان من ظفره بعجلي فولكان، وحرثه الأرض الجبوب،

وغرسه أنياب التنين، ثم هذه الحرب الزبون التي شبا عليه المردة وما كان من إفنائه لجموعهم، وتلك الملحمة التي قتل فيها التنين الريب الذي وكت إليه حراسة الفروة العظيمة.. ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا.

وأكرم عمه مثواه، وطلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش، فطالته، وراوغه، وزخرف له الأماني، حتى أيقن جاسون أن عمه يعث به، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها، ولا يعكر عليه صفو الحياة أي من تلاميذ شيرون.

* * *

ولقي جاسون أباه فراحه أن يرى كومة من العظام، نخرها الكبر، وجللها المشيب، وأوهاها الحزن، وأوهنها الألم المتصل، وناءت تحت كوارث الزمان.. وبكى جاسون! ولكن أباه انتهره وقال له: "أي بني! ليس الرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكي! إنما يبكي النساء والمستضعفون من الرجال. على أنه ماذا يبكيك؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش، فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم، وأحسبه قد ذكر لك ما كان من وصاتي له حينما عهدت به إليه يهذبك ويؤدبك، ولقد أصبحت رجلا شيخا هالكا، أما أنت فن صباك في إبان، ومن عنفوانك في ريعان، وأنت بالعرش أحق مني وأولى، وهو بك مني ومن عمك أليق، ولن أغفر لك قعودك عنه، وليس في تساليا إلا شعب يحبك ورعية تلهج بالثناء عليك، فشم عن ساعدك، واطلب حقك بالقنا يا جاسون".

وذهب الفتى، وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النعمة على عمه،
فلقي أول من لقي ميديا.

- ماذا، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبي؟
- لا شيء.. لا شيء مطلقاً!
- لا شيء؟ وكيف؟ ألا تفهم ميديا ما في نفسك؟ حدثني
ولا تخف علي!
- لا شيء وحقك يا ميديا.
- أو مُصر أنت على كتمان دخيلتك عني؟ إذن لقد كان
أبوك يعظك!
- أجل! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة..
- قل يا حبيبي! تكلم يا جاسون!
- إن لك إماماً تاماً بغرائب السحر، وعلم التعاويذ والرقى،
ولقد نفعني علمك في أخرج موافقي.. ولن أنسى مساعدتك
يوم لقيت عجلي فولكان، وحاربت المردة، وقتلت التنين..
- إنما فعلت كل أولئك بمعونتك، ولي رجاء إليك..
- رجاء؟ أي رجاء يا حبيبي؟ إنما لك أن تأمر..
- شكراً..! ألا تستطيعين يا ميديا أن تردي الشاب إلى أبي؟
إنه رجل شيخ محطم، وإن الأيام لتتحدربه إلى القبر، كما
تتحدرب صفوانه^(١)، من شاهر.. فهل عزيز على علمك أن

ترديه إلى ما ولي من الصبي؟.. خذي من عمري فصلي
 عمره إن استطعت! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلي!..".
 - اطمئن يا حبيبي فليس أيسر مما طلبت، وسأرده إلى ميعه
 شبابه بقليل من العناء.. وسأزيد في عمره ما أحببت على
 ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت؟!

لقد كان البدر تاماً والليل الفضي الجميل أروع ما ينثر لجينه على
 الطبيعة النشوانة^(١)، وكل ما في البرية نائماً ساكناً والعشب الحلو كان
 نائماً كذلك... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام
 وملء الأدغال، حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها
 فصعدت فوقها.. وتلبثت قليلاً تفحص الطبيعة الرائعة في الأرض
 والسماء بعينها الجبارتين، ثم بدأت تلو تعاويذها وتقرأ رقاها..
 وتصلي للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء
 السماء، وإلى القمر الحالم الساهم... ثم سبحت سبحةً طويلاً باسم
 هيكاويه ربة السفلى والسحر، وباسم تلوس ربة هذه الأرض العجيبة
 النائبة التي تنبت البقل والعشب لما تعمل ميديا، وصلت كذلك
 لآلهة الغاب والأنهار والبحار، والغدران، ولآلهة الرياح والضباب
 والسحاب، وصلت لجميع الآلهة، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل
 الرق..

(١) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بني أسد كسكرانة.

ثم سكتت، وصمت من حولها كل شيء، حتى الرياح كتمت أنفاسها، ثم تشقت السماء فكانت وردة كالدهان.. ثم انفتح باب كبير من ذهب، وبرزت منه عربة عجيبة يجرها أفعوانان هائلان، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمي ميديا.. وتقدمت الساحرة وهي تبسم، فركبت في العربة وانطلق الأفعوانان يجرانها في الهواء، ويرفان بها فوق الوديان والنيران، وفوق قُلل الجبال وهضاب الأرض، وفوق الغاب الساكن المستمر، وفوق الأنهار والبحار.. حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض، حيث تنبت الأعشاب العجيبة التي تنفعها في سحرها.. وهناك.. مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقي البقل ذا الأسرار، ثم ركبت عربتها، وانسابت في الهواء حتى أتت بيت جاسون، فنزلت بحملها العجيب، وعرج الأفعوانان في السماء...

* * *

وفي الصباح، فوجئ جاسون بوجودها فدعر دُعرًا يشوبه شيء من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت.. وأمرت أن يخلى بينها وبين أيسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالمين. ثم إنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتيه ربة السفلى والسحر، والآخر باسم هيب ربة الشباب، وذبحت لكل شاة سوداء فاحمة السواد، ثم صبّت على دماءهما صلاة للربتين من نحر ولبن..

وتوسلت بعد ذلك إلى بلوتو رب هيدز، وإلى زوجته برسفونية ألا يعجلا بقبض روح إيسون. ثم بدحت^(١) نحو الرجل فتمتعت برقية أسلمته إلى نوم عميق، وأضجعتة على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التي حملتها من أقصى الأرض، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة، وشعرها المتهدل يداعبه النسيم، وصدرها المنكشف زاهد نحو السماء..

حتى إذا أتمت دورات ثلاثا وقفت وشخذت سكيننا ماضياً، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين. ثم تناولت أداوتها التي حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق السحري ما هو آية، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط، ومن البرد الذي جمعته أثناء رحلتها في ضوء القمر، وجعلت فيها رأس يومة وجناحيها، وحوايا^(٢)، ذئب، وبقايا من صدفة سلحفاة، ومزقاً من كبدة غزال، ورأس غراب ومنسره، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة، ثم صبت على ذلك كله ماءً وتمتعت بكلمات، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الأداة بما فيها، وتركها تغلي وتفور، وهي فيما بين هذا وذاك تعوذ وتهمم وتتمم وتغمغم، ثم تقلب ما في الأداة بغصن زيتون أولود..

(١) اتجهت إليه.

(٢) أحشاء.

فما كاد السائل يفور حتى نمت في الغصن أفنان من الورق الأخضر
وحبات من الزيتون، يكاد زيتها يقطر منها، وكلما نثرت منه على
الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ما ينو العشب في
إبان الربيع!

* * *

ثم شذت سكينها مرة ثانية، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته،
وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه، ثم إنها
صبت من الأدوية في الجرح وفي الفم ، كأنما تجعل منه مكان ما
سال من الدم. وما هي إلا لحظة حتى دبّت الحياة الفتية في جوارح
الرجل المهدم المحطم.. فهذا شعره يسود ويصير فاحماً غريباً.. وهذا
وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلئ باللحم وبالدم، وهذا ظهره المحني
يستقيم ويمتلئ قوة وعنفواناً، وهذا دم الشباب يجري في عروقه كما
كان قبل أن يكتهل، وها هو ذا يئب كالغلام الأمرد السمهري،
ويشب على أنحاصيه كأرشق ما يفعل الصبيان! وها هو ذا الوجه
يكتسي جمال العصر الخالي... ثم ها هو ذا جاسون يقبل من بعيد
فينظر إلى أبيه وكأنه في حلم.. ويعانقه ويهنئه.. ويشكر ميديا..
وبيكي!!

- أرايت يا حبيبي؟ أليست لك حاجة بعد؟
- وكيف يا ميديا؟ إني مفتقر أبداً إلى واسع علمك، ومبين
سحرك!
- أهمة أخرى؟

- أجل يا ميديا! ألا ترين إلى والدي مطروداً من عرشه،
وأن الحزن يقتلني من أجل هذا؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا
في ذلك؟
- ولم لا تقتل عمك؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه
الجرائم؟
- أنا ضعيف يا ميديا.. وهو رجل جبار وله جند..
- إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك..

* * *

وأخذ أيسون يحب شوارع المدينة فيراه الناس، ويعجبون لهذا
الشباب الذي تدفق في برديه، فيسجدون له، وإن منعهم الجند
وطاردوهم.. وعلم بنات الملك بما ردت ميديا على عمهن من رونق
الصبي، وما ألبسته من رواء الشباب.. وكان أبوهن قد بلغ منه
الكبر، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب، فرددن لو أتين له بميديا
لتصنع معه ما صنعت مع أيسون.. واتصلن بالساحرة، وأغرینها
بالمال، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبي، حتى لا يغلبه
على الملك أيسون ولا ولده جاسون.. وأحضرت الأداة بما وعت
من عشب، ثم جيء لها بالشاة السوداء، ولكنها حين تمتمت بكلماتها
السحرية، وكانت الأداة تغلي بما فيها من سائل عجيب، قفزت الشاة
فكانت في الأداة، ثم قفزت منها فكانت حملاً وديعاً جرى إلى
السهول يرعى العشب.. وطرب البنات حين شeden آية السحر
وإعجازه.

ثم جيء بالملك وحراسه ليشهدوا.. وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولا وتمت بكلهات فدارت الأرض رأس بلياس وصحبه وحراسه، فسقطوا وغطوا في سبات عميق.. وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيفوهن عنق أبيهن وصدره، لتبدأ هي عملها.. فتلكان أول الأمر.. ثم أطعن، وحركن أيديهن بالسيف في ضعف وفرق، فأحدثن به جروحاً أيقظته.. فلها شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن: "ويلاه! بناتي يقتلني؟!" وخافت ميديا أن يبطل سحرها، فبدت في صورة إحدى بناته، واستلت سيفاً مرهف السنن، وأغمدته في صدر الملك اللص.. فمات إلى الأبد.. وأغمض عينيه ليفتحهما في هيدز، وفي هيدز فقط!

وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التي يجرها الأفعوانان، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبج، فركبتها ولاذت بالفرار، قبل أن يكشف صنعها أحد!

سبحان مقلب القلوب! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا! لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه برّ بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً أنقياء كالثلج!! لقد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث، وأحب هذه المرة حباً صريحاً لا يشوبه زعر، ولا تعكره التعاويذ، ولا تئلفه رقي السحر.. وأعلنت الخطبة، فجن جنون ميديا! واسودت الدنيا في قلبها وعينيها.. وهالها نكران جاسون جميلها الذي ناله مثنى وثلاث ورباع.. ولم لا؟ أليست هي التي مهدت له سبيله إلى العرش؟ أليست هي قاتلة بلياس؟ إذن، فالويل له!!

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله، فلها كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا، ولكنها ماتت لساعتها! أواه! لقد كان الثوب مسموماً، وكان ما به من سم يكفي لقتل شعب بأسره!

ولم تكتف الساحرة بذلك، بل شحذت سكينها، وأعادت مأساة أيستروس، فقتلت جميع أبنائها من جاسون.. وأشعلت النيران في القصر الملكي، وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها أيجيوس، ولتلقى ثمت مصرعها!

* * *

فينوس ربة الجمال والحب

تعالوا يا أعزائي المحبين نسمع أغنية الجمال والحب، من ربة الجمال والحب، بارزة من الشج، فوق الموجة الكبيرة، وسط اليم.
لقد كانت السماء زرقاء صافية، ولكنها لطفت ورقت وتضاعف صفاؤها، عندما ذاع في ملكوتها النبأ العظيم، وبشرت بمولد فينوس! ابتسمي أيتها الشفاه الحزينة، وانبسطي أيتها الأسارير المقطبة، وأثلجي يا صدور المكومين!

وأنت أيها القلب الملتاع قف خفقانك، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبرتك، ويا نفوس العاشقين أطربي، فقد ولدت فينوس!
برزت عرائس البحار يصلين في بكرة الصباح لأبوللو، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية، وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين،^(١) متمتماً بصلاة الحب لربة الحب، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال!

واقتر فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة، يحيي الفم السعيد الحلو، الذي سيملاً قلوب العالمين رضى وسعادة!

(١) اسمها اليوناني أفروديت، وسميت في أساطير كثيرة ديون، كوثيريا، وهي إلهة الجمال والحب، وربة الضحك والزواج.

وأشرق ذكاء تحمل أبولو، فلهج السوسنة الوردية تخطر على لازورد الماء، فترك عربته المظهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء، وانثني هويّزف البشرى إلى آلهة الأولمب!

وهرعت عرائس الماء إلى فينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنن، وحملنها إلى قصورهن المرجانية في الأعماق، حيث أرضعنها لبان الهوى، ولقنّها كلمات المحبة، ونشأنها على أساليب الصباة والغرام، حتى أينعت وترعرعت، فأزمعن المسير بها إلى الأولمب حيث يتلقاها الآلهة، فتأخذ مكاناً بينهم..

وكم كان جميلاً رائعاً أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد^(١)، من حولها، وكم كان جميلاً رائعاً رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد، وتغريد الأوسيانيد كأنها بلابل الروض الأخضر ترسل في هدير المحيط شدوها فيحور غناء كله!

وكم كان جميلاً رائعاً من النيريد أن يتضاحكن مترنمات في الحلقة الأولى حول فينوس فتستجيب السماء لهن، ويميد البحر من طرب بهن!

كم كان جميلاً رائعاً أن يخب موكب الحب فوق الماء، حتى يكون على فراخ من قبرص معدودات، فينثني الجميع،

(١) التريتون هم أبناء تيتون إله البحار ونصفهم الأعلى نصف رجل والأسفل مثل سمكة - والأوسيانيد من عرائس المحيطات وأجمل عرائس الماء ومن بنات أوسيانوس رب المحيطات ومنه اشتقت Oceans والنيريد طائفة أخرى من عرائس البحار ومن بنات الإله فيروس.

إلا فينوس التي يهددها زفيروس الطيب، رب النسيم الجنوبي، حتى يصل بها الشاطئ، حيث يكون في انتظارها بنات تميز^(١)، ربة العدالة، وبنات يورينوم ربات الفضيلة والخلق الحسن، فيتقدمن إلى ربة الحب، فيصلين لها، ويجفن شعرها الذهبي المتهدل فوق كتفها العاجيتين، ثم تدلف بينهن، لقاء هيفاء، غراء غيداء، مهتزة الجيد، وضاحة الجبين، كلما خطت خطوة قبلت الأرض قدميها المعروقتين، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا، واعشوشب وأزهر، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة، رب الشهوة هيميروس، ورب الغزل سواديلا، ورب الألفة بوثوس، وهيمين رب الزواج، فينخرطون في الجماعة ويهطعون إلى الأولمب!

وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه، حتى تصل فينوس فجأة فتستوي عليه، وتنتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصب، المترع بالمفاتن، وتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل، وتسري كهرباء الاشتها في الأذرع القوية، والصدور المرقلية، تحلم بضم الجيد الناهد، ومخاصرة الوسط المياس، .. كأنها العنقاء ترسل اللحمة من طرفها الساجي فتصرع هؤلاء وهؤلاء!!

(١) بنات تميز هن ربات الفصول الأربعة، وبنات يورينوم من تاليا وأحاليا ويوفروسين.

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد فينوس، وكان كل إله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء. وكان مضحكاً أن يسفه الآلهة بعضهم بعضاً بين يدي ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعاً، وخبرت من حماقتهم ما لا يتفق.

وهذا الورد المتفتح في خديها، والسحر النائم في مقلتيها، والفتنة الثاوية في كل جارحة من جارحاتها، فرفضتهم أجمعين، وإن تكن برفضها قد أغضبت أباهما كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمب.

ولم يغض الآلهة عن تحقير فينوس لهم، بل انقلب إعجابهم ثورة، وارتد افتتانهم نقمة، وود كل منهم لو خلى بينه وبينها فيبطش بها بطشاً شديداً.

وأجمعوا أمرهم ضحى، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالتأثر لكرامتهم كأرباب مرهوبي الجانب مخوفي السلطان، من ابنته ربة الحب الطائشة!!

وخاف زيوس من ثورة الآلهة، وأفزعه تجهرهم في ردهة الأولمب يتصايحون ويصخبون، فخرج إليهم هاشاً باشاً، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال: إخواني.. أبنائي:

"لستم أنتم وحدكم تنقمون من فينوس الجميلة ما بدر منها في حضرتكم من زهو وخيلاء، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقبة التي صعدت في حضرتي خدها، وشمخت بأنفها، وحسبت أنها خير من الآلهة درجة وأعلى مقاماً.."

لتطب نفوسكم يا إخواني ويا أبنائي.. لقد أصدرت الساعة إرادة أولمبية تقضي بأن تتزوج فينوس المتكبرة المتغرطسة، المختالة، من فولكان الحداد، صانع دروعكم ولجم خيولكم!".
وما سمعها الآلهة حتى صاحوا لساناً واحداً: "ليحي زيوس العادل! تقدست يا زيوس! طوبى لك يا أولمب!".

وكان فولكان بين الجماعة وهي تهتف، ولكنه كان مشغولاً عنها بتلك السعادة التي هبطت عليه من السماء، وكان يحمل أرزيتة الهائلة، فلها سمع النطق الأولمي، ضرب بها الأرض ضربة راجفة، أحس بها بلوتو في أعماق الجحيم...

* * *

- "يحسب الآلهة أننا معشر الربات ملك إيمانهم دائماً، يتصرفون بنا كما يحلو لهم!! ما عليهم إلا أن يأمرؤا، وما علينا إلا أن نطيع! لقد كنت أؤثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق، على أن تشرق على شعاعه من أشعة الشمس الدافئة التي يرتفع فيها أولئك الآلهة العتاة الظالمون!".

- هوني عليك يا مولاتي فقد يصفح غداً سيد الأولمب!

- يصفح أولاً يصفح...

- يا للهول!...

- أي هول يا فتاة...

- ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب...

- رب الأرباب! أنت تضحكيني يا أجمل العرائس
الأوسيانيد!
- مولاتي...!
- إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات.. أما
القلوب.. أما قلوب العذارى.. فالحب وحده يتولاهن،
ويهيمن عليهن..
- إلهتي فينوس...
- لا تنزعجي هكذا يا عروس الماء.. لقد ولدت لأكون
ربة الجمال والحب.. فأولى لي ثم أولى، أن أسعد
بالحب، وأن أختار من ذوي الحسن متعتي الغالية
ونعيمي الأوفى.. فولكان!! أنا أقسم أن هذا الحداد لا
يفرق بين القبلة والجدوة، ولا بين نشوة الحب وزفير
الكبر! وأخشى أن يغازلني يوماً فيقذفني بإرزبته. يحسبها
ريحانة أو زنبقة! يا للحداد القذر!
- ولكن زواجكما تسجل في السماء ياربتي!
- إن كان سجل السماء مدنساً بكل هذه المقامح
الاستبدادية، فأنا.. فينوس ربة الجمال والحب والزواج..
أنف أن يدرج في صفحاته اسمي!

والآن اسمعي يا أوسيانة ^(١)، اذهبي إلى حبيبي مارس ^(٢) فبلغيه أني منتظرته الليلة، بعد مغيب الشفق، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة..".

* * *

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشاء، وتستعرض الآلهة ^(٣)، تقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء.. وما أكثر القطيع وما أشد نهم الذئب!

لقد علقت مارس القوي إله الحرب، ورب الدمار، ولم تبال بزوجهما الفظ القذر المنتن، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طرق الحديد، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم!

وعلقها مارس وافتتن بها، حتى لكان يعد دقات قلبه دقة فدقة، حتى يلقاها، فتهدأ أعصابه، ويطمئن قلبه، ويثوب إليه رشده.

لقد كانت فينوس فتنة حقاً!

لقد كانت ثتلاً كتمثال من النور، في إهاب من البلور! وكان لها شعر كأشعة الشمس، يغدون فوق كتفيها العاجيتين، فيظل النسيم العاشق يقبله..

(١) واحدة الأوسيانيد.

(٢) اسمه اليوناني إيرس.

(٣) في الميثولوجية اليونانية الآلهة هم أبناء الخلف، فأنصاف الآلهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر في حين تكون الأم الأخرى أو الأب الآخر من الآلهة..

بل يعبده، فإذا تعب، تركه لينثر فوق الخصر أو الصدر، ثم يعود إليه بقلوب الآلهة وأرواحها، فينثرها تحت القدمين الدقيقتين الرقيقتين، لتسحقها فينوس الجبارة.

والسعيد السعيد من فاز بابتسامة من هذا الفم الأحوى المفتر، أو غمزه من ذاك الطرف المغتر، أو إشارة من ذلك البنان المخضوب بدم العاشقين!

وكان مارس لا يخشى من أعين الرقباء مثل ما يخشى من عيني أبوللو، ولذا كان إذا وافى فينوس في هذا المنزل الغرامي السحيق، في أعمق أحشاء الغابة، ترك خادمه أليكترون عند أول الشعب المؤدي إلى الطريق العام، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقين، حتى يكون الأليفان بنجوة من الفضيحة، وفي حرز من ألسن الكاشحين.. فإذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ذهب أليكترون فأيقظ العاشقين الآثمين، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق، قبل أن تشرق الشمس.

ولكن! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً، حتى إذا نال منهما الجهد وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل، انبطحا على الحشيش الأخضر. هو إلى جانبها وهي إلى جانبه، غريقين في سبات هنيء! ولمح أليكترون ظبياً نافراً، يتفزع في ظلام الغابة، فتبعه، وطفق يعدو وراءه حتى لحقه بعد عناء شديد،

فاحتمله: وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة.. ولكنه ما يكاد يصل ثمة، حتى يساقط منه دماً من التعب، ويغلبه نعاس عميق..

* * *

وأشرقت الشمس!! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أبوللو، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج، وبدأت رحلتها السماوية، وأخذت ترتفع في العلاء رويداً، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى، أطل أبوللو فرأى مارس الأثيم، وفينوس الغاوية، متعانقين على الحشيش الأخضر، وكانت بين أمه لاتونا، وأما ديوان، ما يكون عادة بين (الضرائر) من بغضاء وشحناء، وكانت ديوان تفخر على زوجات زيوس جميعاً بأنها أم فينوس وحسب! وكانت لا تعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب، بما فيهن ديانا أخت أبوللو، وابنة لاتونا.

انطلق أبوللو والشماتة تضطرب في قلبه الناغم على فينوس، يحمل الخبر الفاجع إلى فولكان، فألفاه مستغرقا في صنع شبكة حديدية هائلة، والنار تلتظى في أتونها الكبير، والدخان ينعقد في جو المصنع كأنه ينقذف من بركان، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القدر كأنها أعجاز نخل..

- "فولكان!..".

- "أهلاً... أبوللو.. ماذا جاء بك في هذه الضحوة... وأنى

غادرت عربتك؟".

- "آثرت أن أظأ ثرى هذه الأرض بقدمي على أن تحملني
بوح^(١)، وقد تدنس شرف الأولب بالفضيحة
المزرية!..."
- "الفضيحة المزرية؟ ماذا وراءك يا أبولو!..."
- "فولكان! أين زوجك؟.. هل أويت إليها الليلة؟"
- "لماذا؟..."
- "أو لم تفقه بعد؟.. ولكن قل لي: ماذا تصنع بكل هذه
الأسلاك الغليظة؟"
- "أصنع شبكة كبيرة..."
- "ولمه؟"
- "لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماي.. وأنا
لا بد صائده."
- "هلم، هلم..."
- "وإلى أين؟..."
- "تصيده.. ألم تنته من صنعها بعد؟"
- "بل انتهيت.. وأين هو هذا الوغد؟"
- "على الحشيش الأخضر، في أول شعاب الغابة، مما يلي
الطريق العام."
- "ومع من؟..."

- "مع... إنه قطعة واحدة مع.. فين".
- "معها؟.. ياللهول؟.. يا للعرض الأحمر؟..".

* * *

واحتمل شبكته العظيمة، وانطلق الإلهان إلى حيث.. النائمان
الحالمان الآثمان!

لقد كانا ملتصقين التصاقاً تاماً.. حتى ما يكاد ينفذ الماء
بينهما!

ونسي كل إلف شفتيه في شفتي إلفه، فهما جلنارتان تبثان
نجوى الهوى إلى جلنارتين.
يا لله!

ليس هذا فسقا أيها الآلهة، بل هو التمازج الذي سميتوه
الزواج^(١)!

وانقض فولكان كالمذنب المدمر، فألقى شبكته على
الحائنين!

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر، وانتفضت فينوس وهي
تكاد تذوب من النجل! ولكن! أي ذعر وأي نجل، وهذه الشبكة
قد أمسكت بهما كسمكتين!!

لقد مضى فولكان، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت في آصال دوحة
كبيرة، وعاد بكل الأسرة الأولمبية (لضبط - الحادثة!).

* * *

(١) هذه السطور من كيتس وهي من أبدع شعره في فينوس.

وكانت ساعة رهيبة، انصبت فيها لمزات الآلهة الناقين على رأس
فينوس، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها
وصلفها، وهي ما تكاد تبين!!

وأطلق فولكان سراحهما، أما فينوس فذهبت تنشد عشاقا آخرين!
وأما مارس، ففضى إلى حيث خادمه الأحمق أليكترون، فألفاه لا
يزال يغط في نومه غطيظاً مزعجاً، فركله ركلة أطارت صوابه، وأخذ
بتلاييه نفضضه تخضيضاً!

ثم إنه أقسم لينتقم من انتقاماً يكون أحدى الأباد وضحكة العباد،
فنفث في أذنيه نفثتين، ارتد بهما الخادم المسكين ديكاً عجيب
الصورة، أرجواني التاج. طويل الجناحين، عظيم الذيل!
وركله مارس ركلة ثانية، وقال له: "اذهب فلن تذوق عينك غفوة
الفجر أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وستصحو قبل كل الخليفة
لتصبح في النائمين:

ويحكم أيها الغفاة، هبوا فقد كاد أبوللو يقطر مركبة الشمس!!...

* * *

ولا يزال أليكترون، ديكاً محبوب، يوقظنا قبيل الشروق إلى
اليوم!...

* * *

القرية الظالمة

ذهبا يدلجان في هدأة الليل، ويضربان في ظلام الوادي، وتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة، وكلما نال منهما الجهد، جلسا يتسامران أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة، إلى السحر الذي تنفثه قيثاره الفتى اليافع.

- "حسبك يا بني، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة".

- "وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه؟".

- "أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس. أترى إلى هذه القرية النائمة في أكثاف الجبل؟".

- "أين يا أبي؟".

- "انظر جيداً".

- "الظلام دامس، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً...".

- "انظر في الجهة التي تشير إليها يدي".

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد كشفت القرية للفتى.

- "آه.. هذه هي.. عمش خفيف أصابني الليلة يا أبتاه!".

وكان الفتى حلو الدعابة، رقيق النكتة، ثرثاراً، فقال له الشيخ يحذره:

- "إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً، ولا تخاطبني إلا أن أخاطبك، وإياك أن تأتي بإشارة تسقط هيبتنا في أعين القوم، فإنهم لؤماء سفهاء، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية!"
- "نسيت القفل يا أبتاه!"
- "أي قفل؟"
- "الذي أقفل به في فما يتحرك ببنت شفة".
- "يا خبيث.. اصمت".

* * *

- وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدھا، وانصبت ميازيها بماء منهمر، وانطلقا إلى القرية!
- ووقفوا عند منزل نخم ضخم ذي شرفات، فقال الشيخ :
- "تسبث يا بني بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة، فانظر ماذا ترى".
- وفعل الفتى، ونزل، وقال للشيخ:
- "أبتاه! نسوة عاريات يرقصن، وندامى وخمر، و.. وموسيقى وفتيات و..".
- "وماذا يا صغيري العزيز؟".
- ودعارة وعهر يا أبتاه... لماذا جئنا هنا؟ لماذا جئنا هنا؟...

- "قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طبائع الناس،
هلم إلى باب هذا المنزل".
- وطرق الباب، فبرز لهما فتى غراتق وقال: "ماذا؟ شحاذان قدرا!"
فقال الشيخ:
- "على رسلك يا بني. أنا رجل شيخ غريب، وهذا ابني،
وقد فجأتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة
صغيرة إلى الصباح، ونطمع أن تبليغ لديكم بلقمتا...".
- "غرفة ولقمتا؟ ها ها... اذهبا اذهبا... لصوص! هذه
حيل قطاع الطرق والسفاحين بلوناها من قبل".
- ثم قذف بمصرع الباب في وجهيهما. فنظر الشيخ إلى ولده وقال:
"أرأيت؟ سر إلى هذا البيت القريب".
- وقال لابنه: "هلم إلى النافذة فانظروا...".
- وتساق الفتى وحمق قليلا، ثم قفز وقال: أبتاه! أناس يخزنون الذهب
في خواب عظيمة، ويختمون عليها بالرصااص المذاب، من أين لهم
بهذا الذهب كله يا أبي؟.. فقال الشيخ: "هم لصوص يا بني، وإن
كانوا لا يقطعون طريقا، ولا يسطون على دار، ولكنهم يمتصون دم
الفقير والمعوز، ويصهرونه ذهبياً ويكنزونه هكذا؟! إنهم أصحاب هذه
الضياع والبساتين! هلم إلى بابهم...".
- وطرقا الباب، وسألا طعاما، ومبيت ليلة، فقالت لهم العجوز
صاحبة الدار:

- "إن هذا العام عام شدة، ولم تُبقِ لنا المجاعة على زرع ولا ضرع، ماذا عندنا لنعطيكُم؟ هيكَل زيوس قريب من هنا فناما فيه، وكهنته أَسْخِيَاء كرماء، وعندهم في كل آونة نحر.. سيَطْعَمُونَكُمَا ويستقونَكُمَا! وربما قدموا لكل منكما غادة! فهم فُسَّاق عراييد... انطلقا إليهم... اذهبوا...".

وقذفت بالبواب في وجهيهما...

قال الشيخ: "أرأيت يا بني؟" فقال الفتى مداعباً: "نحن نستحق أضعاف هذا الهوان! ما لنا وللناس؟!" فقطب الرجل جبينه وقال: "مانا وللناس؟ إذن ما نحن في هذه الدنيا يا بني؟ ولكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة، سر بنا إلى ذلك القصر العتيق". فلما كانا عنده، تطلع الفتى فرأى صحباً كثيراً لا يزال يتعشى، والموائد حافلة بالأشربات والأشواب، وبكل ما لذ وطاب. والندامى البيض كالنجوم رافلات، ورافلون، في وشي وأفواف. وكان الفتى استطير من العجب، فقال للشيخ: "كل الناس هائثون هذه الليلة المقرورة إلا نحن!! الجميع يأخذ في نشوة ولذة ونحن نضرب في وحل؟!".

قال أبوه: "ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك؟ هلم إلى الباب". وقرعا الباب فبرز لهما شاب مفتول العضل كأنه هرقل. فلما سألاه حاجتهما، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع.

قال الشاب المفتول: "إليكم أيها الإخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً في قريتنا هذه، ولولا طول الحذر ما ذقتم الليلة رجل دجاجة.... إنهما يطلبان مبيتا وعشاء، ولا أدري لم لم يقصدا إلى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير؟! وحيث أشياء أخرى....".

وقهقه السمار وتككبوا حول الغريبين، ثم أخذوا معهما في ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل. هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ، وذلك برفع ذيل الفتى مما وراء، وهذه تعانق الشيخ وتقبله وتقدم له كأساً من الخمر، وتلك تركب الفتى "زقفونة!"^(١).....

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات، ثم غابا عن أنظار الجماعة، كأنما تحولا إلى هواء...؟ فشده القوم وأوجسوا خيفة.

* * *

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان في شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطُردا شر طردة وأخسها، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده في هذه الرحلة المضنية في ذلك البلد البخيل.. فقال له:

(١) لم تعرف غير هذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الإنسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسط والعنق وابتكرها أبو العلاء في رسالة الغفران فنقلناها عنه.

"اذهب أنت فساتنظرك على هذه الصخرة النائية في حيد الجبل، وسأتسلى بموسيقاي حتى تعود، فقال الشيخ: "وحكمتي التي أردتك أن تراها بعينيك؟ هلم، هلم... أترى إلى ذلك الكوخ، لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا".

وكانت في الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت. فلها نظر الفتى تتم يقول: "أبتاه! امرأة مهدمة وشيخ محطم، أيا لبؤس الحياة، ويا للطف العيش! لماذا أثرت العاصفة يا أبي؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما...".

- "سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى".
- "ماذا تعني يا أبي؟ هل تهدم القرية؟".
- "صه! هلم فاطرق باب الكوخ".
- "قم يا فيلمون.. إن بالباب طارقاً..".
- "نامي يا بوسيز! إنه البرد ترجم به العاصفة".
- "لا. ليس برداً. اسمع! أناس ينادون. قد تكون بهم حاجة".

ونهض فيلمون متهاكاً على نفسه ففتح الباب. وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء.

- "مرحباً مرحباً... أنتما في حاجة إلى دفء. بوسيز. انهضي يا امرأة فأوقدي ناراً. أنا أعرف أن الحطب مبلل، ولكن حاولي.. مرحباً يا كرام ومعدرة، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر.

بوسيز، هاتي قربة النبذ أولا.. ليس فيها إلا صباة! لا بأس، فسيارك زيوس للضيفين فيها.. هاتي شيئا من المشمش الجاف يا امرأة!..".

وتأتي بوسيز بقربة النبذ، وما يكون فيها إلا ثمالة، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء، فيتمتع فيها بكلمات فمتلئ نبذا من خير ما عصر باخوس، وبعد أن يروى منها هو وابنه، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول: "بحق زيوس إلا ما أخبرتي أيها الصفي الصالح من أنت؟" فيقول الشيخ: "أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار، وهذا ابني الموسيقي البارع. أتطرب للموسيقى؟".

ويهتز الرجل، ويوقع الفتى على قيثارته لحنا كأنه لسان العاصفة، فما فيها من سنا برق، وهزيم رعد، ومكاء ريح، وتنقير مطر، ثم هو مع ذاك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب.. وطرب فيلمون، ورقصت جوانح بوسيز، وأحضرت طبقا به قليل من المشمش الجاف فقدّمته للفتى، ناسية أن تقدمه إلى الشيخ، وهذا من أثر الموسيقى في أعصابها، ثم قدمته إلى أبيه في أدب واحترام.. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة، وتضاعفت في الطبق حتى ملأته. فأكل الشيخ، وأكل ابنه، وأكل فيلمون وزوجته، وهما لا يصدقان ما يريان!

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم، فكان القليل يزداد والمشغوف يتضاعف. وكانت لديهما إوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين، ليريا ماذا يكون من أمرها. ولكن الإوزة فرعت فرعاً شديداً، وانطلقت في ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه. فابتسم، وربت على ريشها الناعم النظيف، وأجارها من سكين فيلمون.

وكان نسيم السحر قد أخذ يهب في الأفق الشرقي، فقال الشيخ:

- "أيها العزيز فيلمون. أيتها التقية الكريمة بوسيز، من إلهكما!"

- "إلهنا زيوس تبارك في علياء الأولمب..".

- "أو يسركما أن يكون معكما الآن؟".

- "معنا؟ هو دائماً معنا!"

- "أجل هو دائماً مع عباده المخلصين. ولكن، أيسركما أن

تكونا في حضرته يحدثكما وتحادثانه؟".

فيصيح فيلمون:

- "أنت هو زيوس. تقدست. تقدست".

ويسجد الرجل وزوجته، وما تفتأ تأخذهما رعدة شديدة.

- "أجل. أنا زيوس. أتيت أبتي هذه القرية. وهذا ولدي

هرمز. انهضوا. والآن سترزّل الأرض زلزالها فلا تنزعجا..".

ووقف زيوس، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق، ثم إلى

الغرب، ثم إلى الجنوب، ثم إلى الشمال، ثم نظر إلى فوق وتمتم

بكلمات وجلس.

وما كاد يفعل حتى رققت الأرض، وسمع كأن الجبل القريب يندك، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها، وتتقلب القرية إلى بحيم ملتهب، وكلها أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال، فيطمئنهما زيوس.

- "الكوخ يا إلهي! أنا رجل فقير!".
- "مال كوخك يا فيلمون؟!".
- "إذا انهدم عشت في العراء!".
- لا عليك! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة".

وأشرقت الشمس، فنهض الإله الأكبر، ونهض الجميع معه. وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب، وارتد على عقبه مدعوراً:

- "مولاي! لمن هذا القصر المشيد؟".
- هو لك يا فيلمون، أمرت الآلهة فبني لك في ساعة السحر جزاء كرمكم. هلما نشهد غرفاته".

وانطلق الجميع يتنقلون في غرفات القصير وردهاته، وكلما مر فيلمون وزوجته بتمثال إله سجداً له وأخبتا، حتى إذا كانوا في أكبر ردهات القصر، وقف زيوس وقال: "فيلمون، هذا هيكلي! وقد جعلتك كاهني الأكبر، فتمن الآن عليّ، فسأجيبك إلى كل ما تطلب".

فتبسم فيلمون وقال: "مولاي! الشباب يا مولاي! ليعد الشباب إليّ وإلى زوجتي بوسيز، ولنعش طويلا، فإذا جاء وعدك فلنمت في يوم واحد وفي ساعة واحدة!" وسجد يقبل الأرض بين قدي الإله الأكبر!

فقال زيوس: "انهض يا فيلمون فطلبك مجاب، وستعيشان راغدين!".

* * *

وسلم الإلهان، ثم غابا عن الأنظار، وخرج فيلمون وزوجته ليريا إلى القرية، فلم يشهدا شيئا غير بحيرة تعج أمواجهما، وجزيرة كبيرة خضراء في وسطها قصرهما المنيف! فأما بزيوس وسبحا له! وعاشا طويلا واستمتعا بشباب دائم، وماتا في يوم واحد وساعة واحدة، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكرهما في العصور.

* * *

غرام أورورا

رأته على رمال الهلسبنت^(١) يرتع ويلعب، فوقفت تملأ عينيها وقلها
بجماله، ثم نظرت إليه وهو يداعب البحر المضطرب، ويتواثب فوق
عبابه الزاخر، فسحرها قوامه، وفتنتها قسماته، ونسيت أنها ربة الفجر
الوردية الهيفاء، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب
- تيتون بن بربام ملك طروادة - جمالا وأشد فتنة، وأخلق بحب
ربة جميلة لعب مفتان مثل أورورا... ولكن ماذا يصنع أهل هذا
العالم في قلوبهم، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده؟ يستوي في ذلك
الأرباب وغير الأرباب.

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج، فتقلب نفس أورورا في جحيم من
الهوى، وتتلظى في سعير من الحب، وتنجذب نحو الفتى الجميل المقتول
بكل ما فيها من نورانية وقداسة.. وكان يبرز من الماء ليستجم على
الشاطئ الناعم الوداع، فتكاد تجن به، وتود لو ترشف قطرات الماء
التي تنحدر على جسمانه ذي العضل، وتتلأأ في ثنايا شعره الأسود
الفاحم.

وظفقت توسوس لها نفسها بالأمان! وتزخرف لها الأحلام،
فصممت أن تتكشف له، وتبرج على مقربة منه، وتدل وتميس،
عسى أن تأسر له، وتسي قلبه، فيسلس قياده، ويخذل فؤاده، دون
مشقة أو عناء..

(١) مياه الدردنيل.

ولكن تيتون أبى، واستكبر قلبه أن يلين، ولم يستطع ذلك المرمز
الناصر الذائب في ساقها، ولا هذا الورد المتفتح في خديها، ولا
الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثديها، أن ترقق من عناده، أو
تنتصر على فؤاده، أو تسكب في نفسه صباة أو هوى.

- إذن أنت ماذا تشتهي؟!
- أشتي ماذا أيتها الغادة؟ اذهبي فاعرضي مفاتنك
الرخيصة على غيري!
- ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا؟
- أورورا؟ كيف؟ ما يدريني؟
- أجل أنا أورورا... انظر.
- وأخذت ترف في الهواء، وتسبح في السماء، وتغوص في الماء، وتأتي
من آيات الإعجاز ما بهر تيتون.

- الصفح إذن يا ربة؟!
- لا صفح إلا أن تهب لي حبك، وتلقي بين يدي قلبك!
- وكيف وأنا بشري عاجز، ولا ألبث أن أفنى في بضع
سنين، وهذا أبى الضعيف الشيخ قد خطب لي حسناء
من بنات الملوك؟

- "أما أنك عاجز فلا، وأما أنك لا تلبث أن تفنى في بضع
سنين فسأهبك الخلود، وسيخلعه عليك زيوس سيد
الأولب فلا تموت أبداً، بل تحيا كالألهة إلى لا نهاية
الأزل، وأما أبوك الضعيف الشيخ،

فلا أحب إليه من أن يراك في كل ما ذكرت، ولا سيما
إذا علم أنني سأكون لك من دون هذه الفتاة التي
خطبها لك، والتي لا تلبث أن يخط الشيب رأسها،
ويعصر الزمان عودها فتجف وتذوي، وتحملها أنت
كأثقل الأعباء إلى القبر حيث الدود والذباب...".

— ولكن.. ألا تأذنين لي في لقاء أبي؟

— لن يكون هذا أبداً...

— هذه قسوة ياربة!

— ستفتنك هذه القسوة بعد قليل.

وانطلقت تداعبه وتلاعبه، وتضاربه وتغلبه، حتى زالت عنه
وحشته، فأنس لها، وأقبل بكل مشاعره عليها، واتفقا على الرحيل
من فورهما إلى أولمب، فانطلقا يطويان الرحب.

— من هذا يا بنية؟

— ...؟...

— صيد جميل، ومجازفة جديدة، أليس كذلك؟

— أجل يا أبي.. وليست مجازفات أبنائك أروع من
مجازفاتك..

— مجازفاتي أنا؟ أية مجازفات يا أورورا؟

— مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعايب من
عبادك.

— أي غيد رعايب يا أورورا؟ تلك جراءة بالغة!

- لعل الإله الأكبر، سيد الأولمب، قد نسي! وعلى كل حال فسيده الأولمب، هيرا العظيمة، لا تنسى.. لقد شهدتك تلهو مع يو، وتعبث مع لاتونا، وتساقى كؤوس الغرام مع يوروباء.. و.. و..

- اسكتي.. إنك ابنة لا خير فيك.. وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرائق الجميل يا أورورا؟

- الخلود.. الخلود يا أبي.. ينبغي أن يعيش أبداً.. لن يموت.. ألا تراه جميلاً يا أبتاه؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوي، عبقرى سمهري؟ لقد لقيته عند شاطئ الهلسينات، ورأيتة يشق اليم فعلقه قلبي وهوته نفسي.. وكان الموج يلفه في أعرافه، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلهما، فلما خرج من الماء رأيت الدنيا كلها تحف به، وتغازله وتناغيه، فلم أر أن يفوز به غيري، ولا أن يستأثر بجماله سواي، وقد رضي أن يتبعني إلى أولمب، فتفضل أيا أبتاه وامنحه الخلود، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة. وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً.. ينبغي أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون.. أليس كذلك يا أبي؟ أليس خليقا بالخلود كالآلهة؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي الأولمب، وتفضل رب الأرباب فنحه الخلود.. وا أسفاه! ألا ليته ما فعل.. ألا ليته ما فعل!

قال زيوس وهو يحدث نفسه:

"اذهي يا أورورا، سأعذبك بهذا الحبيب، وسأنتقم لكبريائي منك، وسيكون تيتون عبئا ثقيلا على قلبك وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتيت، وسأعلمك كيف تستيحين أن تكلمي أباك كما فعلت.. فوغزتي وجلالي لأعذبك بألف حبيب وحبيب!".

* * *

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون (١) فكان لهما كالقبة الحلوة فوق نفر الحياة الباسم.

ومرت الأيام وأورورا جميلة وردية كما هي، لأنها ربة، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداته لا تنطبق على الآلهة؛ لأنه لا أول لهم ولا انتهاء، فأورورا جميلة دائماً، وردية أبداً، لا يني قلبها يخفق بالحب وينشده، ويهم بالجمال ويفتقده، ونفسها عاشقة وامقة كذلك، وأن أمانى الغرام تجيش في صدرها دواماً، فهي إن خلت إلى حبيبها تيتون ألزمته فنونا من الغزل، وضروباً من النجوى، إذا صبر لها الشباب، واحتملها الصبا، فليس المشيب بصابر لشيء منها، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها، ولا له جلد على أفانيتها.

- ما هذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي؟

(١) قتله أخيل في حروب طروادة.

- "أية شعرة بيضاء يا أورورا؟ ربما كانت نذير المشيب يا حبيبتى!
- "المشيب؟! كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك! ماذا تعني؟
- - آه! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب، أما نحن، معشر البشر، فسرعان ما يذهب صبا، ويولى شبانا، فنشيخ ونهرم، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه أبر الشوك، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسعى بين أيدي الكهول ليشق لهم ظلام القبور!!
- يا للهول؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني!
- اطمئني! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر. أليس قد وهبني الخلود سيد الأولب؟
- بلى! ولكن...
- ولكن ماذا؟
- هذه الشعرة البيضاء التي قال فيها شعراؤكم ما قالوا؟
- الشعرة البيضاء؟ مالها هذه الشعرة البيضاء؟ ليست شيئا ما دام سيد الأولب قد وهبني الخلود، إن الذي أفرع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة؟
- ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا؟
- آه! قد فهمت ما يوسوس في صدرك؟ ألم أعد جميلا يا أورورا؟

- بل أنت لا تزال جميلاً يا حبيبي.
- إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء.

* * *

وتمتعا سنوات أخريات، ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب، ولم تعد لطرة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللهعة، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام في قلوب العذارى... بل حال^(١) لونها الأسود الفاحم، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر^(٢) ذي أسارير، يبعث الرهبة في أفئدة الشياطين!

- تيتون!
- نعم يا حبيبي!
- لا! لا! لا تنادني بهذا النداء.
- ولمه؟
- لم يعد يصلح... لقد اشتعل رأسك شيباً، وتغضن جبينك، وترهل خداك، وبرزت عظامهما، وغارت عيناك جداً، وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض، والصبي الغريض^(٣).
- وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون! وي! مالك تخني

(١) تغير.

(٢) مقطب.

(٣) الغض الطري.

هكذا؟ هل ضاعت منك دُرّة ثمينّة، فأنت تبحث عنها في
أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ؟ آه! بل ضاع منك
شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه في هذا الثرى!

- حسبك يا أورورا.. حسبك! يا ربة!
- "لا، أبداً، ليس حسبي، اغرب عني أيها المسخ الشائه!
ظل في مقر الدار حتى أردت إليك".

وانطلقت ربة الفجر الوردية غضبي صاحبة، وذهبت تطوي القيافي
وتهم في الرحب حتى كانت من غير قصد عند شاطئ الهلسبنت،
حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشاب تيتون بن بربام ملك
طروادة، منذ نصف قرن من الزمان!! أواه تيتون!! يا للذكريات
الحلوة التي تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائم!!
هنا، على رمال ذلك الشاطئ الهادئ، وبين طيات ذلك الموج الذي
يبدو كأنه لم يتغير، رأت أورورا الوردية تيتون البارع، وشعره
الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الواضح، ثم لا يلبث أن يستوي
حين تمر عليه أمشاط الأمواج. وهنا.. ثارت عاصفة الغرام القديم في
قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة، وشب لظى الحب ملء
جوانحها... وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون
الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من
سبيل، حتى تقلبت تحت قدميه، وتبرجت بين يديه، فرضي ما
عرضت عليه، وانطلق معها إلى أولمب! فمالها اليوم غضبي على
تيتون؟

مشت على شاطئ غرامها الأول، فثارت في فؤادها الذكريات، وأرسلت عينها تفتشان بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة، التي تطفو هناك.. هناك فوق ذاك الشبح كحلم جميل.. صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه، ويغالب اللجة فينتصر عليها.. ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلئ بالذكريات.. وطفقت تبكي!

لا ريب أنها عنفت نفسها على ما صنعت أمس مع تيتون! ما ذنبه؟ ما جريرته؟ بأي حق تعي عليه شيبته ولا يد له فيها؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لأن جبينه تغضن وامتلاً بأسارير الكبر؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الفأرتين المنطفئتين! ولم تذكره بشبابه وتهكم عليه، فتقول له إنه يبحث عنه بعكازه في التراب؟

لا ريب أنها كانت قاسية، ولا ريب أنها لامت نفسها؛ لأن كل تلك الأفكار ترددت في أعماقها، وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت...

* * *

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البأس الهرم، فهشت له وبشت وراحت تملق له، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشوه والدمامة، فقبع في ركن سحيق تحمل أوضاع السنين وتوء بكارئات الليالي.

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين، ولكن للآلهة^(١) كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال، ومدى غير واسع من الصبر، وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون، والضيق بشيخوخته الثقيلة، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التي لقيته فيها، ونوبة الجنون التي جعلتها تتورط لدى سيد الأولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود.

- وفيم كل هذا الحزن يا أختاه؟
- وما العمل للخلاص منه؟
- أنت المخطئة، ذلك لا ريب فيه.
- مخطئة! وكيف؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة؟
- ليس هذا ما عنيت.
- إذن كيف كنت مخطئة؟
- لأنك سألت سيد الأولمب أن يهب حبيبك الخلود، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه، ويحفظ عليه صباه.
- إذن كنت تمتعت بجماله الفينان أبد الحياة!! أليس كذلك يا أورورا؟
- بلى، هو ذاك ولكن.. لقد سبق السيف العذل!
- على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسي..

(١) ليذكر القارئ أن القصة من أساطير اليونان.

- أجمل من تيتون؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء؟
- لا أيسر من ذلك: اسخريه؟
- أسخره؟! آه ؟ فكرة يا أختاه! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذي عنيت أنه أجمل من تيتون؟
- وي!
- لا بد من صيد آخر قبل أن يطلق سراح الصيد القديم؟!
- إذن فاذهي إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه!
- ثم...؟
- ثم عودي فاسخري تيتون واخصي منه!
- وماذا ترين أن أسخره إليه؟
- إنه عجوز هرم يدب على عكاز.. ألا تسحرينه جندباً^(١)؟
- بلى! فكرة نابغة يا أختاه!

* * *

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعي فهوته وشغفته حباً، أما تيتون فيا ويحه، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى! إنه لا يزال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب في الحقول والغيطان^(٢) بعد أن سخرته أورورا.

(١) نطاط.

(٢) السهل المظمتن الواسع من الأرض.

بجماليون المثال أسطورة الفنان الذي عشق. تماثيله

في مدينة أماذيس، الراقدة كالحمل بين مهاوي الجبال على شاطئ قبرص الجنوبي، كان يعيش المثال بجماليون عيشة كلها عزوف عن العالم، وانزواء عن مشاغل الحياة، وهرب من الناس. كان يأوي إلى مثله إذا تنفس الصبح، ويكب على عمله حتى توارى الشمس بالحجاب، فيأوي إلى فراشه، سادر النفس، محموم القلب، مكتئبا حزينا.

ولم يكن حزنه من نوع هذه الأحزان التي تتعارفها قلوب أبناء آدم، بل كان حزنا فريداً في نوعه، غريباً في أسبابه، شاذاً في دواعيه، حتى لنحسب أن أحداً من الناس لم يشق بمثله من قبل.. ولا من بعد.

كان في بجماليون صدود عن الناس شديد، لا يراهم جديرين بتودد، ولا خليقين بمؤاخاة. ومع أنه كان يضفي من عبقريته على تماثيل الآلهة التي طالما تفننت فيها يد الصنّاع، فكان يخرجها على نسق الفاتنات الحسان، وفي سمات الغيد القيان، فإنه لم يصب مرة إلى امرأة، ولم ترتبط أسبابه بفتاة. فكأنه كان يسمو بحبه على النساء، وإن كن في الحقيقة صاحبات وحيه، وفيض نبوغه، واللمع الخاطفة التي يتجه شطرها مثله الأعلى..

ولم تكن هذه الحياة الصحراوية التي يحياها لترضيته، ولا تلك المعيشة الآلية التي أغطشت أيامه لتتقنع خياله الخصب، وقلبه الرحب. لقد كان يقف منقبض الصدر، مغلول الروح، أمام هذه الدمي الصامتة، والتماثيل الخرساء، التي صنعها لأبوللو، ومينرفا، وديانا، وكيوبيد، وفولكان؟

ولقد كانت المناحت والأزامل، والمثاقب والمناشير، والمبارد والمناعم، وكل عدده تثير في نفسه السخط على الحياة، والبرم بالأيام، كلها فكر في حاله فعلم أنه يحيا بلا حب، ويعيش بلا أمل، ويعمل بلا غرض، ويسعى إلى غير مطمح!

وبينما هو في يقظته النائمة هذه، إذا بجارين يحملون رخامة كبيرة، على جراحة ضخمة من هذه الجرات الثقالة، التي ترى كثيراً في محاجر اليونان، ثم يقفون أمام الممثل، ويطرقون باب الجماليون، فينقدهم ثمن الرخامة، وينصرفون كل إلى طيته، وكأنها كانت هذه الرخامة، على ثقلها الهائل، وحيّاً خصباً من السماء، أو آية من آيات الأولمب، هبطت على هذا المثل المهموم، فبدلت بؤسه أملاً، وقنوطه المظلم رجاء نير الآفاق! فإنه لينظر إليها نظرات تشف عن التمثال الرائع الذي سيولده منها، وإنه لينزع ملابسه، ويضيف عليه ملابس العمل، ثم يتناول أزميله ومنحته، ويهوي على الرخامة مستلهما الحول والقوة من "فينوس!!".

"يا فينوس الجميلة، يا ربة الحسن والحب، يا من تسبح لك القلوب العاشقة، وتلهج باسمك النفوس الوامقة، ياسر الورد الجميل، ونسمة الفن الضاحك! يا أم كيوييد الحالم، وبنت ديون^(١) الباسمة، يا فينوس الجميلة، العون، العون، يا فينوس!"

* * *

وهكذا لبث هنية يصلي، ثم أخذ في عمله، وكأن فكرة تنزلت علي فؤاده، وامتزجت بشغاف قلبه، فراح يصورها ويمثلها، في هذه الرخامة النقية كالندف، البيضاء كالثلج، بل كأنما استجابت فينوس ربة الحب لصلاته، فأودعت في يده نفحاتها المباركة. فما دق دقة، أو نقر نقرة، إلا وتمثل فينوس الجميلة أمامه، ناذراً لها هذا التمثال، برغم التماثيل البارعة التي نحتها لها، والتي تملأ معابد اليونان وأقداسهم.

وأقبل على عمله بروح جديدة، ويد لا تكل، فلم يكن يحول بينه وبينه إلا الليل يرخى سدوله، وإلا سنة من النوم ترقص في جفنيه، فإذا نام ثابعت الرؤى، وتلاحقت الأحلام، كل منها يبدي له ناحية كان يجهلها من جمال فينوس!

ولقد بدا له كفنان، أن يروح عن نفسه بيوم يقضيه في الأدغال، وبين مسارب المياه، لكي يجدد نشاطه، وينعش ما نهد من ذهنه،

(١) في الميثولوجية اليونانية أن زيوس كبير الآلهة كان مزوجاً، وزير.. ربات. فمن زوجاته ديون التي أولدها فينوس.

وخبا من خياله، لطول ما أكب على العمل، فانطلق ذات صباح إلى سيف البحر يناجي أبوللو، وهو يوقظ الشمس من خدرها فتعاونه في مركبتها الذهبية الأثباح، وظل يعلو ويهبط، ويروح غادياً إلى هناك، حتى شارف أن ينتهي، وعأوده هواه الملح، فندم على ما قتل من ساعات في هذه الراحة الخاملة، والفسحة الباطلة، فعاد أدراجه إلى الممثل مستغفراً في طريقه الطويل فينوس!

ووصل ما انقطع من عمله، فكان يستذكر أحلامه ليضيفها على التمثال، ويستوحي السماء فتلهمه من أديمها الصافي، وتشيع في يديه وقلبه بطهرها ونقائها، لتنتقل من ثمة سحراً وفتنة فوق تلك المضلة، وتحت ذياك الإبط، وبين انفراج هذين الثديين، وبالقرب من العكن، وحول الفخذين، وعند هذا الأنف الإغريقي الأشم، وملء ذاك الذقن الدقيق، والعنق الرقيق، ولفطة الحدقتين، وانفراجة الشفتين، وتبسم الثغر، وتكويم الشعر، وتمليس الردف، وتدوير الكعبين، وتنعيم العقبين.. وتباركت يا فينوس!

وكان بجاليون يحس الحياة تسيل من أزميله الحنون، فوق هذا الجوهر المكنون! وكان يتقدم فينظر، ويتأخر فيرى، ويميل من هنا وينثني هناك، ثم يهبط إلى علٍ، وينحني إلى أسفل، ليتفقد التمثال من جميع نواحيه، فإذا رأى؟ لقد استطير من الفرح، ومادت أعطافه من الخيلاء! ولكنه سكن قليلاً، وانطلق يتحدث إلى نفسه:

"ويحيي!! لم صنعتك أيها التمثال، ما دمت قد بلغت هذا الجمال ولا نتكلم؟ أنا بجماليون ألتمس، الذي يعيش في هذا العالم القفر، وعلى هامش تلك الدنيا المجدبة، لا أنيس لي، ولا قلب ينبض بحبي، فينبض قلبي بحبه، ولا نفس تصلي لي، فأصلي من أجلها! تكلم أيها الرخام الصامت، وانفرجا بكلمة واحدة أيتها الشفتان الساحرتان! أنا بجماليون! أنا صانعك أيتها الأنتى المتحجرة.. تكلمي، ردي عليّ، فوحق فينوس المعبودة لقد أودعتك سر روحي، ولغز حياتي! أوه، ألا تردين على بجماليون المسكين؟ آه فينوس! النجدة يا فينوس! أنا لا أصلي إلا لك يا فينوس.. الغوث الغوث!..".

وظل المسكين مُكبًّا على هذه الدمية التي صورها بقلبه كله، وروحه جميعها، يشكو إليها كأنها تسمعه، ويبحثها كأنها تصغي إليه، ثم انتهى حاله إلى هيام شديد، وحب ودنف، ولوعة وصباة، وانقلب عشقه المبرح إلى لون كاسف من الوجد، وضرب شديد من أمرّ ضروب الحزن، مصدره العقل الحائر والوجدان المضطرب.. إذ كيف يعيش هذه الكتلة المجسمة من الرخام، وهي مما صنعت يداها؟ وأي أمل له في هذا العشق الشاذ؟ لا ريب أنه ضرب من الجنون، ما له من ضريب!

ولج به هواه، فأحضر عصبة من الحمالين الأقوياء، نقلوا له تمثاله إلى ردهة الآلهة - كما كان يسميها - وهي صالة واسعة في الطابق الثاني من البناء الذي فيه مَثلُه، وقصد إلى أمر الصاغة وتجار الآلئ، فاشتري ما وسعه من الحلي البالغة والجواهر النفيسة،

وعاد فقرط الأذن، وقلد الجيد، وتوج الرأس، ثم هام في المروج
الخضر، والحدائق الغناء، يجمع الورود والرياحين، كيما ينثرها تحت
قدمي التمثال!

وتحولت الردهة إلى معبد من معابد البوذية المقدسة، بما عكف يحرقه
من مقتنى الزند، وفواح الرند، في مباحر المرمز الجميل الصفة حول
قاعدة التمثال.

وتلف تلفاً شديداً من الغرام العجيب، فلم يكن يكتفي بالعبادة في
الحب والخبوت بين يدي ذلك الصنم المنتصب للفتنة، بل كان
يشركه في كل أمره، ويعرض عليه جميع شأنه، حتى القراءة! فطالما
كان ينشده من دواوين الشعراء ما جادت به القرائح وشدت به
الألسن وتغنت بألحانه قلوب العاشقين!

معذور بجماليون! لقد تعب وراء الحب، ولكنه لم يلق هذه الغيداء
الفاتنة، التي تستطيع التسلط على مشاعره، والهيمنة على فؤاده، وكان
يتخيل روعة الجمال فلا يجدها مجتمعة إلا في هذا التمثال الذي نحتته
لهذه الأنثى، فعبده، وراح يتمنى على الآلهة الأمانى، أن تنفخ فيه من
روحها، وأن تهبه الحياة ونعمة العيش.

* * *

وبينما هو نائم في هدأة فجر اليوم التالي، إذا به يصحو فجأة على لغط
شديد، وهرج عالٍ في الشارع الذي يقع فيه بيته. فينهض إلى
النافذة، ويرفع الستر، ويفتح أحد المصاريع قليلاً، ثم يحني رأسه
ليرى.

وإذا موكب زاهر من غوغاء المدينة يحملون تمثالا كبيراً من تماثيل فينوس التي صنعها بجماليون، وإذا الدهماء ينشدون الأناشيد الشعبية، ويرسلون في غبشة الصبح أغانيهم (الشعبية) الجميلة.. وكان من عادة سكان أماذيس أن يحتفلوا بالربة فينوس ثلاثة احتفالات يفاجئون بها النائمون ثلاث مرات كل سنة، فلها عرف بجماليون أن الحفل حفل فينوس، أسرع فارتدى أبهى ملابسه، وجمع بعض باقات الزهور المبعثرة تحت قدمي تمثاله، وهروا على الدرج، ثم انفتل في الشارع، واندمج في صميم الشعب الذي يلهج بالصلوات والأدعية باسم فينوس. ثم ما هي إلا هنية، حتى كان بجماليون يهتف كما يهتف الأطفال والسذج، ويردد من الصلوات ما يرددون.

ولم لا؟ هل لحظة من الزمان هي خير من هدأة الفجر ترسل فيها الصلوات على أول أوراد الصباح، إلى آلهة السماء، وأرباب الأولمب، فتسمع وتلي؟

وكان كل همه أن ينتهي هذا الحشد الهائل إلى المعبد، حيث يستطيع أن يرتل دعاءه، ويتم بصلاته.

وقد تنظر حتى فرغ الكهنة من جميع الطقوس التي اعتادوا أن يقوموا بها في مثل ذلك اليوم، وأخذت الجماهير تنصرف هاشة مستبشرة، كأنما غمرتهم نفحات خالدة من فينوس. ولما لم يبق في المعبد إلا كهنته، وأفراد من الأتقياء الصالحين، يصلون صلاتهم، ويغمغمون بأدعيتهم، تقدم بجماليون في روعة التقى وخشوع الورع،

ووقف خابئاً أمام المذبح، حيث تصاعد ألسنة البخور المعطر، حاملة الأرج الشذي من لهب المحرقة إلى السقف.. والجف، فتكسب الهيكل جوه القدسي البديع. ثم ألقى في اللهب بحفنة من فتيت الكافور والمسك، وطفق يرتل هذا الدعاء الطويل: "فينوس الكريمة البارة، يا ربة الحب الطاهر، والهوى البريء، أيتها القديرة على كل شيء، المتصرفة في حدود العاشقين، وحظوظ المدنفين: أصغي إلي، ولا ترفضى دعائي: منذ اهتديت إليك، وأنا عبدك القانت لك، الهاتف باسمك في الغدو، المصلي لك في الآصال، لا أني عن ذكرك، ولا يفتر لساني عن التسبيح لك، والنسك من أجلك، باسمك أقبل على فني، ومنك أستلهم وحي العبقريّة، فأنت لي قبل كل شيء.. ولقد أيقظتني صلوات الشعب لك من أحلامي الجميلة بك، فلم أطغ ولم أستكبر، بل هرعت إليك، أتوسل بك، واتمس البركات منك خنانيك يا فينوس!

حنانك يا ربة الحب، وجابرة القلوب الكسيرة، والنفوس الحائرة! أنت - من غير ريب - تعلمين ما ألمّ بي من برح هذا الهوى الطارئ، وما تام قلبي من حب هذه الدمية التي صنعتها باسمك ونذرتها لك، فدهلّنتني، وشدهت روحي البلبلة، وصارت لي أعذب الأمانى وأعز الآمال. وهي بعد رخامة لا روح فيها ولا نامة، أكلها فما ترد، وأناجها فما تجيب، وأغني لها فما تبسم! أنت قديرة يا فينوس! فانفخي فيها من روحك، وانشري الحياة في أركانها، وامنحها النبضات والأنفاس.

حنانيك يا فينوس! وسلام لك من قلوب العاشقين!".
وما كادت صلاته تنتهي، حتى انهمر الدمع من عينيه يروي قدمي
التمثال المنتصب في المحراب. فانبعث الشرر عالياً من المحرقة، حتى
أضاء قبة الهيكل، والتمتع في جميع أرجائه، وأقبل الكهنة والمصلون
بباركون بجمالون ويهنئون، لأن انبعث الشرر هكذا، عقب الصلاة،
هو في اعتقادهم دليل رضى الربة، وآية تليتها واستجابتها!!
ولكن مثلاً لم يشعر بقلبه يثلج، ولا بنفسه تهدأ، بل على العكس
أحس كأنما الحياة تندجى أكثر من قبل، ويحلوك كل شيء في
عينيه، وشعر بعد ذلك بقنوط قاتل ينفذ إلى صميمه، فيطنئ فيه ما
رجى من الآمال البيض، والأمانى العذاب! فتعثرت إلى الباب غير آبه
لما حوله من الآس المنضود في أنحاء المعبد، والزهر المبتوث في صحنه
الرحيب، وما برح بين ونى وبطء حتى باب منزله، فوج متساقطاً
على نفسه، وانبطح على أول سلايم الدرج لا يحس ولا يعي!

* * *

وغفا إغفاءة مريضة، فبدا له أن يحمل أرزبة هائلة، يهوي بها على
رؤوس الدمى، ويحطم بها التماثيل المنتشرة في ردهة الآلهة.. إلا
تمثال فينوس الجديد، المرصع باللائى واليواقيت! ففزع فزعة مروعة،
ونفض يعدو إلى الصالة، يتفقد التماثيل.. فما راعه إلا أن يسمع
صوتاً رقيقاً يناديه:

"بجمالون... بجمالون... ارق إلى هنا... هلم إليّ!!".

من؟ صوت من هذا؟ إنه صوت مرمرى لا عهد لبجمالون به!!

وقفز قفزات كان بها في الطابق الثاني، ونظر فلم يجد تمثاله الحبيب في المكان الذي غادره فيه... "أين؟ ويحي! لصوص!".

ولكن الصوت الرقيق الرنان عاد يطن... ويرن "لا، ولكنها فينوس!" والتفت بجاليون فرأى غادة هيفاء في طبق تمثاله ونسجه، متكئة على الأريكة التي طالما وضعها أمام التمثال وأنشد عليها الأشعار؟!

"من أنت أيتها المعبودة؟".

"لست معبودة، ولكنني هبة فينوس لك! أنا جالاتيا تماثلك المكنون!".

وكيف؟ أنا لا أصدق. هذه خديعة لا شك!".

"وكيف تخدعك السماء يا بجاليون؟ أتريد أن تكفر بآلاء فينوس؟".
"لا.. لا.. لا أريد أن أكفر.. وحاشاي.. ولكن كيف صرت إنسية؟ ومن وهبك الحياة!".

"هذا سر فينوس. وهذه قبلاتك لا تزال مطبوعة على قدمي!".
"يا للسعادة!".

"انظر إلى هاتين الشفتين القرمزيتين، وهذين الخدين الموردين، وتينك العينين الزرقاوين. هل استطعت أن تموه تماثلك بهذه الأصباغ الفينوسية؟".

"وانظر إلى الأنفاس الحارة التي تتردد في صدري، هل وسعت مرة أن تبعثها في إحدى دماك؟".
"حاشا. حاشا".

"إذن فهلم إليّ أحدثك حديثي".

فدنا منها بجمالين المشدوه.

- بجمالين! لقد استجابت فينوس لدعائك، وقبلت

صلاتك، وحضرت إلي هنا إذ كنت أنت في الهيكل

تبكي وتنتحب، فمنحتني الحياة، وعلمتني من العلم ما لم

أكن أعلم.

- "ولكن كيف بحق فينوس عليك يا جالاتيا".

- "كنت منتصبه كما وضعتني على تلك القاعدة الناصعة،

فأحسست حدقيّ تتحركان، وإذا بي أرى فينوس الجميلة

أمامي، تأمرني أن أدلف نحوها، ففعلت، وكنت أحس

كأن ثلجاً ينفذ من كياني، وأن حرارة تشيع في أركانني،

وكانت فينوس تقول لي.. "تعال.. تعالي، وكوني ربة

هذا البيت، احميه واحرسه، وانشري السعادة فيه! تعالي

ألقنك دروس المحبة والحياة.."، ثم إنها نفثت في أذني

نفثات تعلمت بها هذه الكلمات. وأسبغت عليّ هذا

الثوب الحريري الذي لا بد أنك قد رأيته على تماثيلها في

الهيكل.. ليشهد لك أنها هي التي منحتني الحياة..

ومنحتك الحب!".

- "وماذا؟ وماذا يا حبيبتي جالاتيا؟".

- "ثم تقدمت إليّ فناولتني قبلة مشتهة لن أنسى ما حييت

أسرها، ودعت لي ولك بالوفاق الأبدي، والإخلاص

السرمدى، لنكون آية السماء في هذه الأرجاء!
وابتسمت ابتسامة أرق من أطباق أوراق الورد، ولم
أعد أراها..".

وأتمت جالاتها حديثها، فاستقر بجماليون في أحضانها!

* * *

ثيذوس يقتل المينوتور ويخلص أثينا - لعب يثير حرباً

كان الملك أيجوس، ملك أثينا، في شرخ صباه وعنفوان شبابه، زير نساء وأخا شهوات، وكان ذا نبرات تكاد تسعى به إلى حتفه.. بظلفه..

ذهب مرة يجوب ريف مملكته، فلمح وجهاً مشرقاً ينبثق من كوة كوخ في إحدى القرى، تراقص حول ثغره الصغير بسمات من رسل الحب، وتنطلق من عينيه النجلاوين نفثات تصرعن ذا اللب.. حتى لا حراك به..

وطرق الباب يستسقي، وما به ظمأ، فامتدت إليه ذراع عاجية لدنة تحمل كوباً من البلور، مفعماً برحيق الحب، وإن لم يحو غير الماء القراح!

وتناول الكوب ولبث لحظة يشرب ما فيه بعينه، دون أن يمتد فيه إليه، ثم أرسل زفرة دفعت الباب فانفتح على مصراعيه، ودخل غير مستأذن فروى فيه وبرد قلبه، وبل جاحم الحب الذي زلزل أركانه. ثم تزوجها، ومكث عندها شهراً كان عسلاً كله!

ووصل إلى قاعدة الملك، وأم القرى، أثينا، بعد أن ترك وصاته المكتوبة الآتية: "في الغرفة التي ضمتنا لأول مرة نلتذ الحياة وننعم بطيب العيش، هنا، وفي هذا المنزل الصغير الذي اتسع لدنيا من الآمال والأحلام، وتحت الحجر الكبير الملون، حيث كانت قدمي تحيان في سكرة الهوى قدميك، قد استودعت نعليّ اللتين حملتاني إليك، وسيفي الذي فريت به رؤوس الأعداء حتى سعدت بك، فإذا وضعته غلاماً فسميه ثيديوس، ونشئيه وطريئه حتى يصلب عوده، ويشدد ساعده، نخذه إلى الحجر فليرفعه، ويلبس نعلي ولیمتشق سيفي، ثم لیمض إلى أثينا، لا حافظ له إلا قلبه، ولا حارس إلا سيفه، فإذا شاءت العناية فإنه بحول زيوس العظيم ولي عهدي، وصاحب التاج من بعدي".

وتابعت السنون.

وكانت أثينا تزهي كل سنة بعيدها الرياضي الفخم، فتلبس حالة من البهجة والإيناس، وتؤمها وفود الأقاليم المجاورة لتفرج بالألعاب الجميلة، وقد تشترك فيها.

وكان لمينوس ملك كريت^(١)، ابن مفتول العضل قوي البنية حبيب الطلعة، كان يقدم إلى أثينا إبان عيدها الرياضي ليباري أبطالها،

(١) كريت أو كريد هي جزيرة أفريطش، وقد أثرنا التسمية الأولى لسهولةها وذيوها.

ثم يعود مشمولاً بحب الأثينيين وإعجابهم الشديد، ولقد كان حدثاً ألا يكون للموسم بهجته المعتادة إذا تخلف ابن مينوس فلم يحضر إلى أثينا.

ومن غريب المصادفات أيضاً أن ينشأ ثيديوس هذه النشأة الرياضية التي نشأها ابن مينوس، والتي كانت أمارتها تبهر الأثينيين وتخلب ألبابهم في موسمهم الرياضي.

ولم يكن الأثينيون يعلمون أن للملكهم ولداً، إن لم يبرز على ابن مينوس في الألعاب الرياضية، فإنه لا يقل عنه شأنًا فيها، ولم يكن الملك نفسه يعلم عن ولده شيئاً، ولو قد علم عنه شيئاً لما سولت له نفسه الأثيمة أن يدير غيلة ابن مينوس في حلك الليل، وفي طريقه المقفرة إلى المرفأ، حين آب بأكبر جوائز الموسم الرياضي في المصارعة والملاكمة والعدو ورمي القرص!

لقد أكلت الغيرة العمياء قلب الملك الجبان، وتلظى فؤاده بحقد أسود حجب بصيرته، فأرسل عصابة من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين، فذبحوا الشاب المسكين، ونبذوا جثته بالعراء، تنوشها الوحوش وسباع الطير!

واهترزت أثينا المضيفة، أثينا أم القرى، لهول الجريمة، ونقموا على القتلة الأشرار اعتداءهم الشنيع على ضيفهم المحبوب، وكادت تندلع ألسن الثورة حين استفاضت الإشاعات وراجت سوق الأقاويل، لولا أن وصل في صبيحة ليلة الجريمة، البطل الصغير ثيديوس ولي العهد، فجأة، ومن غير سابق علم، ولا ترقب ولا انتظار!

"ثيذيوس! ومن يكون ثيذيوس هذا؟!"
 "ولي عهد المملكة ورجاؤها، ومعقد آمالها."
 "وأيّن كان الشاب؟ وابن من؟ ومتى ولد؟."
 "وكان ينشأ في الريف، وهو ابن حسناء من أميرات الأقاليم، وولد منذ عشرين سنة."
 "ولم لم تعلم به أثينا من قبل؟"
 "أراد الملك أن يفاجئ شعبه بهذا الخبر السار لولا اغتيال ابن مينوس!"
 "وهل هو حقا أشجع من ابن مينوس؟"
 "ومن يكون ابن مينوس وألف بطل كابن مينوس إلى ولي عهدنا ثيذيوس؟"

وهكذا راحت الجماهير يتحدث بعضها إلى بعض حديث ثيذيوس.
 أما كيف وصل هذا الأمير الصغير، فإن أمه آنست فيه القوة واكتمال البنية، ولما رأت من تدفق ماء الشباب في وجناته، وسريان كهرباء الحياة في عضلاته. قادتة إلى الحجرة التي لقيت فيها لأول مرة أباه، ثم ناولته الخطاب المكنون الذي يحمل وصاة الملك. وما قرأ الفتى ما جاء بالخطاب حتى تأكدت له الأمانى العذاب التي كانت أمه تهتف له بها، فتقدم إلى الصخرة ورفعها بأقل جهد، ثم حمل السيف فقبله، ووضعته هنيئة على رأسه، ثم على عينيه، ثم على قلبه، كأنه يطبع به خاتم المحبة الأبوية على أعز جوارحه!

وربط النعلين العزيزتين على قدميه، وانهاه على خدي أمه ويديها
يقبل هذين ويلثم هاتين، ثم ودعها، وتزود من نصائحها، وانطلق
ميمماً شطراً أثينا.

وكانت الطريق إلى العاصمة صعبة شائكة، مخوفة بالمكانه، ككل
طريق تؤدي إلى جنة أو نعيم! فاللصوص وقطاع الطرق والسفاكون
يأخذونها من كل حذب، والسباع الضواري تعج في جنباتها،
والغيلان والأبالسة تهمهم في جميع منعطفاتها.. ولكن هذا كله لم
يثن من عزم ثيذيوس، فلقد قتل كل من تعرض له من لصوص
هذه البرية المرعبة، وفرد رؤوس سباعها، حتى لقد فر الكثيرون
أمامه يذيعون نبأ مقدمه في أثينا. فما وصل إليها حتى كان صيته قد
سبقه إليها وشاع فيها. وما إن تقدم إلى أبيه الملك حتى عرفه ونزل
من فوق العرش فعانقه وقبله، ثم عاد به فأجلسه بجانبه، وأرهف
أذنيه يصغي إلى قصة حياته، ومجازفته في الطريق التي تكتنفها
الأهوال إلى أثينا!

وأعلن السرور العام في المدينة، وطفقت النواقيس تدق في الهياكل،
وأطلق سراح المجرمين من جميع السجون، وجعل الناس يتندرون
بشجاعة ولي العهد وقصته العجيبة، حتى لأنسأهم ذلك هول المأساة
الدائمة التي روعتهم وزلزلت قلوبهم.

وانتظر مينوس أوبة ابنه، بيد أنه قلق لانقطاع أخباره، وساورته
الظنون من أجله، وحسب أن ريحاً عاصفاً ثارت بمركبه في البحر

الإيكاري^(١) فأغرقتة، لولا أن أحد التجار الكريديين عثر بجثة القتيل واحتملها إلى الملك، الذي تصدع قلبه من الأسى!
ولا تسل عما انتاب مينوس من الحزن، وما شمل كريد من الهم، حتى لم تبق فيها عين لم تذرف ماءها على ولي العهد.
واتصل بالملك ما كان من فعلة أيجوس ملك أثينا، فاستيقظ الناس صبيحة اليوم التالي على صبيحة الحرب، تدوي في غبشة الفجر فتقضى المضاجع، وترن في الآذان فتتجاوب لها حبات القلوب! وما تطلع الشمس حتى تكون البطاح مائجة بجنود كريد البواسل، هائجة بالمتحمسين من الشبان والشيب، هرعوا جميعا فدى للملك، وريا لمجد الوطن، واثاراً لولي العهد!

وترامت الأخبار إلى أثينا، فاعتكرت أفراح البلاد، وسكن ضجيج الشعب، وسارع الجميع يستعدون للقاء العدو، فها هي ذي القلاع قد سهر عليها حراسها، والسبل منبثة فيها الجنود شاكى السلاح، والمرافئ تعج بالسفائن الحربية، وكل رجل في المملكة قد اضطلع بنصيبه في الذود عن بيضة الوطن!

وأقلع مينوس بأسطوله اللجب، وعسكره المجر، وفرسانه العديدين، مزودين بميرة ليس كمثلها ميرة، وذخيرة يا لها من ذخيرة.. ومخر الأسطول لا تحول بينه وبين مطمحه عقبة، ولا يقف من دونه محق ولا مجنون.

(١) نسبة إلى أيكاروس (أسطورة سابقة).

ووصل الأسطول إلى أثينا، غادة هيلاس، وهدية الآلهة إلى فينوس، وعروس الأحلام الجميلة، فوجد الأسوار مخفورة، والبوابات مغلقة، والناس داخل المدينة مستعدين للدفاع عنها، فألقت الفلك مراسيها. واندفع الكريديون يحتلون السهل الواسع المحيط بالمدينة حتى ملأوه، وحتى لا ترى إلا خياماً تصل أقصى الشمال بأقصى الجنوب، وتربط أول الشرق بآخر الغرب.. جنود وضوءاء.. وصهيل ورغاء.. وعسكر كالجراد المنتشر لا تبلغ أوله عين، ولا يذهب إلى آخره خيال!

وصابر مينوس يحاصر المدينة أياماً طوالاً حتى قلت الأقوات داخلها وأخذ أهلها يشكون الجوع والجهد، وزاد في شدتهم أن نضب الماء، فعم البلاء.

ولم يكن أمام الأثينيين إلا إحدى اثنتين: إما الموت داخل الأسوار صبراً، وهذا ما لن يكون، وإما الخروج للقاء المحاصرين ومناضلتهم، وذلك ما لا طاقة لهم به ولا قدرة لهم عليه.

أمران أحلاهما مر، وأخفهما فيه الويل، وعقباه الدمار والبوار، وأجمع بعض عقلائهم على أن يذهبوا إلى ملكهم يرجونه في أن يذهب إلى الهيكل فيقدم القرابين إلى الآلهة حتى تأتيهم نبوءة السماء ووحى أولب بما ينبغي أن يكون.. ولكن الملك أبى واستكبر، ثم قبل بعد إلحاح أعيان القوم أن يتوب عنه في هذا الشأن أحدهم.

وقصد قائم مقام الملك إلى هيكل فينوس فتقرب بالضحايا وعقر
القرايين، وقبل الأرض بين يدي تماثلها المنتصب فوق المذبح، ولبث
غير قليل..

وخشعت الأبصار وسكنت القلوب، وعم المعبد وجوم عجيب.
ثم انبعث الصوت القدسي الضعيف من خلوة الكاهن يقول:
"ليفعل الأثينيون ما يأمرهم به مينوس ملك كريت.. الويل لهم إن
حاربوا!!!"..

وهامت الأفئدة.. وطاشت الأحلام!!
وتلقاها الملك كما يتلقى الإنسان حكاً عليه بالإعدام.. ولكن ما
العمل؟ ولا حيلة لبني الموتى في دفع أحكام القضاء؟
وأرسل أيجوس إلى ملك كريد يعرض عليه الصلح، ويسأله عن
شروطه.. فقال مينوس لرسل الملك: "قولوا لأيجوس، الآن عرفت
كيف طعنت فؤاد مينوس تلك الطعنة النجلاء بقتلك ابنه وولي
عهده.

ولقد جئناك نطلب ثمن هذه الفعلة الشنعاء، ولن تكفينا أثينا كلها
ثمننا لها! أما وقد ذلت، فحسبنا أن نرجع بسبعة من خير شبابكم
وأجمل فتيانكم، وسبع من أبكار الأثينيات وأبهى حسانها، ليكون
الجميع غداء حلالاً للمينوتور، على أن ترسلوا كل عام في مثل هذا
الزمن أربعة عشر آخرين من خيرة شباب أثينا وأكرمهم حساباً، فإن
رضي الملك وسلم فدية هذا العام رحلنا عنكم إلى العام المقبل".

وسكت الملك وتحذرت من عينيه دموع غلاظ، وثار في قلبه هم قديم.

طلب مرعب ينم عن قسوة وغلظة! غير أن قتل ابن مینوس غيلة، في رحاب أثينا، وفي دجنة الليل، وبتدبير الملك، كل ذلك يبرر الغرامة الوحشية التي فرضها ملك كريت!

وكاد أيجوس يرفض هذا الهوان الذي طلب إليه أن يؤديه عن يد وهو صاغر، ولكن الشعب هاج هائج وضج الرعاع يطالبون الخبز، أو تسليم المدينة أو.. دم الملك!!

فذل أيجوس المسكين وصغر، وقبل شروط مینوس مرغماً، واختير من شباب المدينة سبع كواعب أتراب، وسبعة فتيان في ريعان الصبي، وشيع هؤلاء وهؤلاء إلى الأسوار بين بكاء الأمهات وعويل الآباء وآلام المحبين!

وهرع الكريديون إلى خيامهم فاقتلعوها، وإلى شراهم فنشروها، وأقلعوا في الصباح الباكر بعد أن ألقوا على كبرياء أيجوس هذا الدرس المهول!

* * *

ومضت سنون وأثينا العظيمة تؤدي الفدية عن يد وهي ضارعة، حتى ثارت كبرياء ثيديوس وفارت نخوته، وتقدم إلى أبيه الملك الشيخ، حين دعا النفير العام لتقديم الفدية، يضرع إليه أن يكون هو الفداء الرابع عشر من شباب هذا العام:

"على الأقل يا أبي يكون في هذا بعض العزاء للأثنين، وليثقوا أننا لا نذلهم، وأننا منهم وهم منا، وأننا آخر الأمر، نشرب بالكأس التي يشربون!".

وشرق الوالد حين تقدم إليه ولي عهده بهذا الطلب، ورفض رفضاً باتاً.. ويغلي الدم في رأس البطل الشاب فيقول للملك: "إذن فأنا أحطم كأس الحياة التي أنعمت مذلة وهواناً، وسأريق مع سمها الأسود هذا الدم الأرجواني الذي لا أستحقه، ولا أشرف به.. أبتاه! لن تتحرك السفينة الحزينة حاملة ضحايا قسوتنا واستبدادنا حتى أحييها بحياتي، وأرويها بدمي، ليكون قربانا لمن عليها من عشيرتي ولداني..".

وقبل أن يفصل البطل الشاب، ناداه والده بائساً، ونهض فباركه، وقبل، والهم يمزق أحشاءه، أن يكون بين الضحايا..

* * *

وفي الحق أن ثيديوس لم يكن يعرض نفسه للتهلكة، ولكنه كان واثقاً من شجاعته، مؤمناً بما وهبته الآلهة من جلد وبأس، وقلب لا يفله إلا الحديد، لأنه من حديد. ولقد صمم أن ينزل هذا المينوتور الخبيث، فإما قتله وعاد مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ليعيش في وطنه منقذاً لأثينا، وإما قضى القضاء أمره فيه، وليس هو بأعز ممن راحوا ضحية هذا الوحش المخيف!

وقال لأبيه وهو يودعه، حينما ركب المركب السوداء التي يرفرف عليها علم الموت:

"أبي! لا تبك! إنك ملك، ودموع الملوك لا تذرف إلا في سبيل الوطن! إنني ذاهب إلى معركة أرجو أن يكتب لي النصر فيها! لقد فزت على عشرات من أمثال هذا الوحش ولما أكن بعد إلا طفلاً.. أدع لي أن أفوز به، فأريح أثينا العزيزة من شره".

* * *

وأقلعت السفينة تحمل هذه الفلذات الغالية من أبناء البلاد، ومخرت في بحر تلاطمت أمواجه، وزخرت أثباجه، وطم أذيه^(١)، وانتفخت أوداجه، حتى وصلت إلى كنسوس حاضرة كريت. وهرع الناس من كل فج يستقبلون ضحايا المينوتور، وفي وجه كل منهم عبوسة حزن، وملء قلوبهم ثورات مكبوتة من الأسى، على هذا الشاب الناضر الذي قبل إلى الموت من قرار بعيد!

وكانت في الجماهير فتاة غضة الإهاب، بضة الشباب، حلوة ناعمة، نهضت في مركبتها لمشاهدة الضحايا الأثنيين، فما كادت عينها تصيب نظرة من ثيديوس، حتى أحست في أعماقها بنفحة السماء التي تسبق لفحة الحب!!

ترى من يكون هذا الشاب الأنيق والفتي الرقيق؟
"أنه يقبل في غير وجل، ويقتحم الجماهير في غير هيبة! أعبر بحار الموت قبل هذا؟"

"لا شك يا فتاة أنه أمير إن لم يكن ابن ملك!"

"إن الحمرة التي تطير من الورد إذا قطف، ما تفارق خديه، وهو مقدم على الردى!!"

"أن صفرة الموت تستحي أن تموه هذه الوجنات؟!.."

"أمن السماء هذه الزرقة التي تملأ عينيه؟.."

"بل مثله لم يخلق إلا ليكون زهرة هذه الحياة الدنيا..."

"أيها الشاب.. لن تموت!"

وهكذا جعلت تحدث تلك الغادة.. الأميرة الجميلة بنت مينوس!..

وكأنما قرأت وصيفتها الأمانة ما دهى سيدتها من حب الفتى في

كتاب عينها، فقالت: "أتحس سيدتي بتعب؟.."

"ولا يا فتاة... ولكن انظري إلى هذا الفتى المتفتح كالزهرة!"

"والله يا سيدتي إنه جدير بعطفك، خليك برحمتك..."

"وما العمل يا فتاة وليس لنا في إنقاذه يدان؟!"

"هوني عليك يا مولاتي! إنه وأيم الله من سلالة الملوك! إن لم يكن ابن

ملك! وهو بادي الشجاعة ظاهر الفتوة! وإن له سيفاً طويل النجاد

ما حمل أحد مثله، ولم أعهد قط أن من ضحايا المينوتور من جاء بذي

غرارين من شأنه.. فلم لا ندبر معه قتل المينوتور؟.."

"وقتل المينوتور؟ إنك تهرفين! ومن يجسر أن يدخل والمينوتور في

معترك؟"

"لا عليك! نرشو السجنان فيفلت الشاب في ظلام الليل، ونهديه إلى

باب اللابيرنث^(١) فينطلق إلى الوحش الغاط في نومه العميق، فيجذ

رأسه بهذا الجراز الذي ترين!"

(١) اللابيرنث هو التيه الذي بناه ديدالوس للمينوتور، وقد حدثناك عنه في

أسطورة سابقة.

"يا له من تديبر! ولكن كيف يعود الشاب وأنت تعرفين من منعرجات اللايبرنث وشعابه ما تعرفين؟...".
"ولا أسهل من هذا أيضًا! خيط طويل من أمراس الكتان يمسك هو بطرفه الأول، ونمسك نحن بطرفه الآخر، يهديه في ذهابه ويرشده في إياه!!".

* * *

وطربت بنت مينوس لتديبر وصيفتها، ففتحها قبلة شهية وخلعت عليها جائزة سنية... وانطلقتا تترقبان المساء..
وعرف ثيذيوس أنها ابنة الملك فاستطير من الفرح، وعرفت أنه ابن أيجوس، فكبر رجاؤها وتلألأت آمالها...
وقتل المينوتور، وفك أسار رفاقه ورفيقاته، وأقلعت بهم الفلك، حاملة جوهرة جديدة غالية: هي ابنة مينوس.. وربيبة كريد.
أما الملك!
فقد صبر! وأرضاه أن يحضر أيجوس فيعذر له ويصالحه..
وهكذا حسم الحب هذا الخصام الطويل.

* * *

بندورا وسرقة النار المقدسة

توزع الآلهة تعمير الكون، فكانت الأرض من نصيب بروميثيوس بن يايبيتوس، أحد ذراري التيتان العمالقة، الذين حبسهم أبوهم خشية جبروتهم وخافة بأسهم..

وظفق بروميثيوس يفكر، حتى بدا له أن يجعل في الأرض أناسي يخلقهم على صور الآلهة، فاستعان أخاه أبميثيوس فهداه إلى الحما المسنون أو الطينة البشرية. فخلقا منها الإنسان الأول، وذهبا إلى أيروس^(١) فنفخ فيه من روحه، التي هي الحياة، وقصدا إلى مينرفا فنفتت فيه نفثتين، هما النفس والعقل.

وخلق بروميثيوس رجالا كثيرين على هيئة آدم الأول، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين!! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع في أعطافه، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه، ويسجدون له، حتى فكر في نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم!

"النار! النار المقدسة تنفعهم وتلين لهم حديد الحياة! ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الإله الأكبر ونكاله، فقد ذهب إلى الأولمب وتغفل زيوس،

(١) هو كيوبيد إله الحب.

ودس قبساً من النار في تضاعيف ثيابه، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين، يقدم إليهم هديته التي سرقها من أجواز السماء! ونظر زيوس من علياء الأولب، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك في أديم الأرض، ففطن إلى السرقة المنكرة، وانقذت من فمه المزيد من رعود الغضب!

وارتجف الأولب، وزلزلت السماء، وارتعدت فرائص الآلهة، وأمر الإله الأكبر فأحضر بروميثيوس مكبلاً بالأصفاد، ملطخاً بالوحل، وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه، ثم حكم عليه فسيق إلى جبال القوقاز، حيث غل عنقه الضخم وذراعاها الكبيرتان، ونفذه اللتان تزيان بفخذي فيل، في قمة عالية، وسخر الإله الأكبر رُخاً عظيم الجثة، حاد الأظافر، كبير المنسر، فذهب إلى حيث بروميثيوس، ينوشه، ويمزق جسمه، وينفذ أظافره ومنسره في أحشائه حتى تبلغ الكبد، فيهره ويطعمه حتى يأتي عليه، وينصرف إلى غد.

فإذا كان الليل، وهبت الريح سبوحسجاً، التأمت جراحات الإله المسكين، ونما له كبد آخر، وينام حتى تشرق الشمس، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس، وليأخذ في تعذيب بروميثيوس التعس، إلى أن تغيب ذكاء!! وهكذا دواليك، أحقاباً وأحقاباً...

ويلبث الإله المنكود في هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل الجبار في أحد أسفاره، فتثور الشفقة في قلبه، وينقض كالصاعقة على الرخ، فلا يتركه حتى تزهر روحه، بعد صراع عظيم،

ثم يفك أغلال بروميثيوس ويحرسه، حتى يقبل الليل فيشفى مما به،
ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه، حيث عباده الصالحون!!
وفرح الناس بإلههم وسروا بلقائه، وقدّروا ما لقي في سبيلهم ومن
أجل سعادتهم، فعنوا له وأخبتوا..

وكانوا يحبون في بلهنية، غارقين في طراوة من العيش وسعة من
الرزق، هواؤهم رخاء وماؤهم صفاء، لا يشكون متربة ولا يعرفون
ضنكاً، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس. ولم يعرفوا الموت، ولم
يدروا ما البكاء، فكأنما كانت حياتهم طوبى، ونعيماً مقيماً.
وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس وفرح الناس بأوبته إليهم،
فغيظ غيظاً شديداً، وآلى ليكيدين لهم كيداً، ويرسلنّ عليهم من مكروه
ما لا طاقة لهم به...

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة، ولكنهم كلهم
ذكران، "ومن الآلهة أنثيات، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم
ونسلمهم إن صح أن يكون لهم نسل؟...".
وأرسل دعوة عامة إلى جميع الآلهة فسعوا إليه من كل فج عميق،
وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس، ثم أخبرهم أنه يريد أن يخلقوا له
أنثى جميلة يودع فيها كل منهم سراً من أسرارهم: "لأنني سأرسلها
هدية إلى هذا المجنون بروميثيوس ليشهد بعينه ماذا تصنع بعباده
الذين خلق...".

واقترح الإله أن يفرغ هيفستوس^(١) إله النار والفن وابن زيوس، إلى ابتداء هذه الأنثى، فسواها من نفس الحمأ الذي خلق منه الإنسان، وجاءت آية من آيات الحسن، رقيقة كأنها صورت لتكون فتنة الأولمب.

واحتملها إلى زيوس، وأقبل الآلهة ينفثون فيها أسرارهم، ويستودعون نفحاتهم، فهذه فينوس تهبها من جمالها، وهيرا من ثرثرتها، ومينرفا من حكمتها، ولاتونا من استيحاشها، وديانا من رشاقته، وكيوبيد من حبه، وأبوللو من شعره وموسيقاه..

أما هرمز الخبيث، فقد انتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم، ثم تقدم، وملء وجهه ضحكة صاخبة، فأودع الحواء^(٢) قلب كلب، ونفس لص، وعقل ثعلب!!...

ثم نفخ فيها زيوس من روحه، فدبت الحياة في أعطافها، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين، مأخوذين بسحر جمالها، فولت مدبرة ولكن إلى غير مهرب.

وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء، ثم سماها ربها "بندورا" وأوماً إلى هرمز فاحتملها كالطفلة المدللة، وذهب بها، هدية عالية من السماء إلى التعس بروميثيوس الذي رفضها غير شاكر وأباها غير حميد!

(١) هو فولكان الروماني.

(٢) الحواء. الأنثى الأولى.

وكان لديه أخوه أيميثيوس، فكادت نفسه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه الغادة الهيفاء، يرفضها أخوه هدية من السماء! وتقدم هو فضرع إلى هرمن أن ينزل له عنها، وأن يغفر لأخيه حماقته، وقلة صبره، وكفرانه الذي لا كفران بعده!!

ومع ذلك فقه نصح بروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة، وأن يرفضها، غير مشكورة، كما رفضها:

- "إنها فتنة يا أخي، بل هي خدعة من خدع السماء حري بنا ألا نتطلي علينا!".

- خدعة! خدعة ماذا يا أخي؟ خذ عيني فأبصر بهما، وقلبي فضحه على مذبح هواها.. ألا ترى إلى عينيها النجلاوين، وشفتيها القرمزيتين، وثنديها الناهدين، ونفذيها المملوءتين، وساقيا الجميلتين؟..

- "بل بحسبي عينايا يا أخي! إني أستشف بهما فتونا نفثته الآلهة في كل جوارحها، فحذار! إنها ستكون خراب هؤلاء المساكين الذين صنعتهم يداي!".

- "حسبك يا أخي وحسبي! هي لي من دونك، فتولّ عنا أودع!".

* * *

وعاشت بندورا مع أبميثوس كما يعيش الآلهة في الفردوس.. حياة كلها مرح، وأياماً جميعها لذة وإيناس، يخلو إليها فتمتزج روحاهما وتختلط تفاهما، وتكون هي فتنة زوجها المسكين، تأسر لبه بموسيقاها الخنون: وتسحره بالزرقة العائمة في عينيها، وتبره بكلماتها الغوالي في الحكمة والموعظة الحسنة!!

وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان نحر الحياة، ويعبان من غسلها المصفى، ثم دعا إليه هرمز، فحمله صندوقاً ثميناً، وأنفذه به إليهما.. "وأياك أن تعبت به في الطريق، فإنه هديتي إلى بندورا، وفيه انتقامي من عباد بروميثيوس، فسر به إلى الفتاة، وأوصها به خيراً..". وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق، يتعثر في مشيته، وقد بدت عليه وعشاء السفر، وعلق الثرى بأسماله البالية، فلفتت بندورا نظر زوجها إليه، وذهبا سوية للقائه والاحتفاء به، ولكن هرمز أبى إلا أن يذهب إلى القصر، ليسلم الهدية، وليبلغ رسالة السماء.. فسار الجميع حتى كانوا في المخدع الوثير، وجلس هرمز يستريح قليلاً، ثم قال:

"هاك يا بندورا العزيزة هدية الإله الكريم إليك، خصك بها من دون براياه أجمعين. وأحسبك في غنى عن أن أصفها لك، فها هي ذي أمامك تتكلم عن نفسها. ولكن الإله الأكبر يشترط ألا تفتحيها إلا بإذنه، فلا تتعجلي، حتى يأتيك أمره. وإنه لقريب".

ونفض هرمرز، وسلّم وانصرف، ولا تزال بوجهه تلك الضحكة
الساخرة التي كانت عليه، يوم استودع بندورا قلب الكلب، ونفس
اللص، وعقل الثعلب...
وكان أيمثيوس قد قدم إليه من ثمر حديقته الشيء الكثير، ولكنه
لم يمد يده إليه...

* * *

وكان الليل قد قارب أن ينتصف، وكان الكرى قد لعب بطرفها
الوسنان، فاستلقت على أريكتها الحريرية وغرقت في سبات عميق،
ممتلئ بأحلى الرؤى، وأطيب الأحلام..

وخيل إليها أن في الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها، وتنسج الأمانى
العذاب لها، وأن دنيا بأكلها تفتح وتزهر حولها، فلها نهضت من
نومها في بكرة اليوم التالي، أحست أن أملاً كبيراً يملأ قلبها، وأن
رغبة ملحة تسوقها إلى الصندوق كلما ابتعدت عنه، وحدثت زوجها
بما تجد، فعملها هو الآخر بالآمال وأخذ يهدئ من روعها الذي بدا
اضطرابه بأجلى مظاهره... ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت ألا
تغادر البيت، بل لا تغادر الغرفة التي تضم الصندوق الصغير، "الذي
أحس أنه مغلق على قلبي ونفسي جميعاً..!" فرثى لها، وانطلق هو،
لأول مرة منذ عرفها وحده، ينادم إخوانه الآلهة ويلاعبهم،
وبندورا وحدها في مخدعها، تقلب الصندوق العجيب، وتحدث إليه،
كأنه يسمع ويرى.

وغبرت أيام وهي في حال من الهم لم تعهدها من قبل، وكانت تجلس وحدها حزينة كاسفة، تنتظر بشير الآلهة الذي يأذن لها بفتح الصندوق. ولكن هيهات!.. لقد طال ما انتظرت حتى نفذ صبرها وعيل، ونهضت إلى الصندوق تقبله، وهي مأخوذة بجمال صنعه ودقة زخرفته، وهذا العملاء المزركش الذي انغلق على آمالها وأحلامها..

وحاولت أن تفتحه، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهة و أرباب، ولكنها فشلت غير مرة، وضاحت بها الدنيا بما رحبت، فدفعت بالصندوق دفعة قوية على أديم الغرفة، فانصدع.. ولما تناولته ثانية هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت، ثم هالها أكثر أن تسمع هذه الأصوات، منطلقة من الداخل:

"بندورا! بندورا! بندورا العزيزة! حنانيك! خلصينا من هذا السجن السحيق! إننا نتعذب هنا.. أنقذينا يا بندورا فقد ضقنا بما نحن فيه.. إننا لم نصنع شيئا حتى نرسف في هذا الحيز الضيق..".

"ماذا؟...؟...؟"

ما الذي يتحدث هكذا في هذا الصندوق...؟

إنها أصوات حزينة مكومة، وإني لا بد منقذتها!

ماذا أنتظر؟ أمر السماء! هذا لا يهم!

انفتح أيها الغطاء..."

وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء، وسرعان ما انطلقت خفافيش سود ذوات مخالب حادة فلأت هواء الغرفة، وأهوت على بندورا المسكينة تعضها وتجرح بدننها الغض، وكلها وخزها خفاش لعين، انطلق قائلا: "أنا المرض!", ويقول آخر: "أنا الفقر"، ويقول ثالث: "أنا الجوع!". ويصيح رابع: "أنا البخل!". وخامس: "أنا القحط" وسادس: "أنا النفاق!". وسابع.. وثامن.. إلى آخر الرذائل التي تكظ الحياة إلى يومنا هذا!؟..

وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر، فجرحت الخدم والخدماء، ثم انطلقت إلى الحديقة.. وإلى الطريق حيث كان أبميثيوس وأقرانه الآلهة، فأوسعهم عضاً وقضماً وتجريحاً. وتركهم يترنحون من الألم، وذهبت تفسد في الأرض، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد بروميثيوس المخلصين، فكثرت الآلام، وعم الفقر، وامتألت الأرض رذائل وأشجاءاً!!!...

وكانت بندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقتة، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما رأت. ولكن: وأسفاه!!

أنها حين أغلقت الصندوق، حبست فيه الروح الطيب الوحيد، الذي خبأه فيه زيوس.. ألا وهو: "روح الأمل!".

وانبطحت بندورا على أرض الغرفة تنن وتنجوع وتشكو البرح الذي ألم بها، حتى أقبل أبميثيوس فانبطح إلى جانبها يشكو لشكايتها، ويألم لآلامها...

ولبثا ييكان..

وكلما حدثته بندورا حديث الصندوق، تسخط الإله وتبرم، وحدجها بنظرة فاترة، قائلاً: "نصحتك وتم تصيخي...!".

وسمعا صوتا ضعيفا في الصندوق يقول: "بندورا! بندورا! لماذا حبستني وحدي، وأنا روح الخير... افتحي.. افتحي.. إني سأشفيك من جراحك، وآسو آلامك وأوجاعك.. افتحي...".

ولكن بندورا كانت في شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب، ولكن أبيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه، فانطلق فراش أبيض جميل، هو روح الأمل، ما فتئ يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعاً، ثم شفى جراح الزوجة كذلك، وانطلق إلى عباد بروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم، وما فتئ إلى اليوم، هذا الفراش الأبيض الجميل، روح الأمل، يشفي أوجاع المحزونين والمكومين. بورك الفراش الأبيض!

ولا بورك خفافيشك السوداء يا بندورا!

* * *

هيرو ولياندر المأساة الغرامية المؤلمة

أرسلوها إلى الدير، طفلة بريئة النفس، طاهرة القلب، بسامة الشجر،
وضاحة الجبين، كلما وضعت إبهاما في فمها تمصه، تمثلت فيها سذاجة
الطفولة وجمالها ودعتها.

ونذروها لفينوس، فكانت ربة الحب تنسرق في القمراء الصافية
لترعى طفلتها، ولتنفث فيها من رقى السحر ما تعدها به لمستقبل
غرامي مليء. وكان الكهنة يتفرسون في شفتي هذه الوديعة الصغيرة
ألغازاً لا يدركون لها كُنْهاً، وأسراراً لا يفقهون لها معنى، إلا كنه
الصباة الحمراء تنثال فوق الشيا الأربعة البراقة، ولا معنى القبل،
الناضجة يختلسونها كلما افترا عن ابتسامة، أو انفرجتا لدغدغة أو
تخميش^(١).

وشبت هيرو..

وتفتّح الورد في خديها الناعمين، واستيقظ النرجس في عينيها
الناعستين، وضحكت فينوس في شفيتها الحمراء، ونبت الخمل
الحري يطري صباها الغض، وشبابها الفينان!

(١) هما: "الزغزغة".

ورسمت راهبة لفينوس في سيستوس، المدينة الخالدة، التي تربض على شاطئ الهلسبنت^(١) الأوربي، قبالة أيدوس، مدينة الأحلام على الشاطئ الآسيوي.

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدي الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب، في برج مشيد مشرف على البحر في قصر أبيها، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها في المدينة الكبيرة، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الآهلين كما يتحدث الشذى عن ورده، والأرج عن رنده، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم، وهتاف كل لسان.

وسمع لياندر، فتى أيدوس وأشجع شبابها، والذائد عنها في كل حومة، بهيرو الراهبة، فعجب أن تكون حقيقة كما يصفها الناس، وحسب أن المبالغة هي التي نفخت في شهرة هير، فلم يهتم لما سمع عن مفاتها، وصرف ذهنه الشاب الفتى عن هذه الطوبى التي سلبت ألباب الفتيان، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان.

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ في نسيانها أو تناسيها، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، فلقد كانت أذن لياندر عاشقة وامقة، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة^(٢)، وما برح يعرض عنها ولا يصغي لها، حتى أعلن في سيستوس عن حفل ضخم يقام في هيكلها تكريماً لفينوس وتقديساً،

(١) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف.

(٢) المحبة.

وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة في الاحتفال بربة الجمال والحب، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب.

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطئ الآسيوي في أيدوس وحتى سمع به لياندر، فابتسم، وشعر في سويدائه بأول قبس من نار الحب، فألهب إحساسه وأشعل قلبه، وملاً أضالعه شوقاً إلى هيرو وتحناً. واعتزم المشاركة في الاحتفال، لا تقديساً لفينوس، ولكن لينظر إلى الراهبة الحبيبة التي ملأت خياله، وأصبحت مثله الأعلى الذي يجذب دائماً إليه، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة، خاضعاً للسحر المنطوي العميق..

وإذ كان اليوم المنشود، ارتدى الفتى أبهى ملابسه، وانطلق يحدث نفسه أماني الحب، ويتغنى أغرودة الجمال، وظل يحلم في طريقه إلى سيستوس بهذا الأمل اللامع، الذي يشبه في تحجبه في ثنايا المستقبل قمر ليلة مكفهرة قطير، ما يفتأ يتخيل في تضاعيف السحب! وعبر الهلسنت في زورق أبيض جميل، مخزماً بين العدوتين في ساعة كانت في فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب! وقصد إلى الهيكل، وطفق يدافع الجماعات، ويزاحم الجماهير، حتى كان بين يدي هيرو.

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمي الراهبة الصغيرة التي استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين،

مشرقة موقنة، كأنها زنبقة، ملتفة بردها الحريري الأبيض، متكئة بذراعها اللدنة الجميلة على سنادة المنصة، مقلبة عينها الدجاوين في الجماهير المتكبكة حولها تلمس البركات...

وكانت فينوس قد أقبلت من مملكة الأوبل تشهد المهرجان الحاشد، وتشيع خيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها، المترنم بعبادتها، وكان معها أبناؤها الغر الميامين، وفيهم كيوييد وهرمونيا، فاختبأوا في أبراج الهيكل، ولبثوا ينظرون إلى الملاء ويعجبون. وأرسلت فينوس عينها الفاحصة في الملاء، فرات لياندر العاشق يرنو إلى هيرو الراهبة، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاماً، ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين، لا تكاد تعيره نظرة، ولا تمنحه التفاتة، وهو مع ذلك مشربئ إليها، ينظر نظرات كلها عبادة، وعيناه مغرورتان بدموع تكاد تنهمر.

وتحرك حنان الحب في فؤاد ربة الحب، وأقسمت لتعاون في هذا المشروع الغرامي العظيم!!
وذلك أن فينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط، بل كان يثلجها ويملؤها غبطة أن ترى إلى عبرات المحبين، وتسمع إلى رنين القبل في شفاه العاشقين، فأشارت إلى ولدها كيوييد - رب الحب، وصاحب السهام الذهبية، والقوس ذات الوتر العرد - فأقبل عندها، وألقت إليه أوامرها..

فوتر^(١) كيوييد قوسه، وتخير واحداً من سهامه، وانتهز فرصة من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى لياندر، وأرسل إلى قلبها السهم الذي يحمل رسالة الحب، فدخله غير مستأذن، وملاؤه لوعة وصباية.. وجنت للحظتها بالفتى..

وتخير كيوييد سهماً آخر، وأرسله هدية حارة، دامية، إلى فؤاد لياندر. فما كاد يستقر فيه، حتى أحس الفتى أنه لم يعد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد، بل هو قد صار طيفاً نورانياً، وأحس مع ذلك بحب غامر لم يكن له به عهد من قبل، جعله يفنى فناء تاماً في هيرو الراهبة، التي نظر فألفاها تلتهمه هي الأخرى بعينها وقلبا التهما!

لله يا حب ما أجملك، وما أبر فينوس بعبادك!

دلف لياندر نحو المنصة، وتمتم بكلمات خافتة، (كأنما هي بث الورد للمطر!) يفهمها المحبون وحدهم، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون، فعلمت هيرو أن حبيبها يقرئها حبه، ويسرها هيامه، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة، ويعبدها خلاله على انفراد!..

(١) أي ركب بها وترها.

وارتبكت هيرو، وتصارع في نفسها الخوف والحب، الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبة فينوس تصبو، وبذلك يهوي احترامهما إلى حضيض السخرية، حينما يفتضح الحب الذي تكتمه في صميمها للياندر، والذي أثاره فيها سهم كيوييد، ولم تر إلا أن تنهر العاشق الملح لينصرف، ولكنه ما يزداد إلا تعلقا بها، وتشبثا بما طلب إليها، ورجاها فيه، وتكون هيرو قد بلغت حالة بين الهيام والإشفاق لا تحتمل، فتهمس له أن ينتظر حتى ينصرف الناس، فإذا انصرفوا، خلت إليه، وحدثته، حديثا موشى بالورد مبللا بدموع الحب، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى. وتذكر له أن اتصالحهما سيظل حبا في حب، وبكاء في بكاء، ولوعة في أثر لوعة، وزورة مختلصة تعقبها زورة مختلصة: "لأنني راهبة كما تعلم، وأنا خادمة هذا الهيكل الفينوسي المقدس، وسأظل عذراء أبد الدهر، فلن ينتهي حبنا إلى هذا الزواج الذي أوتره وأتشهاه، فإذا كان الغسق يا حبيبي، وتألق النجم في كبد السماء يردد أناتنا، فاقصد إلى شاطئ البحر عند أييدوس، واخلع ملابسك، ثم خض عباب الهلسبت حين أعطيك إشارة من مصباحي، حيث أكون في برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس، فإذا وصلت، وستصل سالما في رعاية فينوس، فهلم إليّ في البرج نلتد آلام الحب، ونتغن أشجان الهوى، واضعة رأسي على صدرك، أو واضعا رأسك على صدري، شاكين إلى الآلهة ما بنا من برح، حتى يطلع الفجر فنفترق، وتعود أدراجك إلى الشاطئ الأسوي ساجحا، فإذا كان غد، عدت لأفنى فيك..

وأغمرك بالقبل، ولأقرأ في نفسك، وتقرأ في نفسي، كتاب الحب
وآي الطهر.. وبوركت فينوس!".

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر في صلتها الغرامية بلياندر؛ لأن شطآن
الهلسبنت كانت حراماً على السفائن والزوارق وسائر الجواري، بعد
ساعة من غروب الشمس، فلو قد ركب زورقا وعبر به البوغاز،
لعرض نفسه لأخطار جسام، من بينها عقوبة الإعدام دون محاكمة!
لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو..

"معبودتي! سأخوض العباب في سبيلك

وأطوي بحار الجحيم لو أنها تحجزني عنك

فلا الموج جياشاً باللهب، ولا الأعماق تقذف بالحمم

ولا الفزع الأكبر في الأرض أو في السماء، لا هذا ولا

ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتي!^(١)"

* * *

فلما كان غد، وتوارت الشمس بالحجاب، وأقبل ليل العاشقين
بشكواه ونجواه، يمم لياندر شطر البحر، ووقف فوق رمال الشاطئ
كأنه يعدها، ولبث يرقب البرج على العدو الأخرى، وفي قلبه أمل
مضطرب، وفي نفسه قلق مستعر، وملء يديه منى تملأ العالم بأسره!
وظل يذرع الشاطئ جيئةً وذهوباً، وهو حين يروح أو حين يثني،
يخلق في البرج المشيد لا تريم عيناه عنه،

(١) من أدوين أونولد.

وكانت الرياح تدمدم في جنبات الآكام الممتدة على الساحلين
والموج يزخر في غيران طوروس الشاخنة، والبحر يقذف سراطينه على
الكثبان البعيدة النائية، والسحب تتجمع وتنفرد كأنها موج الظلماء
في خضم السماء..

وجفأة لمح لياندر بصيص النور في كوى البرج الشاهق، فانفلت من
ثيابه كأن الشعاعة تجذبه، ولم يعنه أن يمزق هذا الكم، ويشق ذاك
الجيب، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك، ثم ينقذف
في الماء ويأخذ في سباحته، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك
النجم ويلبس السماء، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر
بحرين، ويهوي في أعماق القرار يؤانس التريتون ويجالس
الأوسيانيد^(١)!!

وكانت فينوس تنظر من علياء الأولب وتلهو..
ما برح يصارع البحر والبحر يصصره، وما برح يتقدم إلى أمام
ويسحبه التيار إلى وراء، وكلما خاتته قواه نظر إلى البرج يتزود من
بدره قوة، ومن القبل الحارة التي تنتظره ثمة دفئا ونشاطا مجدداً!!
وبلغ الشاطئ..

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب، والمنية المرتجاة، فهرعت
إليه واستقرت في حضنه، ولبثت تسمع إلى دقات قلبه الواجف
الذي يخفق - لأول مرة - بموسيقى الحب!!

(١) التريتون: فتیان البحر، والأوسيانيد: عرائس المحيطات.

"وامتد فم الفراشة المرتجف، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذي تفتحت عنه جلنارة الحب^(١)".

وتمزقت السحب، وتكشفت السماء، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر ونعيم الحب البريء!!

وكانت فينوس تنظر من علياء الأولب وتلهو...
ونسمت في الأفق الشرقي أنفاس الفجر، فنهض الحبيبان يودع أحدهما الآخر، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبالات!

وفصل لياندر، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه، ويلبس الزبد والزبد يلبسه ويخلعه...
وفينوس تنظر وتلهو...

* * *

وأشرقت الشمس وتوارت، وأقبل الليل وتنفس الفجر، وعصفت الريح أو هبت رخاء، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب... واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض، فكان يطويه إلى منية نفسه وهوية قلبه، في كل موعد منتظر، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء، وكأنه يمتطي من ظهور الموج الصافنات الجياد..

(١) من لورد بيرون والجلنار: زهر الرمان الأحمر.

وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار، وزمزمة رعوته
تهد جوانب الأفق، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من
أعماقه، فأوجست هيرو خيفة على حبيها، وتعلقت به، وراحت
تغمره بالقبل، متوسلة ضارعة، ترجوه أن يبقى بجانبها ولا يجازف
بحياته في هذا اليوم المصطخب، وهي تدبر له محباً يأويه ذلك اليوم،
حتى تسكن العاصفة، وينام الماء...

وئارت النخوة في نفس لياندر، وشاعت الكبرياء في جسمه القوي
المفتول، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبي، فطمأن
هيرو واحتملها كالحمامة في يديه الجبارتين، وطبع على شفثيها
المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها، ثم انفتل من بين ذراعيها
الضعيفتين، وهرع إلى البحر نفّوض فيه، ملتفتا بين برهة وأخرى،
محياً البدر الصغير المشرق عليه من الشاطئ...
وفينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو...

وأحس في منتصف الطريق برعشة وإعياء، ولكنه كان يهتف باسم
هيرو مرة، وباسم فينوس أخرى، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من
قوته الفانية.. ورثت لحاله ربة الحب، فنفتحت في ذراعيه المجهودتين،
حتى وصل إلى شاطئ أيدوس مهدوداً محطماً.. وتهالك على نفسه،
فوصل إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ليحلم بالموت المحقق الذي نجا
منه منذ ساعة..

* * *

وغابت الشمس، ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفوانا،
والبرق ما فتئ يطوي السماء، وكان كل شيء ينذر لياندر بسوء
المنقلب، ومع ذاك فقد نهض غير مستئذ وقصد إلى الهلسبنت،
فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التي يضطرب بها بطنه، ثم لمح الضوء
ينبعث من كوى الكوخ.. نخلع ملابسه، وبدأ رحلته...

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو...

لأنها كانت عند حبيبها أدونيس الراعي الجميل تستمتع به، بعد إذ
فضحها أبوللو في حبيبها مارس.

ولم يبلُ لياندر من البحر ما بلا هذه الليلة.. فلقد كان الموج كأنه
ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين، وتصدع ذراعيه
وترتطم برأسه..

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئا من الصبر قد ذاب فيه، بعد إذ
كانت ملوحته تستحيل شهداً في فمه، وعسلاً مصفى!

ولقد كان البرد ينهل من السحب القائمة، والصقيع يساقط كندف
القطن الأبيض، فيعلق بشعر لياندر، وينسج فوقه قلنسوة من برودة
الموت..

وجاهد العاشق...

وسبح باسم هير وبين موج كالجبال، وليل كله ظلمات...
واأسفاه!!

لقد نظر المسكين إلى البرج بتزود من نوره، ولكنه لم ير الشعاعة
تألق كما عودته...

لقد أطفأتها الرياح الهوج، فأطفأت في قلبه بصيص الأمل...
واستولى عليه خور الفجر السابق، ودهاه القنوط في عضلاته،
فيئس منها جميعاً... وضاعف النكبة شره بالماء حين أراد أن يهتف
باسم هيرو!
فغاص!...

ولفظه اليم جثة هامة.. ثم ابتلعه، ثم لفظه..
ثم انتصف الليل، وهيرو المشوقة حاملة مصباحها الخافت، بعد إذ
أشعلته ثانية، ولكن الساعات تمضي.. ولا يصل لياندر...
وتنفس الصبح، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر، وحملت في
الماء.. فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج، كأنه حنين الجسم
إلى أحلام الروح!!
وصعقت هيرو..

ودارت بها الأرض، وانطفأت في عينيها مباح الحياة بانطفاء أملها
المشرق وبدرها البسام، فألقت بنفسها في الأعماق!..
وما هي إلا لحظة، حتى كان الحبيبان مسجيين على سرير الماء،
ملفين في أكفان الزبد^(١)!

* * *

(١) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها، وذهب بنفسه إلى الدردنيل
فتمثل لياندر وعبر البوغاز، وتمنى لو غرق مثله هناك، فلا يفوتن القارئ
الاطلاع على تحفة بيرون في ديوانه.

هرقل

كان قلب الإله الأكبر شيوعية في دولة الحب...
ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب، بل كان يفتن بكل
حسنة من بنات حواء، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأمليد
من ظباء دار الفناء..
هذه الحياة الدنيا!..

ولقد كانت زوجته هيرا تقعد له بالمرصاد، لما تعرف من تصايبه،
ولقلة ثقته فيه، فلما علق الفتاة الفئانة "ألكمين" إحدى أميرات
هيلاس، كان يبالغ في الحذر حتى لا تفجأه زوجته معها كما فجأته
مع الحسناء "يو" من قبل.

ونعم الحبيبان بحياة راضية، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار
هرقل، وما كاد النبأ يذيع في دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة هيرا
وأسقط في يدها.. لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من
منافستها في قلب زوجها^(١) (زيوس)، تلك المنافسة التي ارتفعت إلى
مرتبة الآلهة، بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب.

(١) Hercules أو Heracles ويسميه بعضهم Alcides وعزبه العرب
هرقل.

ولكنها، وهي هي المجبولة على الشر دائماً، آلت إلا أن يرتد نور الحياة المتلائي ظلاماً في عيني الأم، وذلك بالفتك بولدها المحبوب، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل، وأن تندسا فيه، حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته، وعادتا بإشارة منه تشهد على إنفاذ ما أمرتا به.

وسعت الحيتان حتى استقرتا في المهاد الوثير، وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة، وأوشكنا أن تظفرا بها... ولكن هرقل الصغير الهادئ افتر عن ثغري شتيت مشرق، وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين وبضغطين هائلتين حطم عظامهما جميعاً، وكان الخدم قد أقبلوا، فلما شهدوا الأفعوانين، صرخوا وأعولوا، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير، المنبطح على ظهره، يضرب برجليه ها هنا وها هنا، قد قضى على الحيتين العظيمتين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية!!

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل! فرحة مستبشرة، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معاني الأمومة.

وذملت هيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيها، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه، ولكنها لم تيأس، وأقسمت أن تنثر الشوك في مستقبله القريب، وتبث العراقيل في حياته الجائئة.

وشب هرقل...

ونشأه مؤدبه "شIRON" زعيم السنتور^(١)، تنشئة حربية حافلة، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان، فمهر هرقل في زمن قصير في استعمال الأسلحة بأنواعها، ونبغ في جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى.

وكان شIRON نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدي، يمسكه العضل البارز، ويزينه الكيان المقتول.. وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوى، أثر أن يشركه في نزال مع الثيران والعجول، والضخم ذي الأيد من بهيمة الأرض. وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات، بل كان يقبل على مصارعها بثغر بسام وقلب طروب، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب! وخشيته الحيوانات جميعاً، فكانت تجفل من طريقه كلما رآته مقبلاً نحوها، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه!

وكان الفتى كلما ازداد قوة، وذاب الحديد في عضلاته، ازدادت هيرا تغيطاً، وهاجت في قوادها الأحقاد!

ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخضم العنيد، ومادت بها الأرض، وأصبحت كان يعاسيب العداوة تطن في رأسها تغريها بهرقل، ومن يلوذ بهرقل.

(١) السنتور جبل خرافي نصفه الأعلى نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان.

فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر إرادة أولمبية تقضى أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه النذل الخسيس: يوريدوس أمير أرجوس، وأن يظل في خدمته بضع سنين..
وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون..

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس مليء بالرغائب، مفعم بالمجازفات، فينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان، بين غابتين عظيمتين، إذا غائتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله.. فأشاح عنهما، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء، أو من أولئك اللائي يتخذن الفسوق حرفة قدرة لعيش وضع. لكن الفتاتين تشبثتا به، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهة، يتخير منهما واحدة تكون راءدته في هذه الحياة، تهديه وترشده وتأخذ بيده في سبلها المتشعبة. وكانت إحدى الفتاتين، (كاكيا) شيطان الإثم وإبليس الفجور في هذه الأرض. فتقدمت إليه متبرجة متهتكة، تغمز بهذا الطرف، وتبتسم بذاك الثغر، وتهز ما سكن من الجليد، وتمط ما اشرب من العنق وتحسر عن الساقين، وتكشف عن الذراعين، وهي تفرقع به بضحكات مخنثة نثير الاشتها في نفس الشاب، وتستولي بها على مشاعره: "أنا حبيبتيك كاكيا، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود في خدود العذارى، أضع قلبي وجسمي بين قدميك يا هرقلي العزيز مطية إلى الفردوس الذي تجد فيه ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة.. فاتبعني أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة، وأصير طريقك أني ذهبتي في الحياة منضورة بالورد زاهرة بالرياحين..

هلم إليّ نحيا حياة كاللحم، بعيدين من عناء العالم، نأتمن عن شقاء الدنيا، لا نفتح أعيننا إلا على متعة، ولا نزهف سمعينا إلا للموسيقى، ولا نغلق قلوبنا إلا على نعيم...

مالك ولوجه الحياة المربد يا حبيبي هرقل؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتزها، وإن العمر قصير فلا تلق به بخوراً في نار البأساء، وإن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم؟ ولم لا نرسلها في وشي وأفواف؟ لم لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا ما دامت الدنيا مخلوقة لها؟

لم تطرق هكذا يا حبيبي؟ أمتعب أنت؟ هات رأسك إذن، ودعه ملقى على صدري الجميل الخصب...

ولكن الفتى نفر نفرة بادية، وأرسل نظرة فاحصة إلى (آريته) الفتاة الأخرى، التي كانت تقف عن كذب، مصغية إلى حديث كايكا، مشفقة على الشاب المسكين.

أما آريته هذه فربة الفضيلة، ونفحة السماء، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كايكا...

وسألها هرقل: "أنت أيتها الفتاة، بم تشيرين؟".

وقالت آريته، وهي تكفكف عبرة غالية: "أنا لا أشير عليك بشيء أيها الصديق إلا بالخطر من هذه الغادة! إنها توشك أن تضلك وترديك!".

فغیظت کاکیا وأخذها الحنق، وأجابت فی غلظة ومخاشنة: "أضله وأردیه؟ هاها... وأنت؟ أتسلکین به سبیل الفضیلة الّتی زرعت أرضها قتاداً، وبذرت فیها أنیب الذباب؟ اسمع یا هرقل، أصغ إليّ یا حبیبی، دعك من هذه الفتاة المحتشمة.. تولّ عنها.. إنها تغطش حیاتك لو تبعتها..."

وتبتسم آریتیة ابتسامة هادئة وتقول: "إن الآلهة یا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة فی بنیانك لغرض أسمی من جمیع الأغراض الحيوانیة، وقد كان أجدی الخیر العام أن تُخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد فی عضلاتك، لو لم تكن قد أعدتک لفعال جسام لن یؤدیها غیرك. أجل! إن طریقی لا ینوبها إلا الشوك، وإنها تدمی الأقدام وتجهّد السائرین، ولن ترى فیها زهرة ولا ریحانة، بل لن تسمع فیها عصفوراً یغنی ولا بلبلًا یغرد، وبالعکس، قد تقتتل فیها مع السباع والضواری والثعابین، ولكنك فی آخر كل نصر، وعقب كل ظفر، ترى جنة من الرضی تحفك بالزهر، وترقص بین یدیک بالغواني والقیان. أما ما تغریك به هذه الأنثی الهلوك ففیه حتفك، فحذار. ولس أحب إلیك، كرجل كان له الشرف أن یكون ابن إله، من أن نثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له."

وسكنت آریتیة، ولكن کاکیا لبثت تدل وتئیة وتنبرج، تحاول الفوز بهذا القنص العزیز... غیر أن نخوة الرجولة ثارت فی قلب هرقل، فانتهر الغانیة الغاویة وأغلظ لها، ثم تقدم إلی آریتیة فتناول یدها الصغیرة الحلوة، وطبع علیها قبلة تفیض وقاراً واحتراماً.

ثم قال لها بصوت متهدج خافت: "هلمي بنا يا فتاة فلن أخشى في سبيلك بأساً ولا رهقاً".

وانطلقا... وغابا في ظلام الغابة...

ولم يبرح هرقل معيناً للضعفاء، مغيثاً للملهوفين، إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه، وإذا لقي جائعاً نزل له عن زاده، ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار، ولم تبرح الفضيلة تمشي في أثره أيان ولّى، حتى ضاقت الدنيا بهيراً، ولم تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم، ولا سيما بعد أن اتصل بالملك كريون، ملك طيبة، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا.

لقد أحب هرقل زوجته حباً جمّاً، وأحبته هي كذلك وأخلصت له، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناحيان نجوى الحب، ويرشفان كؤوس الهوى، ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ، ويدبران معه أمور المملكة..

ثم مكرت هيرا منكرها!...

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشده، وتتركه يهيم في الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين. فبينما كان غارقاً في أحلام السعادة إلى جانب زوجته، آمنين مطمئنين، إذا هيرا الآثمة تندس في ظلام المخدع، وتنفض سحرها الفظيع في أذني هرقل، وتمضي لشأنها، فتختبئ في الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط.. وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين، فتشهد المأساة التي تنفرع من هولها الأرض وتميد الجبال!..

وأشرقت الشمس!

واستيقظ هرقل، ونهضت ميجارا، ولكن ناراً كانت تقدح الشرر في عيني البطل! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخرف! وأصواتا كأصوات الشياطين كانت تدوي في رأسه الضخم...

والدم!...

لقد كان ينبثق من كل جارحة في جسمه الأرجواني، فينضح اللحف والأرائك، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس!

وذعرت ميجارا، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباهها..

ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تنزل أركان القصر، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع: "تعالى يا خائنة! أين كنت طيلة الليلة الفاتئة؟! آه أجل! كنت تترغين بين ذراعي عشيقك الجبان! الويل لكما! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب!".

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثة هامدة، قربانا للهوت في عنفوان الصبي، وضحية للردى في ريعان الشباب...

وانطلق يصرخ في ردهات القصر، وهول يزجر في حنيات الحديقة، ثم أطلق ساقه للريح...

وفي قنة جبل تزمزم الأعاصير في جنباته، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة في نوبة جنونية، فينشج ويبكي!...

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس، فتنشق عن إله كريم، هو هرمز رسول السماء، حمل إلى هرقل تلك الإرادة الأولمبية القاسية، التي أصدرها زيوس، متأثراً بإلحاح زوجته الآثمة هيرا، والتي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريزدوس اثني عشر شهراً يصدع خلالها بما يؤمر!

- "لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين.. ولكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المدة، واختزلها إلى ما ترى!".

- "يختزلها أولاً يختزلها، لقد أصبحت الحياة سجنًا بدون ميجارا!".

- "عليك بالصبر يا صديقي، فقد تفيدك طاعة الآلهة..".

- الآلهة التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث!..".

- "صه صه... هلم إلى يوريزدوس، وستكون حراً بعد سنة واحدة...".

* * *

وجن جنون هرقل لهذا القضاء الأولمبي الأعمى، وفر من هرمز في مسارب المياه، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم، ولكنه عبثاً حاول الفرار مما كتبت السماء عليه، وهنا، بدت له صديقه ربة الفضيلة آريتيه، فنصحته، ولم تزل به حتى أقنعتة بخدمة يوريزدوس، فذهب إليه كسير القلب مهيض الجناح، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على قلبه.

وقال له يوريزدوس: "وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل!! إن أمامك أموراً فأعد لها عدتك، فما دموعك على ميجارا بجدية عليك شيئاً...".

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له: "أجل، لقد وصلت إلى آخر الدرب... ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا.. ألا فاذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لأقضيها لك، وأقصر!".

وضحك يوريزدوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شذقيه، وقال: "حاجتي؟! إن لي لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها. وكيف تصبر مثلاً على سبع نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الكنوز والأذخار؟".

وقال هرقل: "سبع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعل ما تكلفني به.. والآن، إذا جئتك برأس هذا السبع، أأكون طليقاً؟".

- "تكون طليقاً؟! إن أمامك اثنتي عشرة مسألة، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا هرقل، فهل إذن، وسنرى...".

* * *

مغامرات هرقل

١. إلى غابة نيميا:

انت الغابة تثير الرعب في قلوب الجن، وكانت الظلمات تضرب في أنحائها فتجعلها تيهاً يعجز بالأفاعي، ويضج بالتنانين. وكان ملكها الضرغامه يربض في المغارة المفرعة، المنشقة كالقبر في أول الطريق المؤدي إليها، وكان يخرج في أول الليل فيصول في القرى المجاورة ويجول، وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير، فلم يكن يبقى على دابة في الأرض، ولا إنسان في الطريق. ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها. ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها، وينبذ الباقي لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع.

ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التي يتحدث عنها السودان هذه الأيام، بل كان أسداً في جرم الفيل وقوته، ورشاقة النمر وخفته، وخبائة الثعلب وحيلته... يثور فينقدح الشرر من مقلتيه، وتومر الأرض وتسجد الجبال بين يديه، وكانت له لبدة نسجت لها الآلهة من أشواك الجحيم، وبطنتها بجحى المنية!

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبال، ويهز جوانب السماء، ويهيج الجنون والفرع في رؤوس الوحوش، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان!!

ولقي هرقل أصدقاءه فنصحوا له ألا يلقي هذا الأسد، وأن يرضن بشبابه.. على أنيابه، وبماء الحياة المتدفق في بردتيه، على جمر الغضى المتأجج في صدقته...

ولكنه أبى!! وانطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة.. وإنه لعل خطوات من الكهف، وإنه لينظر إلى السيف الذي كان إلى هذه اللحظة في يمينه فلا يجده!!

"أين؟ أين سيفي؟... آه! هاها.. لقد سرقت هيرا!!
أرادت الخبيثة أن تجردني من السلاح الذي أنازل به خصمي!
خاب فألك يا هيرا!! سأنازله بغير ما سلاح.. سأحطمه.. سأشده
لسانه حتى أنتزعه من غلاصمه.. إليّ يا سبع نيميا.. إليّ يا ملك الغابة
وسيد وحوشها.. الساعة ساعتك.. لا مفرك يا أبا لبدة!..."

وظفق هرقل يردد كالجنون، وكان سبع نيميا نائمًا فاستيقظ على هذه الصيحات المدويات، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل، وجهاً لوجه..

وبدأت الزوبعة...

والتقى الجبل بالجبل، وتصارع الجباران ساعة، لا هذا ينال من ذاك، ولا ذاك يصل إلى وطر من هذا..

وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب.. وغضب أبو أسامة،
وهاله ألا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصصره..

وتعب هرقل.. ونال منه الجهد، ورأى أن لا بد من آلة، فدار دورة
اقترب بها من شجرة باسقة، فانتزعها وألقى بجذعها في شدي الأسد،
ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه، وانقذف الدم يتدفق من
هنا وهناك... وتسيل به أودية الأرض!!

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل، فقبض على فكي الأسد،
وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ، وخرّ ملك الغابة
يتقلب في لجة من دمه الغزير!

وهمهمت الوحوش مشدوهة!

لقد قتل ملكها.. فلا خوف عليها بعد اليوم! ستكون حرة طليقة،
تجيء وتروح، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو
أسامة!!

ونظر هرقل، فرأى سيفه وراء ظهره!!

لقد جاءت به هيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها،
وتناول السيف باسمًا، ثم تقدم إلى الأسد فسلخ جلده الكبير، وأبقى
على اللبدة الهائلة، وعاد أدراجه إلى يوريدوس، ملتفعاً دثاره الغريب
الذي كان إلى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها.

٢. مع الأفعوان الهائل "هيدرا":

ولقي صديقه يولوس، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيبا، فأخذه العجب، ونذر ليصحب هرقل في جميع مجازفاته، ثم فصلا، وما كادا يفعلان حتى قابلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الأرقم هيدرا: "...فإذا لقيته ثمة فعليك به، ولا تعودن إلا برأسه. فقد حدثنا من عرفه أنه لا يبقى على دابة ولا بهيمة، ولا يعفى من القتل أحداً.. ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان..."

وانطلقا، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية، شهد هرقل حيوانا ضخماً الجثة فظيع المنظر، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية. وأيقن أنه هيدرا، فتناول قوسه الكبيرة، وأرسل إلى الوحش سهماً يهيج به، ليخرج من الماء، وليأخذ معه في نزال وقتال...

وتم له ما أراد. وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة. ويقلب في كل فم لساناً طوله ذراعان، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها، وشرع الفحيح المرعب يصم أذني هرقل وأذني صاحبه.

وبدأت المعركة...

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف، وبضربة قاضية أطاح رأساً من الرؤوس السبعة...

ولكن.. يا للعجب!! لقد نبتت في لحظات قليلة، في مكان الرأس المقطوع، رؤوس سبعة أخرى، أخذت تنمو بسرعة فائقة، حتى أوشكت أن تساوي الرؤوس الكبيرة في حجمها...

وريع هرقل، وهتف بصاحبه يواوس قائلاً: "أوقد النار يا صاح، وأج هذا الجذع فاكو به كل رأس يطيح.. إنني أخشى أن نبت لهيدرا ألف رأس!".

ونفخ في النار وأج الجذع، وأخذ كلها طاح رأس كوى مكانه بالنار، ثم بدا له أن يدع السيف، ويقضي على الأفعوان العجيب بجذع الشجرة الذي كان يكوي به يولوس.

وحدث ما لم يكن في الحسبان.. لقد أرسلت هيرا سرطاناً بحرياً يعض قديمي هرقل وهو يحارب هيدرا، تود بذلك لو تشغله فيستطيع الأفعوان الظفر بخصمهما العنيد.. ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه، وسحق عظامه سحقاً.

وانتصر هرقل..

وظفق يغمس سهامه في دم الأفعوان ليسمها، حتى إذا أصابت رمية لا تفلتها من الموت. وعاد إلى يوريزوس ثملاً بجمرة النصر.

٣. ظبي سيرينيا:

وأسقط في يد يوريدوس حين رأى هرقل يختال في بردة السبع ويتيه، وفي قبضته القوية رؤوس هيدرا هادمة خادمة..
وكان في مقاطعة سيرينيا ظبي له قرنان من ذهب، وأيطلان من نحاس، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب، وكان الملوك إذا أرادوا إعجاز أحد من الناس ليقتلوه، كلفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وإمساكه، فإن لم يفعل، ولن يستطيع أحد أن يفعل، لشدة عدو هذا الظبي، كان جزاؤه القتل. وقد أراد ملك أرجوس أن يعجز هرقل هذه المرة، فأمره باقتفاء ظبي سيرينيا: "فإن لم تعد إلينا به فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام..".
ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي؛ لأنه كان يعدو كزوبعة، فما تكاد حوافره تلمس الأرض إلا كما تلمس السماء كف سكران، فلجأ إلى الحيلة، واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشاخ رقيقة من الثلج، وطارد الظبي حتى ألجأه إلى الحفرة، ووقع فيها، فنزل إليه واحتمله، ومضى به إلى الملك الغاشم.

٤. خنزير أرمنثيا:

ثم أمره بقتل خنزير بري مخرب، كان يأوي إلى غابات أرمنثيا، ويقطع الطريق على القبائل الرحّل، ويقتل كل من تحدّثه نفسه بحاربه أو الوقوف معه في ميدان. وكان ذلك الخنزير لا يبالي شيئاً في الأرض أو في السماء، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة في الشر، وتحالف على إيذاء الناس. فلما اشتبك هرقل وإياه في نزال تشيب من هوله الولدان، وشعر الخنزير أنه مقضي عليه لا محالة، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاءه السنتور، ولكنهم لم يصلوا إلى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز، فنشب قتال مروع بينهما، وأخذ هرقل البطل يسدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً. وأقبل شيرون - وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه - ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه، ولكن وا أسفاه! لقد أصماه هرقل بسهم مسموم فأرداه وهو لا يعرفه! فلما أدرك أنه أستاذه، أقبل عليه، وعني به، وجمع من الأعشاب الطبية ما حسب أنه ينقذ أستاذه من براثن الموت، ولكن بلا جدوى! ومات شيرون، وأهوى عليه هرقل يقبله، وفي عينيه دموع المحبة والإعزاز.

وتعاون هرقل ومن بقي من السنتور فدفنوا القتلى، ثم أقاموا قبراً مشيداً دفنوا في ثراه شيرون، ومضى كل لطينه..

٥. زرائب أوجياس ملك أليس:

كان الملك أوجياس، ملك أليس، يقتني عددًا عظيمًا من الماشية والخيول والغنم، تزدحم في زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة. وكانت النظافة في هذه الزرائب مهمة إهمالًا تامًا، حتى كانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين، وأتت الروث فأحدث طاعونًا مروعا أوشك أن يأتي على جميع الأهلين، وقرر الأطباء أن لا سبيل إلى مقاومته إلا إذا عني بتنظيف زرائب الملك.. وعلم يوريزدوس بما شغل بال صديقه ملك أليس، فابتسم ابتسامة صفراء، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث الستور: "إذن فعليك أن تتوجه إلى صديقي أوجياس، ملك أليس، فتنظف زرائبها مما بها من خبث، وتكون بذلك قد أدت خمسًا من المسائل الاثنتي عشرة، التي كتبتها عليك الآلهة".

وامتعض هرقل في أعماقه، وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبي، ولكنه ذكر نصيحة آريتيه، فصعد بالأمر، وذهب من فوره إلى أليس، ليرى كيف ينظف زرائب الملك..

وثمة، رأى مجرى عظيمًا من الماء، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب، وينحدر انحدارًا شديدًا حتى ينتهي إلى البحر، فبدا له أن يغير مجرى الماء، بحيث ينصب في الزرائب نفسها، فيكتسح الروث، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد.

وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الأهلين!

وحاول ملك أليس أن يستبقيه ليجزيه، ولكن هرقل أبى شاكراً، وقصد إلى يوريزدوس يتلقى أوامره.

٦. عجل مينوس:

وكان نبتون إله البحار قد أهدى عجلاً جسداً لصديقه مينوس ملك كريد، كي يقدمه قرباناً للآلهة في العيد الأكبر الذي يحتفل فيه بميلاد نبتون، ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها وضخى به مكان هذا العجل الإلهي السمين، واستبقى لنفسه هدية الإله.

وغضب نبتون، وأقسم ليكون هذا العجل نقمة على مينوس وملئه، فسخر عليه طائفاً من الجنون، فطفق العجل يخرب ويدمر، ويقتل الناس تقتيلاً..

وعلم يوريدوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد في عجله، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه..

وأبحر هرقل، ولقيه مينوس فرحاً متهللاً، وذهب من فوره لمنازل العجل، فكانت معمعة، وكانت حرباً عوان..

لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه، فيخبط به الأرض فتندك، ومع ذلك ما استطاع أن يقتله! وأخيراً اكتفى بأن صفده بسلاسل وأغلال وعاد أدراجه إلى أرجوس، وودعته كريد كلها.

٧. خيول ديوميديز:

وكان الملك ديوميديز، ملك تراقية، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار، ولا تباريها خيول في مضمار، ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس، بل كانت بالوحوش أشبه، وإلى السباع أقرب؛ لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيع النبات، بل بالعكس، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً..

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم، وتستطيب لحم الإنسان وتلذه، ولم يكن الملك القاسي يخل عليها به. ولكي يوفر لها الغذاء الغريب، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك! فلما نعى الخبر إلى يوريزدوس، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله.

وشد هرقل رحلة إلى أرض تراقية، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس، فلما سأله ديوميديز في ذلك، انقض عليه كأنه الحتف، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها...

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقا، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر!! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم، ونثر الورد والريحان تحت قدمي هرقل، ومضى البطل فألجم الخيول كلها، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريزدوس!!

٨. منطقة هيبوليت مليكة الأمازون:

وكانت ليوريدوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء مشغوفة باقتناء الحلي والجواهر النادرة، تضحي في سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا، إذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة؟ وكان أبوها الأفين يلي رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً، فلها وصفت لها منطقة هيبوليت، مليكة الأمازون وما رصعت به من اللآلئ، وثار في نفسها فضول الذهب، وألم بها مرض الحصول عليه، فانطلقت إلى أبيها تبكي، وتشكو العطل وقلة الحيلة، ولو أن خزانها، كانت تحوى نصف ثروة المملكة.

وسألها أبوها ما بكاؤها؟ فتأهت قليلا ودلت، ثم ذكرت منطقة هيبوليت!!

وربت الملك على كتفي ابنته، ودعا إليه هرقل، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على منطقة الملكة، ولو أدى دمه ثمنها لها؟! أما الأمازون، فقبيل عظيم من النساء المحاربات، يحمين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحير الألباب وتذهل العقول.. فنهن فريق يعمل في الحصون ويسهر على قلاع المملكة، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء، وثالث يقوم بمهمة الشرطة والعسس، ورابع للعمل في الأسطول الذي يلقي الرعب في الشواطئ... ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال، فإذا جازف رجل وانسرق بينهن، ترصده الموت في كل مكان. وكانت مملكتهم في جزيرة نائية قاصية، ذهب هرقل في البحث عنها كل مذهب، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه إليها.

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الأمازون، ولكنه أبي، لأن مجازفاته التي يتعرض بها للهلاك، إن هي إلا ثمن الحرية التي ينشدها ويحلم دائماً بها!..

ووصل هرقل إلى المملكة، وتحايل حتى مثل بين يدي الملكة، فلقيته بما هو أهله من التجلة والإكرام، كابن إله عظيم.. وأبدى رغبته في الحصول على المنطقة الغالية التي تزين وسط الملكة، وتحلي خصرها، ليقدمها ثمناً لحرية الضائعة، للفتاة المزهوة (أدميت) بنت ملك أرجوس..

وتبسمت الملكة، ووعده أن تخلعها عليه، ليصنع بعد ذلك ما يشاء، ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة، وعشاء فاخر... وهنا تبرز هيرا لتمثل دورها؟!..

لقد هالها هذا النجاح المطرد الذي يظفر به خصمها في كل مكان، فتحولت إلى أمازونة جميلة، واندست بين رعايا الملكة، وألقت في روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن، وأنه إنما أقبل ليسبي الملكة، ليفر بها إلى ملك أرجوس، وأنه اتخذ المنطقة تعلقة لذلك جميعاً، فثارت ثائرة الأمازون، وتجهرن حول الملكة، وصارحنها بما قالت لهن هيرا. فأمرتهن بالحرب. ولكن هرقل، البطل الأعزل، انقض كالمنية على الأمازون ففرق شملهن، وأظفرته شجاعته بهن، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها، ونظر فرأى هيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة، فأشار إليها قائلاً: "وهنا أيضاً أنتصر عليك، وسأنتصر عليك دائماً".

٩. طيور بحيرة ستمفالوس:

وطربت ابنة الملك لمنطقة هيبوليت، أيما طرب، وكبرت في نفسها منزلة هرقل، فاستوصت به أباهاً خيراً..

واستجاب يوريدوس لشفاعة ابنته في هرقل، فلم يكلفه هذه المرة شططاً، بل اكتفى بأن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستمفالوس ليبيد طيورها ذوات الخالب النحاسية التي تدوم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين، ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه المرنان، وفي كئنته سهامه التي رويت من دم هيدرا.

١٠. قطعان الجريونز:

وكان يأوي إلى سفوح الجبال في مقاطعة أريثيا ماردا مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز، وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم، عرفت في سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها، حتى لكان يضرب بها المثل كلمة فاخر الرعاة بقطعانهم.

وطمع يوريزدوس في نعم جريونز وشائه^(١) فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها.

وأخذ هرقل السير، وألقى المارد ممدداً في كهفه السحيق يغط في نوم عميق، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفله إلا جثة لا نأمة فيها ولا نفس! وساق القطعان، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة، والوفر الكثير.

وأرعى الليل سدوله، ولما بلغ هرقل نصف الطريق، أناخ في منحدر معشوشب، ولعبت سنة من النوم بعينه فغفا، وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الخمرية الحلوة.

وكان يأوي إلى هذا الجبل، جبل آفتين، ماردا لص قطاع طريق، يدعى كاكوس، وجد هرقل غارقاً في سبات ناعم، فذهب بنصف القطيع أوزيريد...

(١) النعم: الماشية، والشاه: الغنم.

واستيقظ البطل على رغاء يتجاوب في حدود الأفق، فلها تفقد قطعانه
انطلق في أثر اللص حتى لحق به، وحطمه تحطيمًا!
وقبيل شروق الشمس، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب
تستقبل الرزق والغنم، وتهتف باسم البطل الحلال الذي بهرها
بشجاعته، وخبأ ألبابها بما أبدى، وما ينفك بيدي من ضروب
القوة والاستبسال..

وأحس يوريزدوس بما انطوت عليه قلوب الأهالي من المحبة
والافتنان بهرقل، فسخط وحنق، وبيت الشر المستطير..

١١. تفاحات هسبريا الذهبية:

وأدركت هيرا ما ينقم الملك من هرقل، فوسوست إليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية، وهيئات هيئات أن يستطيع أحد الحصول عليها!

ولقد أهديت هذه التفاحات إلى هيرا، ليلة زفافها إلى زيوس، رب الأرباب، فيما أهدى إليها من تقدمات وتحف، أهدتها إليها "جي" ربة الأرض، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها. لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص، فقد رصعت بأندر اللآلئ، وزينت بصور الآلهة، ونقشت فيها حداثق الأولب، ثم هي تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت: ذلك أنها إذا غابت الشمس، وأقبل الليل بظلامه، شعت أضواء، ولألاء قل أن تصدر إلا عن كوكب دري، أو شمس وضاءة، فتنتشع الغياهب وتنجلي الدياجير!

وحسبك أن تعلم أن هيرا نفسها لم تأمن الهة الأولب وحراسها الغلاظ على هذه القنية النادرة، فأرسلت بها إلى الهسبريد، بنات هسبروس إله الغرب العظيم، ليحرسنها. ولتكون عندهن في مأمن من كل سارب بليل، أو سارق في نهار، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها، فعلقنها في دوحة باسقة في قصرهن المنيف، وأقمن على حراستها التنين الهائل لا دون الهولة، الذي قيل في وصفه أن له سبعين ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف عين، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً، ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سمكاً، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمرز، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن، ومكاء الشياطين.

وانقلب هرقل على وجهه في الأرض حيران!

أين هي تفاحات هسبريا هذه؟

"أفي الأرض أم في السماء؟ لأمض! فرب إله دلي إليهما..."

وشرق وغرب، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وانسرق إلى الكهوف والغيران، وأوغل في الجبال، تحدر في القيعان، ومر بكل حنية، ووقف عند كل عين، حتى كان لدى نهر أريدانوس، ووقف بشاطئه يتناجى، فخرجت من الماء النخير عرائسه، ورحن

يسرين عن هذا اللاجئ الحزين..

وإنه ليسألهن عن تفاحات هسبريا، فيبتسمن له ويتلطفن معه، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس إله البحر، عسى أن يهديه إلى ما يريد. ويهيم في الأرض محاذياً سيف البحر، وحتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم، وخط الشيب رأسه، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذي النتوء، وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدهم فيهما السنون، وتطل من حدقتيهما الأحداث.

وجده جالساً القرفصاء مقلباً ناظريه في مملكة الماء التي تتصل باللانهاية، فألقى عليه تحية هينة، رد عليها الشيخ بهذه العبارة: "أيها الفتى لماذا قطعت على تأملات؟".

"فقال هرقل: أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلا ما أخبرني عن حدائق الهسبريد، فتكون لك علي يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها!".

وتجهم نريوس وقال: "حدائق الهسبريد! أوه!.. أنت هرقل إذن!".

فبهت هرقل وأجاب: "أي وحقك أنا هو، فمن ذكرني عندك؟!".
"ليس هذا من شأنك يا بني، ولكن لعلك تبتغي تفاحاتها الذهبية؟".

- أي وزیوس یا أبتاه!."
- "بشراك إذن! فلن يحصل عليها إلا أنت، ولكنك لست أنت الذي ستنفذ إلى حدائق الهسبريد! اذهب إذن فالتمس المسكين برومثيوس مكبلا فوق جبال القوقاز، فأحسن إليه وسله حاجتك، فهو وحده الذي يستطيع إرشادك إلى ما تريد...".

وشكره هرقل، وحياه، وأطلق ساقيه يطوي الفيافي إلى القوقاز، وهناك وجد برومثيوس والرخ ينوشه، بحيث يمزق كبده ويهرأه ويتغذي به، فوتر قوسه، وسدد إلى الطير سهماً فأصمأه، وخلص إلى الإله البأس فأزال أصفاده، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه، ثم تحدث إليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية، فخدجه برومثيوس بنظرة فاحصة، وقال له: "لكأنك هرقل إذن؟".

- "أجل أنا هرقل يا أبتاه!".
- "وأنت عدو هيرا يا بني؟".
- "عدوها المبين يا أبتاه!".
- "مسكين!".

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته، وطار لونه، وهاجت في فؤاده البلابل والأشجان، ثم اتصل الحديث، وقال برومثيوس:

- "انطلق يا بني إلى أخي أطلس، هناك.. هناك في أفريقية المظلمة شمالا بغرب، تجده على قنة جبل السماء على منكبيه، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب. فأقرئه سلامي، وزف إليه بشري خلاصي مما أوقع زيوس بي، ثم حدثه بحاجتك يقضيها لك، فهو وحده يعرف أين حداثق المسبريد، وهو وحده يستطيع أن ينفذ إليها، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذي يحرس تفاحات هسبريا الذهبية، فإذا أتاك بها، فاحذر أن يأخذك بشيء من مكره، فإني قد علمت أنه بدأ يتمل من حمله الثقيل، ويود لو ينجيه منه أحد، ولو انتثرت الكواكب، وانتقض نظام الكون!"

١٢. هرقل يصارع أنتيوس:

وفي طريقه إلى أطلس، لقي من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هذا، فمن ذلك أنه مر بقوم من الأقزام ضئال الأجسام قصارها، كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم، مفتول العضل: ليحميهم من جيرانهم الأعزاء الأقوياء، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التي كانت تلتف أعنانهم وتبيد زروعهم كلها تم نضجها في كل عام، وكان ذلك المارد "آنتيوس" ذا حول وذا طول حتى لكان يخشاه الوحش، ويتخوفه الجن، وترجف من صولته أفعوانات البحار، فلها شهد هرقل يخب في أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى، أخذ أهفته لمنازلته، ولم تساوره ذرة من الشك في أنه منتصر عليه. فلها وصل هرقل، حيا أحسن تحية، ولكن آنتيوس لم يجب، بل إنه سارع فأخذ بتلايب البطل عابر السيل!!

- "ماذا بك أيها الأخ؟ دعني، فليست لي عندك حاجة!".
- لا، لا نجوت إن نجوت! لا أرى إلا أن أصرعك!".
- "ولم؟!".
- "هذا ما لا أعرف، ولكن لا بد من أن أصرعك على أية حال!"..

وتصارع الخصمان، وأقبلت الأقزام ترى إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلبيه تلبيا!

وكان انتيوس كلما خائته قواه، وأيقن أن هرقل لا بد صارعه، وقف قليلا على أديم الأرض يستمد منها قوة، ويستلهم الحول من أمه (جي)..
 فهو ابن (جي) إذن، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد، إذن، فلتمده بكل ما في سرها من قوة ليصرع هرقل!

وخارت قوى البطل! وراح يلهث من شدة النصب، بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر، عندما لحظ أن آنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض، فرفعه رفعة هائلة، ولم يمكنه لحظة من الوقوف على قدميه، ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل، حتى شقق شققة كانت هي شققة الموت...!

فألقي به... ومضى لشأنه!!

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطئ، ويترامين بلائى مما يعد لديهن من حصباء البحر، فوقف غير بعيد وهتف بهن:
 "يا عرائس الماء الجميلات! هل لكن أن تهديني إلى أطلس الذي يحمل السماء، ويمسك كواكبها أن تقع!؟"

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت: "امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذي يفصل البحر المحيط من مائنا هذا (وكان البحر الأبيض)، فإذا استطعت أن تنفذ فإنك تكون على فراسخ من أطلس..
 وشكرها هرقل، وانطلق..

وكان أمام السد، ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قنن وقلل وأحياد، فلم يستطع أن يتسلقه، ضربه يمينه ضربة، وبشماله أخرى، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية، وما تزال تعرف إلى يومنا هذا بأعمدة هرقل!!^(١)

ونظر فما هاله إلا هذا الإله العظيم سامقاً في الأفق، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء. والنجوم منتشرة من حوله كأنها قطرات أمطار في يوم عاصف!

وتقدم هرقل فحيا الإله الضخم، وحياه الإله الضخم بأحسن مما حيا، ثم أقرأه هذا تحية برومئوس، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التي ظل مكبلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً!

وطرب أطلس لهذه البشرية، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطاة بالثلوج، ثم قال:

- "ومن ينقذه من عذابه الطويل يا صاح!".
- "أنا، إن كان يسرك ذلك النبأ".
- "أنت؟ أنت من المكرمين إذن! مرحباً بك أيها المخلص الأمين! لقد كدت ألقى بهذا الحمل الذي ترى لأنقذ أخني، ولكنني خفت أن يهلك العالم بمن فيه... و... على ذكر أخني، كيف هؤلاء الناس الذين خلق؟ أبخير هم؟ وهل يحبون له حقاً؟ إن زيوس مغيظ منهم، وامراته هيرا محنقة كذلك، أعندك من أخبار هؤلاء شيء؟

(١) بوغاز جبل طارق.

- عندي أشياء يا أبتاه.. أنا ابن زيوس من الكمين، وقد
نقمت هيرا على والدتي، فأرادت أن تفجعها فيّ، وقد
أغرّت رب الأرباب بي، ففوضى أن أخدم النذل
يوريزدوس سنة بتمامها أصدع له خلاها بما يأمر، وقد
أرسلني أجوب الآفاق وأذرع الأرض من أجل
تفاحات هسبريا الذهبية، وقد ذكر لي أخوك، بعد إذ
أطلقته. أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد،
وأناك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات،
فهل أسعد بأن تؤدي إليّ هذه اليد؟ لقد كادت هيرا
كيدها هذا، وإن لم تنصرتني أغدو من الهالكين!".

وشاعت الخيلاء في أعطاف أطلس، وسرت حميا الزهو في ظهره
الشاسع، فقال: "أجل يا صاح، لن يستطيع قتل لادون غيري، ولن
يدخل حدائق الهسبريد سواي، ولكن كيف أترك حملي هذا لآتيك
بالتفاحات؟".

ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال: "أنا أحمل
عنك هذه القبة يا أبتاه، حتى تعود بالتفاحات!!".

وما كاد يتم كلمته، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء، وانطلق
أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار يتمتع نفسه بمشية حرة طليقة
في حدائق الأرض الغناء!!

وعبرت أيام...

ثم ذكر تفاحات هسبريا، فذهب إلى حدائق الهسبريد، واقتحم
الأسوار، وانقض على التين لادون فزلزلت الأرض تحتها.

ولم يدعه يفلت، برغم مرونته في الوثب وسرعته في الالتفاف، حتى خر صريعاً.

ومد يده إلى الأيكة الزاهية في السماء فتناول التفاحات المتلائة الوضاءة، وعاد يزهي ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب.

وما كاد أطلس يلح الحمل الثقيل الذي يؤود هرقل حتى ذكر الأدهار السحيقة التي لبث يتمل طوالها تحت عبئه، فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود إلى حملة الشاق.. وبدا له أن يدع هرقل ويمضي، ولكن هرقل المتعب فطن إلى ما وقر في قلب أطلس، فناده: أبتاه! لعمرى إن حملك لأخف من الهواء، ولعمرى إنني لأستطيع أن أثبت له إلى نهاية الأبد!".

وبهت أطلس وقال:

- "إذن لتمض في حملك ما دام يسرك!".

فأجاب هرقل: "ليس أيسر من هذا! ولكن هل تسمح فتحمل مكاني برهة حتى أضع حوبة فوق كتفي، فإني أشعر بنتوء أديم السماء!!".

وقبل أطلس المغفل، فنثر التفاحات من يده على الكلا الأخضر وتقدم فحل محل هرقل!!

وانتظت صاحبتا التفاحات، وانطلقا يلوي على شيء!!

وبعد رحلة طويلة مضية: دخل علي يوريدوس بالقنية الغالية التي خلبت لب فتاته أدميت، نفرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها..

١٣. رحلة هرقل إلى الدار الآخرة:

لم تكن مخوفة بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة، فقد سلك هرقل سبلاً من قبل، كان الموت يجثم في كل خطوة فوقها، وكانت المنايا تتربص فيها، ثم تفر منه آخر الأمر، كأنما هو موت للموت، ومنية للمنية وفناء للفناء...

أسقط في يد هيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا، واستولى عليها الجزع حين رأت التنين لادون مضرجاً بدمه، فوسوست في صدر يوريدوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة!! وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة، الذي رأيناه يعدو في أثر بلوتو - إله الموتى - حينما زار الدار الأولى ليخطف برسفونيه، وهو أبداً يربض عند قدم سيده الجالس فوق عرش هيدز، ويقلب في غيب السفل أعينه الست، كأنها أنجم تحترق في فحة ليل بهيم، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية، ينشب أظفاره في أرواح المجرمين، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى!

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبه عليه السماء، فانطلق يعدو إلى دار الموتى، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده، حتى إذا كان قاب قوسين من السدة القائمة الدجوجية، ووجد سيربيروس مقعياً يغط في نوم عميق، وإله الموتى مستلقياً يقلب في حضنه القوي برسفونيه الجميلة.

انقض على الكلب نخنقه حتى لا يعوي فتعاويه كلاب الحميم كلها
وتكون هنالك الطامة!.. وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من
الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه
الحزينتين.

وانخلع قلب يوريزدوس حين لمح الكلب الهائل!
لقد كانت الظلماء تندجى في أشدائه فتكسف الشمس الوضاء،
وترد نور النهار المتلألئ ديجوراً يلج في ديجور!!
وكان الزبد ينتشر من أفواهه كأنه ندف يساقط من عل في ليل
عاصف!

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى وينثني كأنه ذنب هيدرا أو ذيل
لادون!

وكان يعوي وينبح فيقلقل الجبال المجاورة، ويزلزل قصور أرجوس!
وانظر إلى الملك الجبان!

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع، وانطلق إلى مخزن الغلال
المجاور فاخْتَبأ في خاية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يخنق،
وآلى ألا يخرج حتى يعود هرقل بسيريروس إلى هيدرا!

وهكذا أصبح هرقل حراً، وألقيت عن كاهله هذه الربة التي أذلته
طويلاً، وتلفت حوالبه فوجد الحياة تبرز كأنها غائية، ووجد كل
شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح، والأخذ بنصيب مما
تفيض به هذه العاجلة من مباحج ومغريات.

وزهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى الأولمب ، ليلقى أباه ويقدم له طاعته، وليرى هل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً..

ولقيه أرباب الأولمب هاشين باشين، وأخذوا يتندرون بمجازفاته العجيبة التي انتصر فيها على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون..

أغرقوا في الضحك عندما ذكر أطلس وما كان من أمر الحوية.. واقترح هرمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه، ويباروه في العدو والسباحة وألعاب القوى، لتتم بذلك بهجة لقاءه، وليعبروا عما يكونه له من حب، ويضمرون من أعجاب، فأقيم ملعب الأولمب الفخم، وشيدت على جوانبه المدرجات التي تتسع لألف ألف مشاهد من الآلهة وأنصاف الآلهة وكبار المدعوين من عباد برومئوس^(١).

وتم مهرجان الألعاب، وحاز هرقل قصب السبق في أكثر المباريات، وكان هذا هو الأولمبياد^(٢) الأول الذي أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات. وثابت السنون..

ومر هرقل بقوم سيكون، وقيل له إن أدमितوس^(١) ملك تساليا مرض، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود في هذه الدار الدنيا،

(١) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجية.

(٢) الأولمبياد وهو دورة الألعاب الأولمبية.

فأجيب إلى ما تمنى، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضره الموت، وهنا تقدمت زوجته المخلصة أليستيس فضحت بنفسها كي ينجو بعلمها من الموت، وليخلد ما شاء له الخلود. وماتت الزوجة الوفية فداء للملك.. وينظر أدميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه، ويكون في حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش في صحراء، ويقدم إليه الطعام فلا يكاد يسيغه، وترقص القيان بين يديه فيثرن في نفسه الاشتزاز كأنهن جنة تدمدم في ظلام غابة.. ويغض الدنيا...

ويود لو كانت زوجته الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظة واحدة، وبتلاشي بعدها الحياة بكل من فيها!

لذلك يبكي الملك، ويبكي حوله شعبه الأمين! ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ إلى هيدز - دار الموتى - فيستنقذ أليستيس من براثن القناء، ويردها معززة مكربة إلى زوجها المسكين فيهدأ قلبه، ويرقأ دمه، وتستقر نفسه، ويفيء إلى أمر هذا الشعب الذي تكبكب حوله يعول وينتحب..

ونفذ البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة أليستيس، فتغفل حارسها الجبار وخنقه، واختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون أن تشعر به زبانية بلوتو.

وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك، ورفرف السلام على المملكة.

(١) أسطورة أدميتوس وزوجته أليستيس وطرد أبوللو من السماء هي من أبرع الأساطير الإغريقية.

١٤. هرقل وأومفاليه:

وذهب هرقل يزرع الأرض، واشترك في حملة الأرجونوت ضد السنتور، وانضم إلى الإغريق في حصارهم الأول لطروادة. ولقي رجلا ذا خيلاء وكبر فقتله ظلماً، وكان زيوس ينظر من علياء الأولمب، فعبس وبسر، وقضى أن يظل هرقل في خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين.

وتجهم هرقل، ولكنه لم يكذباً يداً خدماته التافهة للملكة، حتى راعه جمالها، واستهوته مفاتها، وأحس للمرة الأولى في حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً بتأجج في قلبه يوشك أن يجعله ضراماً.

وحلا في فمه ما مر من الذل، وطلب ما كره من العبودية، وود لو قضى الحياة في ظلال هذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم بال، ولكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى.

١٥. زوج هرقل:

وطوف هرقل في أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون مملكة أونوس، ولقي ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور في نحيمة غناء، وكان قلبه قد نهل من حمرة الحب، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل، وكان لسانه قد انحلت عقدته من وحي الهوى، فانطلق يلعب الفتاة ويداعبها، وينق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى، وتهتف بالخضرة والحمرة، وتصاخب الروح بالعبير الفياح. وأنست ابنة الملك بهرقل واطمأنت إليه، وبثها وبثته، وتشاكا ما شاء لهما الغرام الروي، والحب الفتي، والدمع المسكوب! وعلم منها أن أخيلوس، أحد آلهة الأنهار، قد خطبها إلى والدها، وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد:

"فهل أسعد بأن تزيج هذا الكابوس عن قلبي،
وتقف حائلا بيني وبين الشقاء الذي يتربص بي،
فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب، ويرفلان
في برد السعادة، ويتغنيان مع الطير
ألحان الهوى والحياة.." (١).

هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل، فهاجت في قلبه نخوة البطولة ونحيمة المغامرة، وأطلقت في كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال:

(١) هذه السطور من سوفوكليس في مأساته الخالدة "عذارى تراقية".

"قرّبي عينا أيتها الحبيبة فليس أيسر
على هرقل من حرب الآلهة، لقد صرعتهم
جميعاً في حفل الأولمب، وقد مربّي من المغامرات
ما ينخلع من بعضه قلب أخيلوس...." (١).

واستأذن هرقل على الملك، وحيّا أحسن تحية، ثم طلب يد ديانيرا..
وكان أونوريوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل
ملوك هيلاس وأمراءها، وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو
يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم، فلما تقدم إليه هرقل
استبشر وقال: "... لقد كنت يا بني وعدت أخيلوس أن يبني على
ديانيرا، وهو من تعلم في الحول والطول والجبروت، لكنني مع ذاك
لا أفضله عليك، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه، فمن يصرع صاحبه
كان كفواً لديانيرا".

وقبل هرقل، ورضي أخيلوس، واجتمع الناس من كل فج يشهدون
الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين.. وكان كل واثقاً بنفسه، لا
يخامره أدنى شك في أنه فائز على صاحبه. فلما تقابلا، ثار من
حولهما النقع، كانت أنظار الناس كأنها متصلة بسواعدهما بأمراس
شداد، وبعد قليل أخذت الأرض ترتجف من تحتها، وطفق
الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير.. وكانت ديانيرا تشرف من
مقصورتها وتكاد تغص بريقها إشفاقاً على هرقل.

(١) هذه السطور من سوفوكليس في مأساته الخالدة "عذاري تراشينيا".

وكان هو كذلك، كلما خارت قواه، نظر إليها النظرة فتتجدد بها روحه وتتضاعف قوته ويمتلئ قلبه بالآمال.. وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل، وكان يستطيع أن يتشكل بأي خلق أراد، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة إلى تنين عظيم الجرم، إلى أسد بادي النواجذ، إلى.. ما شاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع.. ثم انقلب إلى عجل جسد ذي قرنين كبيرين، وشرع ينطح هرقل، وهرقل يتقيه، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكتا قبضتيه، وجعل يخط برأسه الأرض في عنف وغل، حتى كسر أحد القرنين، وفر أخيلوس من الميدان هارباً.. لا يلوي على شيء..

ودوى الملعب بالتصفيق، واندلعت الحناجر بالهتاف، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق.. وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة فردوسية خالدة، لا يزال صداها يرن على شفاه المحبين..

وتم العرس.. وانطلق هرقل بزوجه يحجب الآفاق، وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا. فبينما كان يعمل فكره كيف يقتحمه، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجته فيعبر بها إلى العدو الثانية سالمة آمنة، ثم يرتد فيحمله إليها كذلك، وقبل هرقل، ونسي ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء، وحرّب قديمة تدمي لها قلوبهم، وتقرح نفوسهم، وأعان هرقل زوجته فاستوت على ظهر السنتور، وخاض بها الماء وهو يطفو من الفرح، ويحلم بالمني والآمال، فما كاد يبلغ الشاطئ الآخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاة من سهام هرقل.

ولكن ديانيرا صرخت صرخة مدوية نبهت ما غفل من سمع زوجها، فلما فطن إلى خيانة السنتور، شد قوسه العظيمة، وأرسل إلى دبر السنتور سهمًا مراثيًا كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى!

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته، وبرودة الفناء تشيع في جسمه البدين، فأقسم ليكيدين لهرقل فيذيقه من هذا السم الذي سقى به سهامه ما يودي به. فقال لديانيرا: "أيها الفتاة! لا تثقي أن حب هرقل دائم لك، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسى وأصبي، وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتفانى في حب أومفاليه، نخذي قيصي هذا فاحفظيه لديك، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة، أو رأيت فيه ازورارًا، فابعي به إليه ليلبسه، وألقي في روعه أنه يحفظه من أعدائه، فإنه إن فعل، عاد إليك بقلب مفعم بالحب، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق.."، ثم خر السنتور ميتًا!

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة، وفي نفسها من الهم شيء عظيم! "من أومفاليه هذه؟! كان يحب أومفاليه؟ كان يحب فتاة غيري؟ وحق زيوس لأسألنه! ها هو ذا قد سبح إلى الشاطئ!".

ولقيته فسألته، فاعترف لها بكل شيء، وطمأنها على محبته وإخلاصه.. ولكن قلب المرأة لا يعرف هذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة! فقد ظل الوسواس يدب في نفس ديانيرا، حتى كان هرقل في إحدى جولاته، وكانت هي عند أبيها ملك كاليدون، فطالت غيبته، وذهبت بها الظنون من أجل ذلك كل مذهب.

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى وصيفاتها^(١) إلى هرقل في مناه البعيد. وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السنتور. فلما لبسه هرقل، التصق به التصاقاً، وأخذ السم يشيع في جسمه الحديدي فيذيبه ويفتته..

وصرخ البطل بلا جدوى! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق، ولحمه يتهراً، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت.. ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً.. وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل في دموع وآهات حارة..

ولفظ نفسه الأخير وهو يبكي ويقول: "فدى لك نفسي.. يا.. ديا.. نيرا!".

* * *

(١) في أحد المصادر أنها أرسلت خادمها الصانع ليخلص.

"وهوى إلى الأرض ما كان من الأرض، ورفرفت الروح الكبيرة في جمهرة من أرواح الآلهة التي أقبلت من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم. والكل ضاحك مستبشر أن ألقى أخوهم حملة الثقيل، وخرج الأولمب جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه في عليين^(١)".

وحمل الجثمان الطاهر إلى جبل أوبتا، حيث دفن في إجلال وإعظام، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها الغزير..

* * *

(١) هذه السطور من شلر الألمانى. وفي بعض المصادر أن الذي أثار الغيرة في قلب ديانيرا، أنها سمعت أنه عاد إلى إحدى صويحاته القدامى "أبول"، وأنه هام بها، ومع ذاك فلو قد علمت أن القميص مسموم لما أرسلت به إليه.

التوت الأبيض والتوت الأحمر أو (بیرام وتسبيه)

كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها.
كان فتنة في فتنة، في جسم قوي، وقلب حمي، وخلق حيي، وقوام
مفتول، ونفس حلوة ساكنة سجاو^(١).. وكانت قسيمة وسيمة خفيفة
لطيفة، غضة كالوردة، عطرية كأنفاس البنفسج، تفر عن فم نحري
شيت، وترنو بعينين دجاوين نجلاوين، وترسل شعرها المغدودن^(٢)
على ظهرها العاجي تارة، وصدرها المرمرى أخرى، يداعبه النسيم،
وتقبله الآلهة، وتنتظم فيه حبات القلوب..

وكان يبتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها
وكانت تلقاه، وكانا يتلاعبان في الصغر، طفلين كالملائكة، ثم شباً،
فكانا ينفران إلى الخلاء والأدغال، ويلتقيان عند النبع القريب،
ويتسلق بیرام أشجار التوت الأبيض - ولم يكن التوت الأحمر قد
عُرف بعد - فيز أغصانها وأفنانها، ويساقط الثمر الشهي اللذيذ على
سندس العشب، رطباً جنيّاً.. فتأكل تسبيه، وتقر عينا!!

(١) ساكنة.

(٢) المغدودن: الناعم الطويل.

ثم ترعرعا أيضاً، ودبت الحياة الحلوة الجميلة، حارة متدفقة زاهرة، في قلبيهما الصغيرين، وأخذ الفؤادان الصغيران يثبان إلى الأعين السعيدة الطاهرة يرى كل إلى صاحبه، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب، للأيام المقبلة.

ولم يعرفا أنه الحب، ذاك الذي يخفق في صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين، حين ألح عليهما، وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء، وأصبي ما يكونان إلى اجتماع، ثم عرفا كيف يتشاكان، وكيف يتباكان، وكيف يكون الليل جحيماً حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه، ويجمع بين روحيهما بسده ودموعه وطويل أئينه، وكيف يكون فردوساً خالداً حينما يجمع بينهما في يقظة أو في منام.

ولم يقو بيرام علي عذاب البعد، فاتفق وتسببه على أن يكلم أباه ليكلم أباه في الخطبة، ولكن والد بيرام أبي واستكبر ورفض أن تكون هذه الفتاة التي هي مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده، وكذلك أبي والد الفتاة، ثم شجر الخلاف واتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتداب القوم وتناكروا، ولكن ما في قلب الحبيين ظل على ما كان عليه، بل ألهب البعد الذي جرت إليه الخصومة أوار حبهما، فازدادا هياماً، وذابا غراماً، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً..

ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آهاتها فترحمه مما يقاسي.. وراحت هي تبكي وتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة، وترسل آهاتها في صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة الكلمى، فتوصل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين.

وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وانهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها.. وكانت الغرفة التي ينام فيها بيرام ملاصقة للتي تنام فيها حبيبته تسبيه، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه ينسابان إلى غرفة تسبيه، وأخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب في غرفة بيرام، وأخذت النجوى الحلوة، والشكوى الجميلة، وغزل الكلام، وحنين القلوب، ينتقل في برج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدها الآهات الملتبة، وتذهب بها القبلات الحارة، ترف بأجنحة من أثير، من فم إلى فم..

- تسبيه، تسبيه!
- من؟ من يناديني؟
- تسبيه، هو أنا - أنا بيرام!
- من أين نتكلم؟
- من هنا.. ألم تشعرى بالزلزلة؟

- آه! شعرت بها في العشاء ليلة أمس.
- إنها أحدثت في الحائط الذي يفصل بيننا شقاً.. وأنا أكلهك منه.
- بيرام!
- تسبيه!
- إذن لقد رثت الآلهة لحالنا!
- واستجابت دعاءنا يا تسبيه، لقد حركتها موسيقي!
- إذن كنت تعزف وتغنى، بينما كنت أبكي وأئن وأذوي!
- لا! ولكني كنت أسكب نفسي دموعاً على أوتار القيثارة!
- يا لقسوة هذا الجدار يا بيرام! إنه يفصل بيننا بشدة؟
- هو على كل حال أرحم بنا من أبويناء.. أليس قد انفرج ليصل حديثنا؟
- نشكره جداً يا تسبيه.. وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك.
- بيرام!
- حياتي!
- هل الجنة أجمل من سجننا هذا؟
- إنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه؟
- وهذا الظلام! أليس هو أضوأ من سنا الضحى؟
- لأننا نتحدث فيه يا أختاه!
- أحب أن أسمع موسيقاك يا بيرام نتدفق في روحي خلال هذا الجدار.

- ليس أحب إليّ من ذلك يا تسبيه.
 - أنا لم أسمعك تغني مذ تناكر أهلونا.
 - سأفعل إن وددت؟
 - وماذا عساك تغني؟
 - كل أغنياتي التي ترمت بها فيك؟
 - ألا تغني شيئاً آخر؟
 - للآلهة! لأنها أنعمت على بحبك!
- وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذنين كلما جنهما الليل، وضمهما غاشي الظلام، أحاديث كأوشية الروض، وأفواف الزهر، ونجوى البلابل، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانها على جفاء الأهل، ولدد الطباع، وقسوة الأيام.
- ولم يحتملا هذه الحال طويلاً، فلقد شفهما الهوى، وأنخلتهما الصبابة، وفعل الحب في قلوبهما الضعيفين أفاعيله. ففي ليلة سافرة البدر، ساجية النسيم، صمتت فيها الطبيعة، وتكلم القمر، دار بين العاشقين الحديث الآتي:
- تسبيه؟!
 - بيرام!
 - أوشك القمر أن يكون بدرًا يا حبيبتى!
 - إنه جميل الليلة، وحذا أن يظل جميلاً الليالي المقبلة...
 - إن القمر جميل دائماً.. أليس هو ابتسامة هذه الدنيا في ليالي العاشقين؟

- لكنه صامت أبداً.. إنه أبكم لا يعي!
- سو... لا تقولي ذلك يا تسبيه... قد تسمعك ديانا فتغضب!
- هل يتكلم؟ هل يفهم؟
- أما أن يتكلم فحق... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا.. إنه يتكلم بلسان من فضة يا تسبيه، لسان له رنين حلو في أعماق الروح.. ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم..
- خيال شاعر وفلسفته؟
- بل هو الحق يا حبيبتى! لقد كان يكلمني وكنت أكلمه، وكان يفهمني وكنت أفهمه، كان يكلمني بأرادته^(١) وأضوائه، وهي لسان صامت ولكنه بليغ لسن، وكنت أكلمه بوجداني مرة، وموسيقاي أخرى، فكان يضحك في الأولى، ويرقص في الثانية.. تسبيه!
- ماذا يا بيرام؟
- أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً، في هذا السهل المنبسط..
- غداً؟ وكيف؟
- ولم لا؟ ألا ترغبين؟
- وكيف أرفض؟ أنا أتمنى ذلك..
- إذن سنلتقي؟
- وكيف أفعل يا بيرام؟

(١) أشعته.

- تنسرقين إذا نام أهلك... لن يشعر بك أحد..
- وأين نلتقي؟
- عند مقبرة نينوس.
- ...؟..
- ألا تعرفينها؟
- مكان رهيب!
- لكنه جميل رائع! سنجلس ثمة بين يدي القمر ونحدث،
ونشفي أنفسنا مما تجدد!
- وتعزف وتغني؟
- وقد نبكي؟
- ..؟..
- اتفقنا! أليس كذلك؟
- اتفقنا.
- إذن أنتظرك، إذا لم أجدك هناك، عند النبع القريب، تحت
التوتة البيضاء! وكذلك تفعلين.
- أفعل ماذا؟
- تنتظريني ثمة إذا سبقتني؟
- ترى ماذا تبتغي ديانا مني؟
- لا شيء... لا شيء...

* * *

ما كان أجملها ليلة سطع في حواشيا القمر، ودحرج الآلام على مياه النبع، ودغدغ بأضوائه العشب وأفنان الشجر، فتبسّمت وتضاحكت، ونشر في أجوائها بخوره المتصاعد من مجامر الورد، ومداهن البنفسج، احتفاء بمقدم تسبيه، يا لجمال الطبيعة! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامته تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسقرت تحت إسدال الظلام، تمشي كالقطاة، وترسل من فوق رأسها نماراً رقيقاً كسحابة الصيف، تستر ما وراءها وليست شيئاً! لقد كانت توجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل، كما يسري الحلم الجميل في خلد النائم.

وذهبت تطوي الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة، وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر، ولكنها لم تجد حبيبها عندها.. ترى ماذا عوّقه؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلعب في ضوء القمر، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الأرض؟ وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي، ولكنها أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل، وتصاوير الوهم المريض، ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء، والنبع الذي عندها، فارتدت إليهما لتجلس ثمة، ترتقب زورة الحبيب. وجلست عند جذع التوتة، وجعلت تحدج الثمر الأبيض، وتشتهي لو سقط منه شيء فتأكله حتى يحضر بيرام..

ثم سمعت ديباً يقترب، فلم تشك أن بيرام قد أقبل، ونبض قلبها بشدة واندرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة في أن تذرفها.. ثم أبطأ الديب.. ووثبت تسببه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيا الصامته الرهيبة، ولكنها لم تر شيئاً، وعادت عفاريت الليل ترقص في وهماها، ولكنها لم تبال، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة، عنيفة مرة أخرى، وهي في هذا وذاك تفكر في بيرام، وتضرب لتأخره أنحاساً لأسداس.. ثم ذعرت الفتاة ذعرًا كبيراً، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين الواهنتين.. ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قرب فجأة، ثم تيم شطر النبع الذي تعرش من فوقه التوتة. ماذا؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوي من ظمأ ملح وجواد^(١) شديد.. وهي تنهنس^(٢) مع ذاك كأنها عروس، ولكن عروس من الجن.

وأطلقت الفتاة ساقها للريح، ولم تحفل بها اللبؤة، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها، وهذا فيها ملوث بالدم الغريص الدافئ.. لم تصنع اللبؤة شيئاً، إلا أنها رأت الخمار الأبيض الذي كانت تسببه ملتفعة به، ملقى على الأرض، فعاثت فيه، وكأنما أرادت أن تمسح فيها به، فلوثته بالدم، ثم همهمت نحو النبع فارتوت على مهل، وعادت أدراجها نحو الدغل الذي تركت فيه فريستها لتأتي على بقاياها.

(١) الظمأ.

(٢) تنبخر.

أما الفتاة فقد ظلت تجري حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت في أصلها فراغاً فاخبتأت فيه، وراحت تلهث من الذعر والتعب، وتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها.. وقد أيقنت أن ديانا إلهة القمر، قد سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه، فساقت إليها ذاك الوحش في هذا الليل.

ولم يمض وقت طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفي نفسه لهفة، وبقلبه قلق، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عندها شيئاً، ووقف قليلاً يبحث عن تسبيه في كل شيء! في شجيرات الورد وفسائل الزنبق، وفي العشب الخائف المذعور حول المقبرة، وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث في السحابة الرقيقة البيضاء التي انتشرت على وجه القمر في هذه اللحظة، مشبهة نمار تسبيه، إذ يكون على وجهها الرقيق الناحل.. ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء، فأنثى ميمماً شطرها..

"يا للهول! ويا للفرع الأكبر! ما هذا؟ نمار حريري أبيض؟ لمن هذا النمار يا ترى؟ أواه! إنه نمارها لا ريب! لقد شهدتها تلتفع به مراراً! يا أرباب السماء! ما هذا الدم؟ وا أسفاه عليك يا تسبيه! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم! أنا السبب يا حبيبتى! لقد جررت عليك هذا باقتراحي الضال! ألا ليت أُمي أم تلدني! أي وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه؟ أيها القمر القبيح الأبكم، لماذا أغريتنا بهذا اللقاء؟ أنت تستر الآن حياء ونجلا من فعلتك التي فعلت، وكنت بالأمس سافراً متبرجاً!

اغرب أيها الأصفر كصفرة الموت، فلا جمال فيك! رد عليّ
موسيقاي وأغانيّ فأنت حبس^(١) لئيم لا تستأهل منها شيئاً؟ هات
كل ما عندك لي هات! هات دموعي وأشجاني وآهاتي! هات شهدي
وعبادتي ومناجاتي! قتلت تسبيبه تحت سمعك وبصرك؟! ما أقساك يا
صاحب الليالي المواضي! أوه.. ولكن لا.. أنا الذي قتلته، ولا ذنب
لك يا قمر. إني أستغفرك، أبق كل ذكرياتي عندك، فلا آمن عليها إلا
أنت؟ أما أنا.. فهل يا حسام اسكن هنا.. في حبة القلب. ارو من
هذا الدم الدافئ، فلا أمل لصاحبك في الحياة بعد اليوم".
وألقي الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله، لا حرصاً على الحياة
المرة، ولكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيبه قبل أن يأكلها
الوحش، وليتزود من الأثر الذي تركته في الوجود عيناها الحزینتان
المفروعتان..

ثم أغمد سيفه في صدره وسقط يتجرع غصص الموت!
وهذا روع تسبيبه، فبرزت من مكنها في أصل الدوحة، لترى من أين
كان يتردد في أذنيها هذا النداء الحبيب. وكان شبح اللبوة لا يزال
يتمثل لها فيفرعها في الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تسير بخطى
وثيدة لأنها ما شكت مطلقاً في أن النداء هو لحبيبتها؛ لأن الصوت
الفضي الذي كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلها، كان لا
يزال يداعب أذنيها الصغيرتين..

(١) يكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم.

ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة في هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة.. فأسرت وأسرت!

- من هذا المستلقي على حفاقي النبع؟ هو من غير شك! ثم أسرت أكثر من ذي قبل.

- بيرام؟! ما هذا؟ السيف في صدرك؟ لمه؟ حبيبي! رد علي؟ كلم تسبيه! ها أنا ذي! لم قتلت نفسك يا بيرام؟

آه! هذا الخمار الأبيض! وي إنه ملوث بالدم؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة؟

- تس.. بيه!

وأرسل القتل هذا الاسم المحبب وحشجة الموت تعتلج في صدره، ثم فتح عينيه قليلا فرأى فتاته تبكي فوق رأسه، فتبسم.. ثم مات!

- بيرام! لا! لا تمت! لا بد أن تعيش من أجلي.. ولكنه مات برغم هذه الأمانى.

- إذن أنا التي قتلتك يا حبيبي؟ اشهدي يا توتنا البيضاء!

ثم رفعت بصرها إلى فوق، ولكنها بدلا من أن ترى الثمر الشهي الأبيض، رأت ثمرا أحمر يقطر دما قانيا.

- أوه! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من حبنا

وسعدتنا؟ يا للقسوة؟ تعالوا يا أهل! تعالوا أيها القساة! فتشوا

عن الرحمة في قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا..

احذروا أن تفرقوا بعد اليوم بيننا، فقد ربطت جسومنا

المنايا..

لقد أبيتُم أن نجتمع في الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت..
وداعاً أيها القمر.. وداعاً فقد ظللناك!".

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته في صدرها بعد أن
قبلت بيرام الميت قبلة الوداع.. وسقطت تتخبط في دماءها إلى
جانبه.. ثم عاجلت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل، وشعرها
المغدودن، فوق صدره.. ولفظت ثمة آخر أنفاسها.
وأقبل أهلوهما في الصباح فبكوا كثيراً، واستغفروا لذنوبهم، ثم
أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع..
تحت التوتة الحمراء!

* * *

أدونيس

كان جميلاً كالكأس المترعة.. وله وجه أبيض كالجب، تتدفق الخمر في دمه، وتكمن في عينيه، وتثال على لسانه..
رأته فينوس يستحم في بحيرة مزهرة، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلور، يسبح في لجة من لجين!
ولمحا الغلام فنجل واستحيا، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس.. ولكن الحياء ورد وجنتيه، وصبغ خديه، وقتر ناظريه، وتصبب في شفثيه فاحمرتا! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة، وعجباً يشيع في الماء..

وسبح إلى الشاطئ المقابل، بيد أن فينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو، فاثني يريد الشاطئ الآخر، فكانت فينوس عنده كذلك، فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرة أخرى، ولكن الإلهة العنيدة كانت تسابق الوهم في الوصول إلى أحد الشاطئين، فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بداً من البروز إلى البر، وليكن من أمر هذه الغادة التي تهاجمه بحبا - وهو لا يعرف من هي - ما يكون.

- "أدونيس.. أليس كذلك؟".

- "؟..".

- "ألا تتكلم؟..".

وكانت قطرات الماء البلورية تنحدر على جسمه الرقيق، فمن يدري؟
أهي من ماء البحيرة أم من ماء النجل!...

- "تكلم يا أودنيس! ألا تعرف من أنا؟..".
- "؟؟؟.. ..".
- "أنا التي سجد عند إخمصها مارس الجبار! لقد ألقى سلاحه
لدى النظرة الأولى التي زلزلت بها أركان قلبه! ألا تصدق؟
أدونيس؟!..".
- "أرجوك.. إن رفاقي ينتظرونني، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا
للصيد..".
- "صيد؟.. وماذا تصيدون في هذه البرية الموحشة؟..".
- "الخنازير يا غادة.. إنها متوحشة جداً..".
- "وهي خطيرة أيضاً، وكل يوم لها ضحايا.. أدونيس! أأست
ترى إلى جمالك الفينان! ألا تشفق عليه من أن يصيبه سفع
من شمس هذه البرية المحرقة؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير
القتالة؟.. تكلم! لا تصمت هكذا!..".
- "أرجوك؟".
- "ترجوني؟ أنا التي أرجوك يا حبيبي!..".
- "...؟؟؟...".
- "أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبي؟ وي! ما هذا الحياء،
يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس؟ تعال.. هات قبلة!".
- "لا.. لن يكون شيء من هذا! اسمعي! ها هي ذي سلوكياتي
تنبح ولا بد أن أسرع إليها.. دعيني.. دعيني!".

- "لن أدعك، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تغفل من ذراعي يا حبيبي!.. هات قبلة قلت لك!..".
- "...؟؟؟...".
- "إذن أنال بالقوة كل ما أشتهى! سأحرق شفيتك الباردتين بشفتي المشتعلتين!".
- "أ.. ر.. جوك أوه.. حس.. بك..".
- "فك جميل شهبي، ولكن خديك جميلان كذلك.. ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان!..".
- "...؟؟؟...".
- أنفاسك تتضوع من فك الرقيق، وأنفك الدقيق، فهل فيك حديقة من بنفسج؟؟..".
- "أر. جوك.. كفى.. كفى سلوكياتي تنبح، ولا بد أن أذهب!..".
- "تذهب؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذي يضمك؟ حقا أنت غريب!..".
- "أرجوك.. قلت لك!".
- "كل هذه القبل أغمر بطوفانها فك، ولا تحيها بقبلة؟؟.. قبلني!..".
- "لا.. لا أقدر.. أرسلني ذراعيك عن عنقي..".

- "أنت لا تقدر؟ آه يا ساذج؟.. إنني لن أفلتك ما دمت تناله عليّ!..".
- "أرجوك، دعيني أذهب! أوه..".
- "قبلني قلت لك! لن يقهر كبريائي فتى غرير مثلك! إذا قبلتني أرسلتك!..".
- أقبلك؟
- أجل، قبلني يا أدونيس!
- أقبلك كيف؟
- هكذا يا صغيري
- ؟.. ؟.. ؟.. دعيني إذن!

* * *

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع، فارتجفت ارتجافة هائلة، وخرت إلى الأرض كأنما غشي عليها، وارتبك الفتى الذي لم يألَف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو، ثم يذهب إلى صيده بعد. ولكنه لم يدر ماذا يفعل، وعلى كل، فقد طفق يدلك قدميها، ويربت على صدرها، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها. فلها لم تفق، أهوى على فمها الحلوى لشمه.. ويرد إليه دينه من القبل!

وكانت فينوس الخبيثة تحس وتصمت..

ولا تأتي بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التي تطيف بها، وتنزل من السماء الصافية عليها.

ألم تكن تضرع إليه من أجل قبلة واحدة؟
فكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القبل؟!
ولم تطق فينوس..
ففينوس ربة ولكنها هلوك!
لقد طوقت أدونيس بذراعيها ثم أمطرت فيه الخمري، ووجهه
العطري، آلاًفاً من القبل العذاب، والنولات الرطاب^(١).
حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر، وعينين تثقدان اشتهاً،
ولكنه كان يصم أذنيه ويغلق أبواب قلبه.
وضمته بجمرة وعنفوان إلى ثديها، فما زادته إلا شموساً وعناداً..

(١) لا نستطيع متابعة الموقف، ولكننا نثبت هنا أسطرًا من شكسبير الذي لم
نعرف فيه تفحشاً، في وصف ما كان بينهما - وذلك من قصته الخالدة
Venus and Adonais (مجموعة وارك ولوك ص ١٥٢٤).

He will not manage her, although he mount her.. etc...

All is imaginary she doth prove,

Her champion mounted for the hot encounter:

Now is she in the very lists of love.

He on her belly falls, she on her back.

She sinketh down, still hanging by his neck,

and on his neck her yoking arms she throws:

والقصة رائعة، وبها أكثر من ثلاثمائة بيت في وصف القبل وحدها، ومن لم
يقرأها لم يعرف شكسبير القصص. والنولة القبلة

قالت له: "ألا تقبل عليّ إلا ميتة يا أدونيس؟ أيسرك أن أقضي بحبي إذن؟ أأست أعدل عندك خنزيراً برياً؟ أكلهما خلعت عليك شبابي ونضرتي وحيي، ألقيت بها في تراب كبريائك غير آبه لدموعي وتوسلاتي؟ افتح قلبك للحب يا صغيري!!..

ولكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها: "أهذا كله عندك هو الحب؟..".

فتنظر في عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما في قرارة نفسه وتسأله: "إذن ما هو يا أدونيس؟".

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها: "إن كنت تجهلين ما هو، فالحب أجل من هذا وأقدس يا غادة.. إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره، وروحك للغلظة تحرقها وتذهب بها شعاعاً.. دعيني أذهب إذن.. دعيني.. سلوكياتي تنبح ولا بد أن أذهب إليها..".

* * *

وكان ثلجا ذاب في أعصاب فينوس عندما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها، فتقلصت ذراعاها، وفترت نفسها، ونحمت في قلبها تلك الشهوة الملحة التي سلطت عليها تعذيبها وتضيئها.. واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها، فانطلق يعدو كالظلم إلى سلوكياته التي كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادي النواجذ، بارز الأنياب. وجلست فينوس تنظر إلى أدونيس يعدو، وتجتز كلماته وتتعذب.

وغفت إغفاءة قصيرة، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد، فهبت مروعة؛ لأن الصوت كان يصوت.

يا للهول!!

أدونيس مخرج بدمه، وعيناه مستسلمتان للموت^(١)، وسلوقياته تبكي حوله؟! لقد انقضض عليه الخنزير الضاري فزق لحم الفخذة، وسرى في الدم سم الكلب؟

ووقفت فينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكي.. ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها، وجعلت تقول:

"ألم يكن حباً حي يا أدونيس؟!"

يا للقضاء!

كنت أعرف هذه النهاية، وكنت أشفق عليك منها، ولذا كنت أثنى بك، وأحاول أن أنسيك بقبلي ودموعي خنازير هذه البرية، ولكنك قلت إن حي شهوة وصباوتي غلعة، فجئيت على نفسك وعلي!! أوه! يا لبرودة الموت؟ أدونيس؟ أدونيس؟

رد علي يا حبيبي!

لقد حسبتني عادة!

أنا فينوس أكلهك فرد علي.. آه..".

(١) اقرأ مرثاة شيلي (أدونيس) في كنيس، طبعة أكسفورد ص ٤٢٥.

- وألقت به على الكلاء السندسي، وانطلقت تبكي وتنتحب حتى كانت عند عرش الأولمب، فقالت تكلم رب الأرباب زيوس العظيم:
- "أدونيس يا أبي!!".
- ماله؟..
- قضى.. قتله الخنزير..
- ومالك مذعورة هكذا؟..
- "مذعورة؟! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز!".
- وقف إله كان يجلس قريباً من السدة وقال: تذهبين إلى هيدز؟! يا للهول! والجمال والحب؟ أيذهبان في أثرك إلى دار الموتى؟ وهذه الدنيا يا فينوس؟..
- "هذه الدنيا تعني من بناها.. تخرب.. لا زهر.. لا شفق.. لا طير.. لا موسيقى.. لا خمر.. لا حب.. لا حنين.. لا غزل.. لن تكون دنياكم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبي أدونيس!!".
- فسجد الإله الذي تكلم أمام زيوس، ثم نهض وقال له:
- أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاي أن يلي طلبه فينوس ربة الحب..
- فتبسم إله خبيث كان بالقرب منه، وغمز إليه وقال:
- وربة الجمال يا بن العم!!

وأرسل زيوس العظيم إلى أخيه.. بلوتو.. إله هيدز، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه، ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا، فأبى أن يلي رجاء أخيه.. فألح عليه، فلم يقبل..

تم اتفاق الأخوان، زيوس وبلوتو، على أن يجعلوا حياة أدونيس مناصفة، فيقضي ستة أشهر في هيدز، أشهر الخريف والشتاء، وستة أشهر في الدنيا، حيث تأخذ زخرفها في الربيع وتؤتي أكلها في الصيف!!

ولما لقيت فينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له: "أستطيع اليوم تعريف الحب؟". فقال أدونيس: "هاتي قبلة يا فينوس.. هاتي قبلة.. هاتي ألف قبلة..".

* * *

الفهرس

٦	هذا الكتاب
٨	مقدمة
١١	بسيشييه وكيوبيد
٣٣	أيخو ونركيسوس
٤٣	بين أبوللو وكيوبيد
٥٢	يو
٦٤	برسيوس وأندروميديا
٧٩	أرفيوس الموسيقي
٨٩	مأساة أم
٩٨	يوم قيامة وطيش فيتون
١١١	بلوتو يخطف برسفونيه
١٢١	مصرع بروكريس
١٣٣	أجنحة ديدالوس
١٤٢	بومونا
١٥٥	خرافة جاسون
١٩٦	فينوس
٢٠٨	القرية الظالمة
٢١٨	غرام أورورا
٢٢٩	بحماليون المثال
٢٤١	ثيديوس يقتل المينوتور
٢٥٤	بندورا
٢٦٤	هيرو ولياندر
٢٧٦	هرقل
٢٨٦	مغامرات هرقل
٣٢١	التوت الأبيض والتوت الأحمر
٣٣٤	أدونيس

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com